



جامعة مؤتة
عمادة الدراسات العليا

راضي صدوق... شاعراً

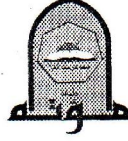
إعداد الطالب
معتصم دحيلان الضلاعين

إشراف
الأستاذ الدكتور محمد أحمد المجالي

رسالة مقدمة إلى عمادة الدراسات العليا
استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير
في الأدب قسم اللغة العربية

جامعة مؤتة، 2008م

بسم الله الرحمن الرحيم



MUTAH UNIVERSITY

Deanship of Graduate Studies

جامعة مؤتة

عمادة الدراسات العليا

نموذج رقم (14)

قرار إجازة رسالة جامعية

تقرر إجازة الرسالة المقدمة من الطالب معتصم دحيلان الضلايين الموسومة بـ:

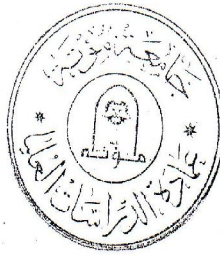
راضي صدوق شاعراً

استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في اللغة العربية.

القسم: اللغة العربية.

التوقيع	التاريخ	
	2008/08/03	أ.د. محمد أحمد المجالي مشرفاً ورئيساً
	2008/08/03	أ.د. محمد علي الشوابكة عضواً
	2008/08/03	أ.د. سامح عبدالعزيز الرواشدة عضواً
	2008/08/03	د. إبراهيم عبدالله البعول عضواً

عميد الدراسات العليا
أ.د. حسام الدين المبيضين



MUTAH-KARAK-JORDAN

Postal Code: 61710

TEL :03/2372380-99

Ext. 5328-5330

FAX:03/ 2375694

e-mail:

dgs@mutah.edu.jo

sedgs@mutah.edu.jo

<http://www.mutah.edu.jo/gradest/derasat.htm>

مؤتة - الكرك - الأردن

الرمز البريدي: 61710

تلفون: 03/2372380-99

فراعي 5328-5330

فاكس 03/2 375694

البريد الإلكتروني

الصفحة الإلكترونية

الإهداء

إلى أمي..... رمز العطف و الحنان.
إلى أبي..... رمز التضحية والعطاء.
إلى أخواني وأخواتي.... ورفقائي في الحياة.
إلى مَنْ.....سكنت فؤادي.
إلى الشهداء والأحرار..... في كل زمان ومكان.

معتصم الضلاعين

الشكر والتقدير

يشرفني أن أتقدم بجزيل الشكر والتقدير لأستاذي الأستاذ الدكتور محمد المجالي ،
لما قدمه لي من عناية وتوجيه، ولما لقيه من صبر عليّ طوال مدة الدراسة.
كما أتقدم بجزيل الشكر من الأستاذ الدكتور سامح الرواشدة ، والأستاذ الدكتور
محمد الشوابكة ، والدكتور إبراهيم عبد الجواد البعول، الذين تحملوا عبء قراءة هذه
الرسالة ومناقشتها، لتقويم ما اعوج منها وإخراجها على أكمل وجه.
ولن أنسى أن أتقدم بالشكر والتقدير للأستاذ الشاعر راضي صدوق ، والدكتور
إبراهيم الخطيب، والمهندس صفوان البخاري، ومحمد الذنبيات، ومحمود الضلاعين،
وخالي أنس الضلاعي لما قدموه لي من مساعدات عظيمة ، سواء أكانت ملاحظات
أو نصائح أفادتني في هذه الدراسة.

وأسأل الله أن يكون هذا العمل خالصاً لوجه الكريم.

معتصم الضلاعين

فهرس المحتويات

الصفحة	المحتوى
أ	الإهداء
ب	الشكر والتقدير
ج	فهرس المحتويات
هـ	الملخص باللغة العربية
و	الملخص باللغة الإنجليزية
1	المقدمة
3	التمهيد
9	الفصل الأول: التكوين الأسري والشعري
46	الفصل الثاني: الدراسة الموضوعية
46	1.2 البعد الوطني
65	2.2 البعد الاجتماعي
75	3.2 البعد الوجداني
75	1.3.2 الغزل (المرأة)
91	2.3.2 الغربة والحنين
101	3.3.2 الحزن والتشاؤم
109	4.3.2 النزعة الفلسفية التأملية
121	الفصل الثالث: الدراسة الفنية
123	1.3 مفهوم التناص
125	1.1.3 التناص الديني
134	2.1.3 التناص الأدبي
141	2.3 مفهوم الرمز
144	1.2.3 الرموز الطبيعية
150	2.2.3 الرموز الخاصة

155	3.2.3 الرمز اللوني
159	3.3 الصورة الشعرية
159	1.3.3 مفهوم الصورة الشعرية
162	2.3.3 الصورة الشعرية عند راضي صدوق
164	3.3.3 أنماط الصورة الشعرية
164	1.3.3.3 الصورة البصرية
169	2.3.3.3 الصورة السمعية
175	3.3.3.3 الصورة اللمسية
177	4.3.3.3 الصورة الذوقية والشمية
182	الخاتمة
184	المصادر والمراجع

الملخص

راضي صدوق شاعراً

معتصم دحيلان الضلاعين

جامعة مؤتة، 2008م

تتناول هذه الدراسة واحداً من أبرز الشعراء الأردنيين ، ممن أسهموا في إثراء الحركة الشعرية في الأردن في المرحلة التأسيسية في مطلع الخمسينات، من خلال إصدار مجموعة كبيرة من الدواوين الشعرية والروايات والقصص القصيرة والدراسات الأدبية والنقدية والمقالات المتنوعة.

وقد جاءت هذه الدراسة تمهيد وثلاثة فصول ، وقفت من خلالها على الحركة الشيعية في الأردن وموقع الشاعر منها ، ومن ثم تناولت أهم الأغراض الشعرية الوطنية والقومية والاجتماعية والوجدانية ، مبيناً دوافع توظيفها في شعر راضي صدوق، وتلعتها بدراسة فنية تناولت فيها :التناس بأشكاله ، والرمز بأنواعه، والصورة الشعرية بأنماطها ، موضحة قدرة الشاعر الفنية والشعرية.

وقد اعتمدت في هذه الدراسة على الدواوين الشعرية للشاعر ، واتكأت على المقابلات الشخصية التي أجريتها مع الشاعر ، إذ كان لها أثر واضح في أغناء هذه الدراسة وإثرائها.

Abstract

Radhi Sadoq As a Poet

Mu'tasem Dhelan Adhala-e'in

Mu'tah University, 2008

This study deals with **Radhi Sadoq** well-known Jordanian poet who contributed in enrichment of the poetic movement in Jordan in the beginning of 50s, through publishing a considerable set of poetry, novels, short story, literary and critical studies, and other articles.

The study consists of an introduction and three chapters which discussed the movement of poetry in Jordan and the poet's position of this movement. Then, the study discusses the important poetic themes such as: nationalistic, native, social, and emotional. In this study, I have shown the causes which made the poet, Radhi, to use it in his poetry. The study discussed forms of intertextuality, types of symbol, artistic unit and the poet's artistic and poetic ability.

The study depended on the poet's divans and personal interviews with the poet.

المقدمة

تتناول هذه الدراسة واحداً من أبرز شعراء الأردن ، ممن شاركوا مشاركة فعالة في دعم مسيرة الأدبية في الأردن، من خلال إصداره مجموعة كبيرة من الدواوين الشعرية والروايات والقصص القصيرة والمقالات الكثيرة التي تناول فيها جميع قضايا الحياة المختلفة.

وتهدف هذه الدراسة إلى التعريف بالشاعر (راضي صدوق)، الذي بدأ كتاباته في وقت مبكر، إذ بدأ كتابة الشعر ونشره منذ نهاية الخمسينيات وبداية الستينيات، إلى جانب الأنواع الأدبية الأخرى فكتب الشعر والرواية والقصة القصيرة والمقالات التي نشرتها صحف ومجلات عربية وأجنبية.

ثم الوقوف على عدد كبير من القصائد التي كتبها الشاعر، لاسيما أن له سبعة دواوين شعرية تنوعت بين القصائد العمودية والحرّة والنص النثري الذي أطلق عليه هو (نثر في نثر)، والكشف عن أبرز ما في شعر (راضي صدوق)، من قيم وقضايا وموضوعات تناولها بأساليب فنية مختلفة.

وقد دفعني إلى تناول هذا الموضوع غفال كثير من الدارسين شاعرًا مثل (راضي صدوق)، على الرغم من أن لديه نتاجاً شعرياً ونثرياً يشكل معيناً لا ينضب.

تنوعت مصادر دراستي في هذه الدراسة، إذ اعتمدت على الدواوين الشعرية، لاسيما أنها سبعة دواوين غنية بالقصائد العمودية و شعر التفعيلة، ووقفت على كثير من الدراسات والمقالات الأدبية والنقدية التي نشرتها الصحف والمجلات العربية والأجنبية وقد عدت إلى كثير من الكتب التي تناولت الحركة الأدبية الأردنية ، وبخاصة مؤلفات الدكتور سمير قطامي، والدكتور عبد الفتاح النجار ، وغيرهما الكثير.

وقد اعتمدت على تقسيم الدراسة إلى تمهيد وثلاثة فصول وخاتمة. ففي التمهيد، وضت للحركة الأدبية في الأردن منذ تأسيس الإمارة وحتى الوقت الحاضر وحددت موقع الشاعر منها.

وأما الفصل الأول فقد تناولت فيه التكوين الأسري والشعري للشاعر ، إذ فصلت القول بموضوع المولد والنشأة ومصادر ثقافته وتكوينه الشعري ، وآثاره الأدبية ، ثم تحدثت عن بداياته الشعرية ورأيه في الشعر وشكل القصيدة عند هـ ، وموقفه من حركة التأليف نقدلي في ميدان الشعر العربي ، ورأيه في حركة التجديد والمجددين في القرن العشرين.

وخصصت الفصل الثاني للحديث عن موضوعات مضمونية مختلفة أهمها: الجانب الوطني والقومي عند الشاعر، والجانب الاجتماعي بما فيه من حديث عن الفقر والجوع والصدق والوفاء والظلم والاستبداد والفوارق الاجتماعية . ثم الاتجاه الوجداني، الذي يتضمن الحديث عن المرأة "الغزل"، والغربة والاعتراب والحنين، والحزن والشاؤم، والنزعة الفلسفية التأملية عند الشاعر، مستشهداً بنماذج شعرية كثيرة ممثلة لكل جانب من هذه الجوانب لـ لتعبير عن عميق المأساة والمعاناة التي عاشها الشاعر.

أما الفصل الثالث من الدراسة، فقد تناولت فيه اللغة الشعرية من خلال : التناص بأنوطه المختلفة الدينية والأدبية ، والرمز من خلال أشكاله المختلفة : الرموز الطبيعية، والرموز الخاصة ، لرموز اللونية عند الشاعر ، والصورة الشعرية بأنماطها ، وقد كشفت لنا الدراسة الفنية عن قدرة الشاعر في التعبير عن رؤيته الشعرية وأبعاد التجربة الشعرية التي عاشها عبر مسيرة حياته الطويلة. ثم أنهيت الدراسة بخاتمة، تضمنت أهم النتائج التي توصلت إليها بنهاية هذه الدراسة.

التمهيد

الحركة الأدبية في الأردن وموقع الشاعر منها

عاش الأردن بعد الحرب العالمية الثانية ونكبة فلسطين عام 1948م مرحلة حرجية من تاريخه السياسي، حيث الصراعات الحزبية والضغط العربي والأجنبي والإسرائيلية، مما زاد في مكابذته الظروف الاقتصادية والتحول الاجتماعي السريعة في شتى مرافق الحياة كالخدمات والتعليم والإسكان والصحة⁽¹⁾.

وقد ارتبطت الحركة الشعرية الأردنية ارتباطاً وثيقاً بالواقع الاجتماعي والواقع الاقتصادي والسياسي، إذ عبّرت قصائد الشعراء في تلك الفترة عن هموم الناس الاجتماعية والاقتصادية والقومية، إذ إن هذه الظروف كان لها دور كبير في نضج حركة الشعر المعاصر في الأردن.

وكان هنالك حركتان شعريتان قبل وحدة الضفتين، إحداهما في فلسطين والأخرى في شرق الأردن. وكان اتصال الحركتين على المستوى الشعبي يتم من خلال لقاءات الشعراء في القطرين المذكورين قبل عام 1948م وخروج قسم كبير من الشعراء الفلسطينيين إلى الضفة الغربية وإلى شرق الأردن⁽²⁾.

وجاء عام 1950م التحام الحركتين الشعريتين في شرق الأردن وفلسطين، وتوحيدهما في حركة شعرية واحدة بإعلان وحدة الضفتين، ومنذ ذلك الحين أصبح كل شعراء فلسطين في الضفة الشرقية أو الغربية شعراء أردنيين، ولذا أصبحت عبارة "الشعر الأردني" تُقضى بها الشعراء الأردنيين في الضفتين: الشرقية والغربية⁽³⁾.

وقد اتفق معظم الباحثين على أن تاريخ الحركة الشعرية في الأردن بدأ مع قدوم الأمير عبد الله بن الحسين من الحجاز عام 1921م وتأسيسه إمارة شرق الأردن،

(1) قطامي، سمير: الحركة الأدبية في الأردن (1948-1967)، منشورات وزارة الثقافة والتراث القومي، عمان، 1989، ص4.

(2) النجار، عبد الفتاح: التجديد في الشعر الأردني، (1950-1978)، ط1، دار ابن رشد للنشر والتوزيع، عمان، 1980، ص17.

(3) المرجع نفسه، ص18.

فمن مجالسه الأدبية ولدت نهضة فكرية وأدبية أخذت تشق طريقها بالأجيال الصاعدة من الكتاب والشعراء، إذ أعطى الأمير جل اهتمامه ورعايته (1) لتلك المجالس الأدبية.

وقد كان الأمير قائداً ، سياسياً، وشاعراً يحب الشعراء ويحتضنهم ويجتمع في بلاطه عدد من الشعراء كان معظمهم في بداية الحركة الشعرية من خارج الأردن، جاءوا مع الأمير ضمن حاشيته أو جاءوا بعد ذلك بوقت قصير، ليسهموا في النضال الوطني في بلاد الشام حيث اعتبروا الأردن منطلقاً لتجديد الشعري في بلاد الشام (2).

وكان للملحى الأدبية في بلاط الأمير عبداً لله بن الحسين دورٌ في انتعاش الحركة الأدبية الأردنية، فقد كانت مجالسه مجالس أدب وفكر وثقافة.

وقد وصف تيسير ظ بيان في كتابه "الملك عبدالله كما عرفته" تلك المجالس وصفاً دقيقاً؛ لأنه كان أحد المقربين إلى الأمير وأحد المشاركين في تلك المجالس.

يقول تكتل عيناى في جميع سني حياتي بمشاهدة مجلس أجل شأنًا ،وأشد هيبة، وأرفع قدراً، وأنبه ذكراً، وأطيب أثراً ، وأوقع في النفس، وأحب إلى القلب من تلك المجالس الخاصة التي كانت تعقد من حين لآخر في قصر (رغدان) أو (بسمان) أو (المشتى) في "الشونة" برعاية الملك عبداً لله بن الحسين لما كان يدور فيها من مساجلات شعرية، ومطارحات أدبية ومناقشات أدبية وعلمية، وحوار سياسي على مستوى رفيع (3).

ولعل من أبرز شعراء البلاط :خير الدين الزر كلى، وعادل أرسلان، وعلمحس الكاظمي، وإسعاف النشا شيبى ، وكامل شعيب، وعمر أبو ريشة، ومصطفى وهبي التل، وتيسير ظبيان وغيرهم.

(1) قطامي، سمير: الحركة الأدبية في الأردن (1921-1948) وزارة الشباب، عمان، 1981م، ص19.

(2) ياغي، هاشم وآخرون: ثقافتنا في خمسين عاماً، منشورات وزارة الثقافة، عمان، ص80.

(3) ظبيان، تيسر: الملك عبداً لله كما عرفته، المطبعة الوطنية، عمان، 1967، ص60.

أما الشعراء الأردنيون الذين انحدروا من أصل أردني فلم يظهر نشاطهم الشعري بشكل واضح قبل هذه الفترة، وكان مصطفى وهبي التل أكبرهم سناً، وأقواهم شاعرية، إذ إن شعره الذي سبق عام 1923 لا قيمة له إلا باعتباره جزءاً من تاريخ الحركة الشعرية في الأردن⁽¹⁾.

وغير عرار فقد عرف من الشعراء نصحي أبو غنيم، وعبد المنعم الرفاعي، وحسني فريز وحسني زيد الكيلاني، وشكري شعشاعة، ومحمد الشريقي وغيرهم ممن تحدثوا عن المأساة الفلسطينية عام 1948م.

وقد شارك الشعر في هذه الفترة في صنع الحياة الأدبية والسياسية معاً. وفي الوقت الذي كان فيه شعراء الأردن يكتبون شعر الحب والطبيعة كانوا يكتبون الشعر الوطني والسياسي ويساندون دعوة الوحدة العربية حيث حمل الشعراء الأردنيون هموم القضية الفلسطينية باعتبارها قضيتهم وقضية أمتهم وكانت المأساة الفلسطينية مصدراً غزيراً للأدب الأردني⁽²⁾.

وقد كان للصحافة دور كبير في تطوير الحركة الشعرية في الأردن وكان الفضل يعود إلى الأمير عبد الله بن الحسين حيث صدرت مجموعة كبيرة من الصحف والمجلات منذ تأسيس الإمارة وحتى إطلالة الخمسينات ومن هذه الصحف التي قدمت دوراً كبيراً في الحركة الفكرية والأدبية: الجزيرة، الشرق العربي، وجزيرة العرب، والشريعة، والأردن، والرائد⁽³⁾.

أما المجلات فأهمها: مجلة القلم الجديد، ومجلة الأفق الجديد، ومجلة أفكار وغيرها.

(1) حداد، نبيل: الحركة الشعرية في الأردن (1921-1948)، (رسالة ماجستير)، جامعة عين

شمس، كلية الآداب، قسم اللغة العربية وآدابها، القاهرة، 1976م، ص 44.

(2) الناعوري، عيسى: الحركة الشعرية في الضفة الشرقية، ط 1، وزارة الثقافة والشباب، 1980، ص 6.

(3) شهاب، أسامة: صحيفة الجزيرة الأردنية، ط 1 منشورات وزارة الثقافة والتراث القومي، عمان، 1988، ص 48.

وقد اطلع الشعراء الأردنيون على الشعر الجديد من خلال مجلتي (الأديب) (والآداب) "البيروتيتين" في بداية الخمسينات . إذ أخذ شعراء حركة الشعر الحر الروافي العالم العربي أمثال : نازك الملائكة، والسياب، والبياتي، وأحمد عبدالمعطي حجازي ينشرون أدبهم، فيها وقد تأثر جيل الرواد في حركة الشعر الحر في الأردن بالشعراء العرب إذ اقتفوا آثارهم سجعوا على منوالهم ومن أهم هؤلاء الشعراء : نزهة إسماعيل وراضي صدوق، وأيوب طه، وناجي علوش، وعبد الرحيم عمر، وتيسير السبول، وأحمد أبو عرقوب، وحكمت العتيلي.

وكانت حركة الشعر الحر في الأردن قد اكتملت ملامحها، وشخصيتها قبل ظهور مجلة (الأفق الجديد)، وهناك دواوين شعرية كثيرة صدرت لشعراء الأردنيين ، من الشعر المحدث قبل ظهور هذه المجلة لكن فضل هذه المجلة وتأثيرها اقتصر فقط على جيل منتصف الستينيات.

واستمرت اندفاعه الشعر الحر، وكان لنكسة حزيران عام 1967م أثر واضح في ذلك. إلهطاع الشاعر أن يلتحم بقضيته بدل التعبير عنها فحسب . وهكذا تميز الشعراء بالعمق والبعد عن الذاتية، وعن وصف الشاعر المباشرة البسيطة، وأصبحت القصيدة لا تقدم معالجة وحلولا للواقع بل تتمرد عليه . كما ابتعد شعراؤنا عن الرومانسية التي اشتهر فيها شعراء الخمسينات وبداية الستينات من هذا القرن⁽¹⁾.

كانت المضامين التي طرقها الشعراء بعد هزيمة حزيران عام 1967م بمنزلة الزلزال الذي هز المجتمع العربي في كافة مناحي الحياة السياسية ، والاقتصادية، والاجتماعية، إذ ظهر الشعر الباكي الحزين الذي تسوده نزعة الحزن والتشاؤم ، وجلد الذات واليأس.

وقد أعطت نكسة حزيران الشعر الأردني دفعة قوية نحو الابتكار والتجديد ، في محاولة تمردية على الماضي إلى حد التطرف والرفض الكامل لكل ما سبق ، فضلا

(1) العدوان، أمينة: دراسات في الأدب الأردني المعاصر، منشورات رابطة الكتاب الأردنيين، ص6.

عن البحث عن الهموم عن أشكال ومضامين جديدة، مما أدى إلى الالتصاق بالواقع ومعالجة قضاياها⁽¹⁾.

ولعل من أبرز شعراء النكسة في الأردن: وليد سيف، وعز الدين المناصرة، ومحمود الشلبي، ونزيه القسوس، وحيدر محمود، وخالد محادين وخالد الساكت . ومع مطلع السبعينات ظهر عدد آخر من الشعراء منهم : عبد الله منصور ومحمد عطيات، وخالد الساكت، وفواز طوقان، وإبراهيم العجلوني.

كما ظهرت أصوات شعرية جديدة حاولت التجديد على الساحة الأردنية ومن أبرزها: غسان زقطان ومحمد الظاهر، ومؤيد العتيلي ، ومحمد إبراهيم لافي وغيرهم⁽²⁾.

وقد واكبت الحركة الشعرية الأردنية أحداث الأمة العربية ، فمع اجتياح القوات الإسرائيلية لجنوب لبنان ، وحصار بيروت عام 1982م، عبر الشعراء الأردنيون عن مشاعر الصديق والحزن من عظم المصيبة فنظموا في بيروت شعرا كثيرا واتخذت قصائدهم بعدا قوميا واضحا ومن أبرز الشعراء الذين كتبوا قصائد في بير وت: يوسف العظم، وإبراهيم نصر الله، ومؤيد العتيلي وسليمان المشيني، وخالد محادين، ومنصور البطاينة⁽³⁾.

وقد كان للأحداث العامة التي مرت بها الأمة العربية في الثمانينات أثر كبير في سيطرة الهم القومي على الشعر العربي المعاصر، فكانت الحرب العراقية الإيرانية⁽⁴⁾ التي شغلت مساحة واسعة من دواوين الشعراء الأردنيين ، ومن أبرز الشعراء الذين تحدثوا عن هذه الحرب : حيدر محمود وخالد محادين ، ومحمود فضيل التل، ومؤيد العتيلي، وإبراهيم نصر الله وغيرهم الكثير.

(1) الضمور، عماد: محمود فضيل التل حياته وشعره، ط1، وزارة الثقافة، 2001م، ص21.

(2) النجار، التجديد في الشعر الأردني، (1950-1978)، ص59.

(3) الوحش، إبراهيم محمداً، بيروت في الشعر العربي المعاصر، ط 1، المطبعة الاقتصادية، دبي، 1992م، ص454.

(4) الضمور، محمود فضيل التل حياته وشعره، ص25.

وفي عام 1987م انفجرت الانتفاضة الفلسطينية ، واستطاعت أن تدخل القضية الفلسطينية مرحلة جديدة وقد استثارت الانتفاضة عواطف الشعب الأردني ، وتفاعل الأدباء مع هذا الحدث العظيم . وكان للشعر الدور الأبرز في ذلك ، حيث أفرزت أحداث الثورة شعرا كثيرا ، كما كشفت الانتفاضة عن شعراء مجهولين تركوا بصمة واضحة في مجال الحديث عن صمود الشعب وتحقيق التضحيات (1).

يقول عبد العزيز المقالح : "ولعل تجليات الانتفاضة في حياة المجتمع العربي تتوقف في خلق مناخ إبداع واسع النطاق يتابع بالشعر والنثر، بالقصيدة والقصة والمسرحية نبض الانتفاضة ويحاول التقاط صورة هذه اللحظة التاريخية المتميزة (2).

وفي خضم هذه الأحداث كان الشاعر (راضي صدوق)، أحد الذين دخلوا حلبة التجديد في الشعر الأردني في النصف الأول من الخمسينات من القرن الماضي. وكانت إسهامات راضي صدوق المبكرة واضحة في الشعر الأردني، لا سيما فيما يخص قصيدة التفعيلة ، كما نلاحظ أن كثيرا من شعراء السبعينيات والثمانينيات قد أفادوا من التجربة الشعرية والفنية لهذا الشاعر ، إذ إن بعضهم يذكر بصراحة مدى تأثره بشعر صدوق وبخاصة أن أثر النكبة كان واضحا في نتاج صدوق الشعري والنثري معا.

(1) خليل، صالح: الانتفاضة الفلسطينية في الشعر الأردني والفلسطيني الحديث، رسالة ماجستير، جامعة مؤتة، ص2.

(2) المقالح، عبد العزيز: الصوت الفلسطيني في قصيدة الانتفاضة، مجلة الآداب، ص2.

الفصل الأول

راضي صدوق

التكوين الأسري والشعري

المولد والنشأة:

ولد راضي صدوق في مدينة "طولكرم" بفلسطين عام 1938م، اسمه الكامل "محمد راضي صدقي صدوق" من أسرة من الملاك الزراعيين تعود أصولها إلى عشائر الحويطات⁽¹⁾، وكانت تستوطن قرية "سفارين" بقضاء طولكرم، ثم نزحت إلى طولكرم منذ مائتي سنة، وعمادها الزراعة، لكن النكبة الفلسطينية الأولى طوحت بها إلى بلدان عربية أخرى، ففقدت بذلك الأرض والثروة الزراعية⁽²⁾.

وتنتمي والدته إلى أسرة (الدسوقي) الدينية التي ترجع إلى المتصوف الشيخ إبراهيم الدسوقي الذي تُنسب إليه مدينة "دسوق" في مصر، وقد رحل بعض أفرادها إلى فلسطين واستقروا في بعض القرى الشمالية من فلسطين، وخاصة قرية "دالية الروحة" وقرية "المكر"، ولقد ورث راضي صدوق كثيراً من الصفات الشخصية من والدته التي اشتهرت بصوفيتها ونقاوتها وإيمانها وصراحتها⁽³⁾.

وكان جدّ والدته قد جاء في جيش إبراهيم باشا إلى فلسطين واستقر في إحدى القرى بقضاء "عكا" وتزوج وأنجب وتكاثر أبناؤه وأحفاده وانتشروا في عدة قرى بشمال فلسطين⁽⁴⁾. كما أقام بعضهم في مدينة "يافا".

وبعد أن عصفت النكبة الأولى بما تملك أسرته في سهل طولكرم الساحلي الذي انتزعه "إسرائيل" بموجب اتفاقيات الهدنة، عاش راضي صدوق عيشة ضنك

(1) صدوق، راضي بنعراء فلسطين في القرن العشرين، توثيق أنطولوجي، دار كرامة للنشر، روما، 2000م، ص 249.

(2) العودات، يعقوب: البدوليلهم، أعلام الفكر والأدب في فلسطين، ط 1، 1968م، ص 354-355.

(3) المرجع نفسه، ص 355.

(4) مقابلة شخصية مع الشاعر، 2007/8/20م.

ومعاقبته إلى العمل ليعيل أسرة ضخمة، فمضى بآماله وطموحه ، وعكف على تثقيف نفسه بنفسه، فدرس تاريخ الشعوب وآدابها وفلسفاتها في مختلف العصور، كما عكف على دراسة الكتب السماوية وقرأ "التوراة" بعمق بطبيعتها الكاثوليكية والبروتستانتية، كما قرأ (العهد الجديد) و(القرآن الكريم) وغاص في دراسة اليهود تاريخاً، وحضارة، وسياسة، وانكفأ على الدراسة الخاصة يعارك الدهر حتى أتيح له نوال شهادة المعلمين والتربية وعلم النفس⁽¹⁾، مما أتاح له أن يشتغل بالتدريس مدة عامين⁽²⁾، وقد شرع في نشر قصائده الشعرية في الصحف والمجلات وغيرها، وكذلك في دور الإذاعة العربية الناطقة باللغة العربية.

بعد التدريس عمل صدوق في الميدان الصحفي فبدأ محرراً، ثم سكرتيراً للتحري لإحدى الصحف اليومية التي كانت تصدر في القدس إبان الخمسينيات وهي جريدة "الجهاد" وانتقل منها إلى العمل سكرتيراً للتحري في جريدة "الدفاع"، ثم أنشأ جريدة "المنار" اليومية في القدس في أواخر عام 1959 لحساب بعض العاملين في الحقل السياسي وانسحب منها لخلافه السياسي مع أصحابها . ثم سافر إلى الكويت في مطلع عام 1960م، حيث عمل رئيساً للدائرة الثقافية العسكرية بالجيش الكويتي، ورئيساً لـ تحرير مجلة "حماة الوطن" الشهرية الناطقة بلسان الجيش، ولم يكن يصدر في الكويت في خلال تلك الفترة سوى مجلة "العربي" فأصدر ملحقاً لمجلة "حماة الوطن" باسم "هنا الكويت" وقد أصبح هذا الملحق فيما بعد مجلة شهرية مستقلة تصدر عن وزارة الإعلام باسم الكويت.

خلال وجوده في الكويت وحتى منتصف عام 1966م أسهم بقسط كبير في النهضة الصحفية والأدبية ، فأنشأ جريدة "الهدف" الأسبوعية عام 1962، ثم جريدة "الوطن" اليومية عام 1963، ثم جريدة "السياسة" اليومية التي صدرت أسبوعية مؤقتة عام 1964م،، وعمل مديراً لتحرير هذه الصحف إلى جانب عمله الرسمي في وزارة الدفاع، كما أسهم في إنشاء مجلة "البيان" الناطقة بلسان رابطة الأدباء الكويتيين، وكان العضو غير الكويتي الوحيد في هيئة تحريرها، اعتقل في الكويت

(1) العودات، البدوي المثلث، أعلام الفكر والأدب في فلسطين، ص355.

(2) صدوق، شعراء فلسطين في القرن العشرين، ص249.

من دون توجيه أية تهمة له ، وسجن في زنزانة صحراوية ثم جرى إبعاده سياسياً عن البلاد إلى لبنان ومنه إلى الأردن . ولدى عودته إلى الأردن في حزيران عام 1966م عمل في وزارة الإعلام مستشاراً ثقافياً للإذاعة، ثم كلف بتحويل مجلة "رسالة الأردن" الشهرية التي تصدرها الوزارة إلى مجلة أسبوعية، وكلف أيضاً بإنشاء مجلة شهرية للإذاعة باسم "هنا عمان" وقد تولى رئاسة تحرير المجلتين إضافة إلى عمله الأساسي مستشاراً ثقافياً.⁽¹⁾

في أعقاب نكسة (حزيران 1967م)، توجه للعمل في "قطر" حيث أسهم في إنشاء الإذاعة، وهناك كان أول صوت انطلق من الأثير من إذاعة قطر ثم غادرها واتجه لاستكمال دراسته حيث نال شهادة البكالوريوس في اللغة العربية (1971م). عمل في الإعلام السعودي (إذاعة جدة) منتجاً، ثم مشرفاً على إدارة الأحاديث والثقافة عدة سنوات واختير لتأسيس منظمة إذاعات الدول الإسلامية هناك ، ثم انتخب من قبل الجمعية العامة للمنظّمات انعقادها في "أبو ظبي"، مديراً لبرامجها عاماً للمنظمة وبعدها نقل نائباً لأمين عام وكالة الأنباء الإسلامية الدولية، ثم اضطر للخروج منها عام 1980م فتوجه إلى "روما" حيث انشأ أول جريدة يومية باللغة العربية باسم "الأيام" ثم تعمّر طويلاً، وقد اضطر بعدها للعولقي عمان عام 1985م بعد أن خسر ما جمعه من كفاح الغرباء بين الكويت، وقطر والسعودية، وإيطاليا طوال عشرين عاماً ، وعانى من الجحود وضيق ذات اليد والحصار والضغط لتجويد نتيجة حرصه على استقلالية الرأي والفكر والموقف ، ثم أُتيح له أن ينشئ مجلة أسبوعية باسم "الرائد العربي" بالتعاون مع أحد الممولين وتولى رئاسة تحريرها زهاء أربع سنوات . عاد بعدها إلى السعودية للعمل في الهيئة العليا لتطوير مدينة الرياض⁽²⁾.

وكان قد شارك خلال وجوده في الكويت في النشاط الوطني القومي ، فانشأ مع نخبة من الشباب الفلسطينيين منظمة سرية للعمل الفلسطيني عام 1963م، ثم اعتقل وتعرض للسجن والتعذيب في حط البلدان العربية نتيجة ذلك. كما اختير سكرتيراً

(1) صدوق، شعراء فلسطين في القرن العشرين، ص450

(2) المرجع نفسه ، ص451.

لأول مؤتمر شعبي فلسطيني في الكويت، وجرى انتخابه عضواً في الفريق الذي مثل الجالية الفلسطينية بالكويت للقاء السيد أ حمد الشقيري المكلف بإنشاء منظمة التحرير الفلسطينية، وحضر المؤتمر الأول للمجلس الفلسطيني التأسيسي الذي انعقد برئاسة أحمد الشقيري في القدس، وكان عضواً في المؤتمر التأسيسي الأول لاتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين الذي انعقد في غزة، لكن الظروف القاهرة حالت دون سفره للمشاورات وهو عضو في اتحاد الكتاب الآسيويين الإفريقيين وممثل الأردن بالمؤتمر الثاني لهذا الاتحاد في بيروت عام 1967م، إضافة إلى عضويته في منظمة "بن" العالمية لحرية الفكر والثقافة في لندن والجمعية العربية للدراسات الدولية في واشنطن، كما قام بتأسيس أول رابطة أدبية في الأردن باسم "رابطة القلم الحر" عام 1956م بمشاركة نخبة من الأدباء عام 1964م، وقد فاز بجائزة القصة القصيرة للكتاب العرب من مجلة "الحوادث" اللبنانية، كما منحه المجلس الثقافي الاقتصادي الأوروبي بروما الجائزة الدولية لقادة الفكر العالميين لعام 1983م.⁽¹⁾

بدأ حياته الشعرية في الثانية عشرة من عمره، ونشر نتاجه في كبريات المجالات الأدبية العربية وهو دون العشرين، واختارته وزارة التربية والتعليم الأردنية عام 1958م ليمثل الشعر الأردني في تقويم الشعر الحديث الذي أصدره المجلس الأعلى للآداب والفنون في القاهرة، بإشراف لجنة من كبار الأدباء والشعراء برئاسة عباس محمود العقاد.

يكتب الشعر العمودي والحر، والرواية، والقصة والدراسات الأدبية، والنقدية والتاريخية، إلى جانب المقالة والخاطرة. وله عشرات البرامج الإذاعية والثقافية والمنوعة والمسلسلات الدرامية، وما يزال بعضها تعاد إذاعته من العديد من الإذاعات العربية. هو من المتخصصين بالدراسات التوراتية واليهودية. وقد ترجم بعض شعره إلى الانكليزية والفرنسية والروسية والاطالية.

استقر به المقام في عمان بعد عودته من أمريكا بعد غربة استغرقت أكثر من نصف قرن من الزمان، قطعها من القدس إلى بلدان الخارج، من شط العرب إلى البحر الأحمر وهو يعاني من مرض في القلب، لكن ذلك لم يؤثر على نشاطه

(1) صدوق، شعراء فلسطين في القرن العشرين، ص455

الثقافي والعلمي، إذ تحيى المرض بقوة وعزيمة، فقد علمته الغربة أن يكون قوياً متحدياً للصعوبات.

مصادر ثقافته وتكوينه الشعري:

استقى راضي صدوق ثقافته من مصادر متنوعة، تراثية وحياتية، استطاع من خلالها تكوين إرث ثقافي وظفه من خلال تجربته الشعرية التي عبر من خلالها عن قضايا أمته وهمومها.

يقول صدوق عن مصادر ثقافته وتكوينه الشعري : " وكنت دائماً أريدُ مصادر ثقافتي إلى الكتاب . نعم. فأنا قارئٌ منهم منذ البداية. كنت أهرب من الكتاب المدرسي إلى الكتاب الذي لا ينتمي إلى المدرسة . وأنا أعتبر علاقتي بالكتاب رفقة أصيلة وحميمة تفتحت في نفسي مع بداية وعي القراءة. كنت أضيع عن أصدقائي فلا يجدونني إلا في مكتبة المدرسة كما أزال أذكر أن نهمني بالـ لقراءة كان في ذروة حرارته في وقت لم نكن فيه نملك حتى ثمن الكتب المدرسية، وقد ظلت القراءة تعمل في نفسي حتى كنت أحسبها ظاهرة مرضية تلازمي"⁽¹⁾.

وبهذا فإن صدوق لم يكن لديه منهج واضح ومحدد في القراءة، كان يقرأ كل ما يقع تحت بصره، سواء أكان رواية أو شعراً أو مقالا أو دراسة إسلامية أو لاهوتية أو دراسة تاريخية .

وشرع صدوق يكتشف نفسه وطريقه من خلال هذه القراءة الفوضوية ، وتوجه إلى وضع برنامج محدد للقراءة وفق مراحل زمنية معينة، بعد أن شعر بأنه بحاجة إلى التركيز والكثافة والعمق وضرورة أن تكون له رؤية واضحة للأشياء، ونظرة فكرية محددة الملامح إزاء قضايا الإنسان والوجود.

ثم قرر أن يدرس تاريخ العرب والإسلام بعمق وشمول من مصادر عربية وأجنبية - قديمة وحديثة، حتى يتبين مواطن الحق من مواضع الشبهة والدس . وعكف على قراءة الأدب العربي من مصادر شتى عبر عصوره الطويلة، وجد

(1) مقابلة مع الشاعر، عمان، 2007/9/4م.

بعدها أنه لابد من قراءة آثار الفلاسفة الإسلاميين ووجهات نظر الفرق الإسلامية واجتهاداتها وتخرجاتها.

وقد ساقه هذا إلى العودة إلى قراءة الفلسفات الإغريقية القديمة، وعبر منها إلى التراث الفلسفي الأوروبي . ثم عاد إلى قراءة تاريخ الشعوب والأمم وآدابها وأساطيرها، وقاده هذا إلى التعمق بدراسة كتاب "التوراة" وما وقع بين يديه من كتب ودراسات عن "التلمود"، وكذلك قرأ "الإنجيل" بمختلف رواياته حتى النسخة غير المعترف بها والمسماة "أنجيل برنابا"، وساقه ذلك أيضا إلى قراءة الشرائع والقوانين، وأعجب صدوق بكتاب "روح الشرائع" لمونتيسكو. كما شغف بعلم النفس، لكنه وجده اسماً كبيراً مُفرغاً من المضمون الفكري الحقيقي، فكل ما فيه نظريات أنية ما أسرعاً ينتهي مفعولها لتحل محلها نظريات جديدة ، مما جعله يشعر بأنه "علم" أشبه ما يكون بالرمال المتحركة في صحراء سافية...." (1).

قرأ صدوق في الشعر كثيراً . إذ بدأ بالشعر الجاهلي حيث المعلقة السبع " للوزني، والقصائد العشر، وجمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام لأبي زيد القرشي، وطبقات الشعراء لابن سلام الجهمي، وفحول الشعراء للسجستاني، وكتاب الصناعتين "الكتابية والشعر لأبي هلال العسكري، وديوان المعاني للعسكري أيضاً، وطبقات فحول الشعراء مرة ثانية بعد أن قام بتحقيقه العلامة الشيخ محمود شاكر، وقرأ أيضاً حماسة أبي تمام ، وحماسة ابن الشجري، ومختار الشعر الجاهلي، وكتب تاريخ الأدب العربي لمؤلفين قدامى ومحدثين ومستشرقين ، إضافة إلى قراءته كل ما وقع تحت يديه من دواوين الشعراء العرب القدامى ، كذلك قرأ الكتب التي ألفها الأقدمون في نقد الشعر والفقه، واللغة، وعلم الكلام والتفسير، وكتب الحديث النبوي الشريف، إلى جانب كتب عبد الحميد الكاتب ، وابن المقفع، والجاحظ، والتوحيدي والأصمعي والزمخشري والثعالبي والقالبي وبديع الزمان الهمذاني والحريري، وابن الأثير والأصفهاني، وابن عبد ربه، والمقري الأنديسي ، وابن رشد، وابن حزم، وابن خلدون، وغيرهم كثير.

(1) مقابلة مع الشاعر، عمان، 2007/9/4م.

في الوقت نفسه حرص على قراءة كل ما يتعلق بالشعر العربي الحديث منذ بداية عصر النهضة، وتعرف إلى روافد الاتجاهات الجديدة في الشعر العربي المعاصر كالرافد التراثي "القرآن الكريم"، وظاهرة التدوير، والتكرار وظاهرة الفواصل والتعابير الفنية الجديدة. والموشحات، والأساطير، ثم الرافد الأوروبي الذي نجم وشاع بعد الاتصال ببعض الدول الأوروبية كالرومانتيكية، والبرناسية، والرمزية، والسريالية، والواقعية التي أدت كلها إلى ظهور قصيدة الشعر الحر "أو قصيدة التفعيلة، والقصيدة المدورة أو ما يسمى بـ (قصيدة النثر) (1).

وعكف صدوق بعد ذلك على التفرغ لقراءة الشعر والتعرف إليه عند الأمم الأخرى، حيث قرأ الشعر الإغريقي قديمه وحديثه عند هسيودوس وسافو وبنداروس وتيرتايوس وغيرهم.

وقرأ الشعر اللاتيني عند فرجيلوس أمير الشعر اللاتيني وعند بيرترাকে .. وقرأ الشعر الروماني عند هوراتيوس وأوفيدوس شاعر الحب والأساطير، وقرأ الشعر الأوروبي: الإنجليزي والفرنسي والروسي والألماني والإسباني والإيطالي واليوناني، وكذلك الشعر الأمريكي اللاتيني عند بابلونيرود، واوكتافيوباز. واطع صدوق على شاعر التركي الحديث الذي يمثله: تناظم حكمت، أ صاف شلبي، بدري أوغلو، سعاد طاهر وكذلك الشعر الفارسي ويمثله: الفردوسي (صاحب الشاهنامه) وعمر الخيام (صاحب الرباعيات)، الشعر الإفريقي ويمثله: أوجستينونيتو من (موازمبيق) وشوينكا من (نيجيريا) وأوكولي من (كينيا) وغيرهم كثير. حتى الشعر العبري سعى إلى متابعته وتوقف عنده طويلاً (2).

إن ثقافة راضي صدوق ثقافتها متكاملة، متنوعة المصادر، ساعد على تشكيلها أكثر من عامل، فقد أحاط بمجموعة من العلوم والمعارف المختلفة، ساعدت على تشكيل تجربته الشعرية، مما جعلها تجربة ناضجة ومتكاملة.

(1) مقابلة مع الشاعر، عمان، 2007/9/4م.

(2) المرجع نفسه.

آثاره الأدبية:

ظهرت عند صدوق مجموعة من الدواوين الشعرية :

1. ديوان "كان لي قلب":

صدر هذا الديوان عن (دار الكاتب العربي) في بيروت عام 1962م، إذ إن القصائد كتبها الشاعر بين سن الرابعة عشرة والثامنة عشرة من عمره، ونشرت أولاً بأول في الصحف المحلية، حيث ضم هذا الديوان أربعين قصيدة. وقد تحدث زكي المحاسني عن هذا الديوان حيث قال : "ولقد فرغت من النظرة بهذه المجموعة من شعر راضي صدوق، فأمنت أنه شاعر، ورأيتها ليست ديوان شعر وإنما هي مأساة نفسية يمور لهيبها في قلب صاحبها فيطلع ألبيا تاً وقصائد كلها فيض ألم وعتاب، وتبيان لإرهاق روح جريح وجد في الشعر العزاء والوفاء، والديوان جميعه صدى صوت عميق ما زال يصرخ من ألم خيانة المرأة ، ومن الحب وانسكاب الحسرات عليه . وكنت أؤثر أن أجد قصيدة واحدة ذات وجهة في غير هذه الأصداء الشوارد"⁽¹⁾.

وكتب للديوان مقدمة تحليلية الكاتب قدري قلجبي حيث يقول فيها : "والذي نتخلله بعد مطالعة هذه المجموعة التي ذاب فيها راضي صدوق قلبه، إن الحياة أثقلت كاهل الشاعر الشاب قبل الأوان، وأن براعم حبه لم تكد تتفتح كؤوس أكمامها في أنفاس الربيع حتى دهمتها رياح الشتاء الجليدية، ولم تعد تمثل من الربيع سوى حضور طيفه في دنياه وما ذلك الحضور غير الذكرى، ذكرى نقرأ فيها الختام "من وحي اللقاء الأخير ولا نعرف من ذاتها وواقعها إلا ذلك المرور الطيفي وإن تلك المرأة التي نعتها في صفات مشابهة (بالقطة الذليلة) تنفض وبرها عن ريش قبره غنت الربيع أنغاماً ليس أشد منها أو أشجى وكانت ريحانة الأحلام والسائحة التي لا تلامس شغاف القلب إلا غمرته النشوة"⁽²⁾.

(1) محاسني، زكي: كان لي قلب (كورة شعر راضي صدوق)، مجلة المعرفة، العدد الرابع، دمشق، 1963م، ص150.

(2) صدوق، ديوان كان لي قلب، مقدمة قدري قلجبي، ص14.

2. ديوان "تأثر بلا هوية":

صدر عن (دار الكاتب العربي) في بيروت عام 1966م. وهذا الديوان مفقود وغير متوفر، إذ تمت مصادرتة من قبل دوائر المطبوعات في الدول العربية لأسباب سياسية .

3. ديوان "النار والطين":

صدر عن (دار الآداب) في بيروت عام 1966م، إذ اشتمل هذا الديوان على سبع عشرة قصيدة . وضم قصائد كلاسيكية، وقصائد من ذات التفعيلة الواحدة التي كان قد نشرها في منتصف الخمسينيات، وهي من أوائل قصائد التفعيلة الواحدة التي نشرت لشاعر من الأردن في ذلك الوقت المبكر.

ويتضح، من عنوان الديوان، الثنائية التي تحكم الإنسان و تمزقه شر ممزق، فهو مصوغ من نارٍ وطين، والطين كمادة كثيفة تشد الإنسان إلى الأرض، والنار كمادة شفافة تشعل هذا الطين وتمنحه أجنحة يطير بها لتجعله كائناً سماوياً ، ويبقى صراع النار والطين صراعاً أزلياً أبدياً هو الذي يمنح الإنسان هويته الوجودية، بوصفه كائناً صغ من الممكن والمستحيل ، من المطلق والمحدود، من الثابت والمتحول، من المادي واللامادي. ومن جديد يصبح هذا العنوان "النار والطين" عبارة عن شيفرة تفتح على عوالم الإنسان المحيرة وتناقضاته وانفتاحه اللامحدود على المجهول. (1)،

4. ديوان "بقايا قصة الإنسان":

صدر هذا الديوان عن دار العودة في بيروت عام 1974م، حيث ضم اثنتين وعشرين قصيدة.

وراضي صدوق في ديوانه هذا يختصر قصة الإنسان ،ومعاناته على الأرض، إنه الإنسان الذي يقف متحدياً الطبيعة والذي يختصر صراع البشر على الكون في محاولتهم الدائمة لترويض الحياة، وكسب المعرفة ،في النهاية فيجمع طرفي الصراع الإنسان والطبيعة معاً (2).

(1) ممدوح، مجدي: التعبيرية في شعر راضي صدوق، مجلة أفكار، العدد 224.

(2) الرواشدة، سامح: النزوع الأسطوري في ديوان بقايا قصة الإنسان، أفكار، عمان، العدد 224، ص 89.

جعل راضي صدوق القصيدة الأولى في الديوان "بقايا قصة الإنسان" إذ يعبر فيها عن تجربته الخاصة وتجربة الإنسان عامة.

فتجربة الإنسان الفردي في مواجهة الحياة لا بد أن تنتهي على هذا النحو، لكن الإنسان لا يستسلم للنهاية ، ولا بد أن يكون هناك الملايين ممن يزرعون رماحهم في عيون الذرى، ويواجهونها غداً لتبقى أسطورة الإنسان قائمة إلى الأبد⁽¹⁾.

5. ديوان أمطار الحزن والدم:

صدرت الطبعة الأولى من هذا الديوان في بيروت عام 1978م ، والطبعة الثانية في نيقوسيا عام 1988م ، والطبعة الثالثة في الرياض عام 1992م.

ضمّ هذا الديوان ثلاثين قصيدة كلاسيكية ، وهي قصائد تمثل أقصى مراحل الاغتراب التي عاشها صاحب الديوان، وتعرض خلالها للكثير من المعاناة والاضطهاد والقمع، نتيجة مواقف أخلاقية وسياسية وقومية كان يحرص على الالتزام بها.

6. ديوان "الحزن أخضر دائماً":

صدر هذا الديوان عن (إر كرامة للنشر) في روما عام 1991م ، حيث ضم عشرين لوحة اختلط فيها الشعر بالنثر، وهي نصوص سبق إن نشرت في الصحافة الأردنية والعربية منذ منتصف الخمسينيات وحتى منتصف الثمانينات وقد أطلق عليها صاحبها اسم (شعر في نثر).

إن راضي صدوق بحديث الروح صنع لنا منظومة من الحزن الدفين في النفس الشرقيّة عن هذا الحزن الأخضر الذي ت واصل مع واقعنا العربي . ورغم أن هذا الديوان لراضي صدوق يقع في 77 صفحة من القطع المتوسط، فإن مساحة الحزن والأسى ونيران اليأس والإحباط نجدها تمتد كثيراً لتسود أضعاف هذه المساحة من الكتاب ، ذلك أن المؤلف غمس ريشته في عذابات الإنسان العربي المعاصر المحاصر بعشرات القضايا والمشاكل والذئاب والمكائد حتى قصص الحب البسيطة، والآمال الصغيرة التي يحلم بها الإنسان العادي البسيط لا تجد متنفساً وإنما

(1) الرواشدة، النزوع الأسطوري في ديوان بقايا قصة الإنسان، ص90.

تواجه جدراناً يابسة جلمودية تتحطم على صخورها الأحلام البسطة أو الآمال التي تشرق في النفس.⁽¹⁾

يقول راضي صدوق في قصيدة "الحزن أخضر دائماً":

7. ديوان "رياح السنين":

صدر هذا الديوان عن (إر كرامة للنشر) في روما عام 1998، حيث ضم هذا الديوان سبعةً وعشرين قصيدة.

وفي هذا الديوان، يتحدث راضي صدوق عن الرياح فهي مضادة للسكون، وقد تكون رياح رخاء داعية للاسترواح أو عاتية تنذر بالقلق والانزعاج، لكن هذه الرياح عريضة تحمل في هبوبها العطب والفساد، لذلك فإنها تلجم فم الشاعر عن إيصال صوت مأساته فهي قوة كابحة للتغيير.

ب. الكتابات والدراسات الأدبية:

كتب راضي صدوق الشعر، والقصة القصيرة، والرواية، والدراسة النقدية، والدراسات التاريخية، والتوراتية، والسياسية. وقد نشر الكثير من هذا النتاج ومن أهم مؤلفاته:

1. كتاب ديوان الشعر العربي في القرن العشرين (توثيق أنثولوجي وأنطولوجي للشعراء العرب المعاصرين):

لمعت فكرة هذا الكتاب في ذهن راضي صدوق سنة 1990م، حيث يقول: "بعد أن أعينني البحث وأجهدني التنقيب في رفوف المكتبات، وبين أطواء الكتب، عن شاعر عربي معاصر، ليس بغمر ولا بخامل الذكر، قرأت له ما أغراني بالتعرف أكثر وأعمق إلى شاعره وسيرته فما وجدت له ذكراً لدى دارس، ولا أثراً في دراسة، على كثرة ما يزحم المكتبات من كتب ودراسات ومؤلفات أنثولوجية وأنطولوجية" حول شعرنا الحديث وشعرائنا المعاصرين. وأخذت الفكرة تلح عليّ وتكبر وتصعد حتى لتكاد تملك عليّ أقطار نفسي كلما وقع في يدي كتب جديدة في هذا الموضوع، فلا أجد فيه ما يلبي البغية ويشفي الغليل، وربما وقفت في هذه الكتب أو بعضها على

(1) راضي صدوق يرى الحزن أخضر دائماً، مكتب جريدة الشرق الأوسط، الرياض، 1992م.

نقص أو خلط في المعلومات عن هذا الشاعر أو ذاك ممن أعرفهم حق المعرفة
شخصاً وشعراً وشاعرية⁽¹⁾.

تحدث راضي صدوق في مقدمة الكتاب عن منهجه في تأليف هذا الكتاب، حيث
وثق في الكتاب للشعراء العرب في القرن العشرين الميلادي ، في جميع الأقطار
العربية والمهاجر ابتداءً من عام 1900م، وذلك من خلال التأريخ بإيجاز لكل
شاعر وتحديد موقعه على خريطة الشعر العربي ودوره في النهضة الشعرية ،
وأعماله المطبوعة وغير المطبوعة والمخطوطة ، مع إيراد نموذج أو أكثر من
إبداعه الشعري بحيث تمثل هذه النماذج المختارة مختلف مراحل تطوره الفني ، وقد
حرص صدوق على إبراز أهم المواقف الوطنية والقومية والإنسانية لكل شاعر ، كما
قام بتصحيح المعلومات المغلوطة الرائجة في بعض الكتب والدراسات عن كثير من
شعراء العرب المشهورين ، وتهذيب هذه المعلومات من المبالغات الفضفاضة
الناجمة عن معايير غير أدبية غير متوازنة⁽²⁾. وقد اختار صدوق الشعراء الذي
تضمنهم الكتاب وفق الأسس التالية:

أ. الشعراء الراحلون: اختار صدوق الشعراء الذين كان له دور ملموس في مسيرة
الشعر العربي المعاصر بعامة، وفي نهضة الشعر في بلادهم بخاصة دون
النظر عما إذا كانت للشاعر دواوين مطبوعة أم لا ، واكتفى بإبراز نماذج قليلة
من شعر الشعراء الأعلام الذين لهم حظ وافر من الذيوع والانتشار في الأوساط
الأدبية والأكاديمية، في حين حرص على إيراد نماذج أكثر من شعر الشعراء
المغمورين، زيادة في التعريف بهم من خلال أشعارهم⁽³⁾.

ب. الشعراء الأحياء: اختار صدوق كل شاعر له ديوان مطبوع أو وردت مختارات
من شعره في مجموعات أو دراسات أدبية مطبوعة بعد إطلاعه الدقيق على نتائج
هؤلاء الشعراء ، وأستبعد كثيراً ممن لهم دواوين شعرية مطبوعة بعد دراسة

(1) صدوق، راضي: ديوان الشعر العربي، دار كرامة للنشر، روما، ط 1994، ص9.

(2) صدوق، ديوان الشعر العربي، ص13.

(3) المرجع نفسه، ص 13.

متفحصة لدواوينهم، معتمدا على تقويمه الشخصي ومستندا إلى رأي الثقات من النقاد والدارسين في مستواهم الفني⁽¹⁾.

ج شعراء القصيدة العمودية والقصيدة الحرة : وقد أورد لكل منهم نموذجا "أو أكثر من الشعر العمودي ونموذجا "أو أكثر" من الشعر الحر.

كما أشار صدوق إلى عدد من الشعراء المتميزين ممن لم تتوفر لهم نماذج شعرية وقد أدرج أسماءهم في الكتاب دون نماذج ، على أمل أن يتدارك ذلك في الطبعة الثانية من الكتاب⁽²⁾.

د. شعراء قصيدة النثر استبعد صدوق كل الذين كتبوا قصيدة النثر ، على اعتبار أن قضية ما يسمى بـ "قصيدة النثر" ما تزال موضع خلاف بين الدارسين والباحثين ولم يحسم أمرها بعد⁽³⁾.

تحدث راضي صدوق عن تقنية الكتاب حيث يقع الكتاب في نحو خمسة آلاف صفحة، وقد رتب أسماء الشعراء في أجزائه جميعا على حروف الهجاء وفق الاسم الأول للشاعر وحسب اللقب والكنية التي غلبت عليه واشتهر بها بين الناس بالنسبة لشعراء كأبي سلمى ، والأخطل الصغير ، وبديوي الجبل ، وأدونيس ، وذلك بغض النظر عن بلدانهم وأجيالهم والمذاهب الفنية التي يندرجون في أطرها⁽⁴⁾.

وأرخ للولادة والوفاة مبتدئا بالتاريخ الهجري الذي أشار إليه بحرف (هـ) وما يقابله من التاريخ الميلادي، إذ أشار إليه بحرف (م) وحرص على ذكر اليوم والشهر إضافة إلى سنة الولادة والوفاة ، كما حرص على تشكيل النماذج الشعرية وربط حركاتها وبخاصة الكلمات التي تقضي الضرورة اللغوية والعروضية ضبطها تلافيا لأي لبس قد يقع فيه القارئ ، كذلك حرص على ضبط أسماء الأعلام من أشخاص وأماكن وبلدان، ووضع شروطا ومعلومات موجزة عنها في الحواشي حيث يرى

(1) صدوق، ديوان الشعر العربي، ص14.

(2) المرجع نفسه، ص 14.

(3) المرجع نفسه، ص15.

(4) المرجع نفسه، ص16.

ذلك ضروريا ومفيدا ، كما حرص على الإشارة إلى المصادر والمراجع مع ذكر مركز النشر وتاريخه⁽¹⁾.

2. كتاب شعراء فلسطين في القرن العشرين:

صدر هذا الكتاب عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر في بيروت، حيث يوثق هذا الكتاب للشعراء العرب الفلسطينيين في القرن العشرين ، بداية من عام 1900م وحتى تاريخ إنجازه ، وذلك من خلال التعريف بإيجاز وافٍ لكل شاعر وأعماله المطبوعة فقط.

أعد صدوق قائمة بأسماء الشعراء الفلسطينيين في كل مكان مستندا إلى معلوماته الشخصية لدراسات الجادة التي عكفت على دراستهم ، وقد قام صدوق بقراءة المؤلفات الرائدة والدراسات القيمة التي تناولت الحياة الأدبية ، وبخاصة الشعرية في فلسطين، وفي مقدمتها كتاب الاتجاهات الأدبية الحديثة في فلسطين والأردن)، وكتاب التلعر الحديث في فلسطين والأردن (للدكتور ناصر الدين الأسد ، وكتاب حياة) الأدب الفلسطيني الحديث من أول النهضة حتى النكبة ()، وكتاب (دراسات في شعر الأرض المحتلة) للدكتور عبد الرحمن ياغي، وكتاب (الأدب العربي المعاصر في فلسطين)، وكتاب (الاتجاهات الفنية في الشعر الفلسطيني المعاصر) للدكتور كامل السوافيري، وكتاب (الشعر الفلسطيني في شعر النكبة) للدكتور عبد الرحمن الكيالي، و(ديوان الوطن المحتل) هو مختارات أعدها يوسف الخطيب ، و(أدب المقاومة في فلسطين المحتلة) لغسان كنفاني، وكتب الدكتور حسني محمود ، والدكتور صالح أبو إصبع وغيرها من عشرات الكتب⁽²⁾.

3. كتاب (هوامش في الفكر والأدب والحياة):

صدر هذا الكتاب عن وزارة الثقافة في عمان عام (1989م)، هو خلاصة لقراءات شتى في أزمنة متباينة ، في مختلف مجالات الفكر والأدب والحياة، كان يسجل على هوامشها بعض الملاحظات والنقدات والأفكار العفوية ، دون عودة إلى

(1) صدوق، ديوان الشعر العربي، ص16.

(2) المرجع نفسه، ص4.

رجع أو كتاب إلا حين تقتضي ضرورة العلم و واجب الأمانة، ولقد حظي لدى نشره في الصحافة العربية بأصداء متباينة تجتمع بين القبول والإعجاب⁽¹⁾.

4. كتاب "نظرات في الأدب السعودي الحديث":

صدر هذا الكتاب عن دار طويق للنشر والتوزيع في الرياض عام 1993م. يتوقف راضي صدوق في هذا الكتاب أمام بداية النهضة الأدبية الحديثة في السعودية التي واكبت قيام ورسوخ الدولة، حيث نشأت الصحف وشيدت المدارس ودارت عملية التحديث والنهضة، إذ لم يكن قبل ذلك نشاط ثقافي منظم وإن تمثل فردياً بما حفظه كتاب "وحي الصحراء"، وكتاب "شعراء الحجاز" لعبد السلام الساسي وكتاب "المعرض" لمحمد سرور الصبان، وكتاب "خواطر مُصرَّحة" لمحمد حسن عواد وكتاب "المرصاد" لإبراهيم هاشم الفلالي⁽²⁾.

وغير هذه المؤلفات فأن لراضي صدوق مئات من المقالات والدراسات الأدبية والفكرية والسياسية والتاريخية والنقدية، وتحقيق التراث ، وحوار مع المستشرق الألماني ويندفور حول نظرية نشوء اليهود ونزول التوراة، منشورة في الصحف والمجلات العربية البارزة في العواصم العربية والصحافة المهاجرة.

كما أن له مجموعة من الأعمال الروائية من مثل رواية "منفيون للأبد" وعندما تجف الينابيع"، و(بقوط المواطن حفر)، و(صبا نجد)، وله مجموعة قصصية بعنوان "الرغيف المحروق" وقد نالت إحدى قصص هذه المجموعة، وهي بعنوان "البرشامة" الجائزة الأولى للقصة القصيرة في المسابقة التي أعدتها مجلة الحوادث البيروتية الشهيرة، لكتاب القصة القصيرة في مطلع الستينات.

البدايات الشعرية:

كانت بدايات صدوق الشعرية متزامنة مع الجرح الفلسطيني الأول ، وكان ما يزال على مقاعد الدراسة في مدرسة تربض على جبل يطل على الساحل الفلسطيني وقد رأى بأم عينه من مسافة غير بعيدة ، أقدام الجيش الإسرائيلي وهي

(1) صدوق، راضي، أمش في الفكر والأدب والحياة، منشورات وزارة الثقافة، عمان، ط 1، 1989م، ص 7.

(2) صدوق، راضي: نظرات في الأدب السعودي، دار طويق للنشر، ط 1، 1993م، ص 14.

تتقدم لتسرق السهل الساحلي الذي يدر لبنا وعسلا . في تلك الأيام تخلقت في داخل صدوق أول بذرة للشعر، إذ كتب العديد من القصائد وهو ما يزال على مقاعد الدرس، ونشرت في الصحف اليومية التي كانت تصدر في "القدس" (آنذاك في منتصف الخمسينيات من القرن الماضي).

ولعل أولى قصائد صدوق التي ما زال يذكر بعضها من أبياتها هي: (1):

ماذا وراءك... قل لي أيها الشفق
أقطعة من سواد القلب تحترق؟!

وفيها يقول أيضا:

فكيف ينبض عرق بينما دمه
على التراب كماء المزن يندفق؟

لم نجقصيدة بعينها قدمت صدوقاً للقراء، إلا أن هناك قصيدة لقيت قبولا حسنا من قطاعات واسعة بين القراء ... وهي قصيدة (إلى أمي). وفيها كان يعبر عن فاجعة أمه بشقيقين عزيزين أغتالهما الاحتلال اليهودي في أيام السواد، وقد أدرجت هذه القصيدة فيما بعد في منهاج النصوص والمطالعة في الأردن وفي بعض البلدان العربية.... (2)

أصبح صدوق، فيما بعد ، يشكل لونا جديدا في الشعر الناشط على الساحة الأردنية، فحظي بحفاوة خاصة لدى الصحف اليومية الثلاث التي كانت تصدر آنذاك، ثم خطر على بال صدوق أن يتوجه بنظره إلى خارج الحدود....

كانت مجلة "الأديب" اللبنانية هي المجلة الأدبية الأولى في ذلك العهد، بل إنها كانت ذات انتشار واسع في ديار المهجر في الأمريكيتين . فبدأ ينشر قصائده في "الأديب" إلى جانب كبار الشعراء وهو في الثامنة عشرة من عمره، وكانت أول قصيدة نشرت في "الأديب" هي قصيدة "سأتي غدا...." من شعر التفعيلة (3)، ثم انطلق انطلاقا واسعة عبر سائر الأقطار العربية، وأصبح ينشر نتاجه الشعري في مجلة (الرسالة) التي كان يرأس تحريرها الأديب أحمد حسن الزيات، و (مجلة الثقافة) التي كان يرأس تحريرها الأديب محمد فريد أبو حديد ومجلة "الشعر" القاهرية و "الفكر"

(1) مقابلة شخصية مع الشاعر 2007/11/4م.

(2) المرجع نفسه.

(3) المرجع نفسه.

التونسية و "المعرفة" السورية و "الأقلام" العراقية و "الآداب" اللبنانية... إلى جانب الشعراء بدر شاكر السياب، وبلند الحيدري، وعبد الوهاب البياتي، ونا زك الملائكة، وصلاح عبد الصبور.... وقد أصبح أكثرهم من أصدقائه الحميمين فيما بعد⁽¹⁾.

كانت بدايات صدوق الشعرية كلاسيكية من حيث الشكل، وقد تجاذبها ومضات من النزوع إلى التمرد على القصيدة الموروثة، وكان ضمن حظّه أنه من أوائل من أسسوا لحركة التجديد الشعري على الساحة الأردنية في النصف الأول من خمسينيات القرن الماضي، إلى جانب يوسف الخطيب، وكمال ناصر، وفدوى طوقان، وناجي علوش... قبل أن يظهر على الساحة الشعرية الأردنية عبد الرحيم عمر، ومحمد القيسي الذي كان صدوق أول من رعاه وشجعه في بداياته الشعرية، وهو ما يزال يعد في "مخيم الجلزون" قرب رام الله، حيث كان ينشر له صدوق بواكيره -على تواضعها- في الملاحق الأدبية في الصحف اليومية التي تولى مسؤولية التحرير فيها⁽²⁾.

بعد اغتراب صدوق عن الأردن عام 1960م إلى الكويت، قام بتأسيس مجلة عسكرية ثقافية للجيش الكويتي صدرت باسم "حماة الوطن" وتولى رئاسة التحرير فيها، وأتيح له من هناك الانفتاح على الأوساط الأدبية الراقية الراسخة في العديد من الأقطار العربية، وحظي بصداقات طيبة مع نخبة من كبار الشعراء والأدباء، وكان في مقدمتهم الأديب والسياسي الكبير (قدري قلعجي) الذي أصرّ على أن يصدر لصدوق عن دار الكاتب العربي التي يملكها أول مجموعة شعرية باسم "كان لي قلب"، وكتب بقلمه مقدمة قيمة لهذه المجموعة، وكان ذلك قبل أن يظهر للشاعر المصري "أحمد عبد المعطي حجازي ديوانه "مدينة بلا قلب"⁽³⁾.

وديوان كان لي قلب " كان يحمل قصائد البواكير الأولى للشاعر صدوق أيام كان على مقاعد الدرس في الإعدادية والثانوية، إلى جانب بعض القصائد الأخرى التي نشرت في الصحف المحلية، والمجلات الأدبية العربية الكبرى في فترة

(1) مقابلة شخصية مع الشاعر 2007/11/4م.

(2) المرجع نفسه.

(3) المرجع نفسه.

الخمسينات من القرن الميلادي الماضي وهذا الديوان ينطوي على قصائد عمودية وأخرى محدثة، ولعله يعد وثيقة تاريخية بالنسبة لحركة التجديد في الشعر على الساحة الأردنية، فهو يحتوي على أول القصائد من النمط الجديد المحدث التي نشرت في الأردن ، مثل قصيدة "عودة إلى الصومعة" ، وقصيدة "هل يعود الربيع" ، وقصيدة "سأتي غدا..." ، وغيرها.

والحقيقة، أن صدوقاً لم يكن أول شعراء التجديد على الساحة الأردنية لكنه يعدّ من أهم مغامرين في هذا المجال ، ففي تلك الفترة كان الشعراء يوسف الخطيب، وكمال ناصر، وفدوى طوقان وناجي علوش يحملون لواء التجديد في القصيدة على الساحة الأردنية، لكن صدوق كان الأكثر من بينهم تصدياً لمثلي الشعر التقليدي، وذلك بحكم موقعه مسئولاً عن الملاحق الأدبية في الصحف اليومية التي عمل فيها، إلى جانب مسؤولياته كسكرتير تحرير لهذه الصحف.

ولقد اطلع صدوق على معظم الكتب والدراسات المنشورة التي تؤرخ للحركة الشعرية في الأردن، طوال النصف القرن الماضي ، وقرأها بعناية وتمعن حيث يقول لكنني أستطيع القول بكل أمانة ومسئولية ، وعن مواكبة ومتابعة للمسيرة الشعرية على الساحة الأردنية منذ النصف الأول من الخمسينيات في القرن الماضي أنه ليس بين هذه الكتب والدراسات ما يمكن أن يأخذه مثلي مأخذ جدّ واحترام، ولعل أفضل هذه الكتب وأقربها إلى المنهجية والدقة والأمانة والجد في البحث كتابان أحدهما من تأليف الدكتور سمير القطامي ، وثانيهما للدكتور محمد عطيات، في وقت كانت حركة التجديد قد رسخت واستوت واشتدّ عودها، ثم نجد في بعض من هذه الكتب والدراسات من ينسب فضل الريادة في الحركة التجديدية للشعر على الساحة الأردنية لهؤلاء نفر الذين لم يظهروا إلا في النصف الأول من الستينيات⁽¹⁾.

(1) مقابلة شخصية مع الشاعر 2007/11/4م.

رأيه في الشعر:

يقول صدوقليس للشعر عند أيما شاعر تعريف ، لأنه لو كان لديه تعريف واحد محدود متفرد فإنه - أي الشاعر - يخرج من آفاق الشعر إلى دائرة النظم، إنه يصبح كذلك الذي ينسج الثوب عن معرفة بمقاس واحد، وهيئة واحدة، وهندسة معروفة متداولة يتكالب على تعاطيها سائر أبناء هذه المهنة، والشعر ابن الغيبوبة الجميلة الشفيفة الشاعر الطاهرة، وكلما تحرر الشاعر من مواصفات الوقع المحسوس. ودخل إلى عالمه وتداخل في باطنه لحظة الكتابة ، اقترب من جوهر الشعر وحقيقته كما هو، وكما يجب أن يكون ويظل : طائراً أخضر، طازجاً محلقاً لا تدري أي الذي هو الأجمل فيه، هيئته ، لونه؟ لحنه..؟ أم كل ذلك فيه! والشعر ككل شيء جميل لا يمارس إلا على السجية والموهبة والثراء المعرفي والخصب الباطني المنصهر المتداخل المتآلف لكأنه فلذة من كبدة واحدة وبضعة من قلب واحد .. ينبع خارجاً تمرداً على الثابت والمقيم والموجود ، غير قابل للتصنيف والتجديد وتقدير الماهيات، طبيعة الشعر عند صدوق لحظة كتابته، ليس له مقاييس ومواصفات كما يقول دائماً: الشعر لا يحدد أصلاً، لأنه روح قائمة في جسدها اللفظي والصوري⁽¹⁾. إن الشعر عند صدوق هو : ما ينتج عندما يجد الإنسان الحساس بأنه مغلوب على أمره بوجود لديه قلم وورق . قد تغلبه أنواع العواطف والإحساسات كافة : الحب، الفرح، اليأس، الوطنية، الإيمان، الشهوة، الرغبة في الموت وقد يكون مصدر العاطفة أي شيء، يحرك وينعش ويفجر، ويكون رد الفعل دائماً متماثلاً ... وما أسرع ما يخرج الشاعر الورقة والقلم وسرعان ما يكتب الشعر. أعماق المعنى - وليس المعنى نفسه - هي كل ما يهم الشعر ويتطرق إليه الشعر، وإذا استطعت أن تفهم الشعر لأول وهلة فهما مباشراً محدداً ، فإنه ليس شعراً بل إنه نظم منظوم وكلام مرسوم⁽²⁾.

وأما عن الشعر الأردني فيرى صدوق أن الشعر على الساحة الآن رديئة في النصف الأول من الخمسينيات في القرن الماضي، كان على أروع ما يكون

(1) مقابلة شخصية أجريتها مع الشاعر بتاريخ 2007/11/1م.

(2) المرجع نفسه.

الازدهار والحيوية والانطلاق، وكان في الساحة آنذاك شعراء يقفون في الصف الأول من شعراء العروبة في العراق وسورية ولبنان وكان من بين هؤلاء الشعراء الأردنيين من شارك في حركة التجديد في القصيدة العربية التي كانت في بداياتها الناشطة على أيدي نازك الملائكة وبدر السياب وبلند الحيدري وصلاح عبد الصبور وأدونيس ومحي الدين فارس ومحمد الفيتوري وغيرهم....

كان فرسان تلك المرحلة المبكرة التي يمكن أن نعتبرها مرحلة التأسيس للحركة الشعرية الأردنية هم: يوسف الخطيب الذي فاز ديوانه "العيون الظلماء للنور" بالجائزة الأولى بين الشعراء العرب في المسابقة الكبرى التي أجرتها مجلة "الآداب" الشهيرة التي كانت تحمل لواء التجديد في الشعر العربي آنذاك .

ثم جاء بعدهم فوج آخر ضم : تيسير سبول وعبد الرحيم عمر ، وإبراهيم الخطيب ومحمد القيسي ، وفي أواخر النصف الثاني من الستينيات ظهر عز الدين المناصرة وحيدر محمود وخالد محادين ، وفي السبعينات برز إبراهيم نصر الله ويوسف عبد العزيز ، ومحمد لافي وغيرهم الكثير، وتتابع المسيرة عبر العقود التالية فظهرت أسماء أكدت حضورها الشعري على الساحة الأردنية.

وقد تحدث صدوق عن رواد التجديد من أوائل من كتبوا "قصيدة التفعيلة الواحدة" في الأردن وتبنوا نشرها ورعايتها والدفاع عنها ، وأشار إلى أنه كان هناك حضور شعري بارز وناشط على صفحات الصحف اليومية الثلاث التي كانت تصدر في الخمسينات لعدد من الشعراء وفي مقدمتهم : خالد نصره، عبد المنعم الرفاعي ومحمود الأفغاني ، وحسني فريز يوسف الدين الكيلاني ، ووهيب البيطار ، ومحمد العمدة ، وواصف الصليبي وغيرهم... (1).

أما على صعيد المرحلة الراهنة فإن صدوقا يعترف، بأنه لا يقرأ الملاحق الأدبية التي تصدرها الصحف اليومية المحلية، إذ قرأها لفترة قصيرة ليتعرف إلى الواقع الأدبي والثقافي في الأردن ، وبخاصة واقع الشعر الذي يعنى به أكثر من سواه،

(1) مقابلة شخصية أجريتها مع الشاعر بتاريخ 2007/11/1م.

حيث يوثق للشعراء العرب في القرن العشرين منذ أكثر من خمس عشرة سنة،
ويهمه مواكبة ومتابعة كل جديد في عالم الشعر⁽¹⁾.

ويعترف صدوق بأنه لم يجد شعرا حقيقيا إلا فيما قرأه للدكتور إبراهيم الخطيب
وراشد عيسى وعدد آخر ضئيل...⁽²⁾.

وهو يجد في معظم الشعراء الأردنيين المعاصرين ما يجده في سائر الشعراء
المعاصرين الحاضرين في مختلف البلدان العربية .حيث هجروا الشعر العربي، هوية
وروحا ونسقا، وتجاوزا القصيدة العمودية وقصيدة التفعيلة الواحدة إلى ممارسة النثر
السائب على عواهنه، اللغة فيه ضعيفة منتهكة القواعد مشوشة الصورة مطفأة
الموسيقى، لقد دخلوا عوالم التجديد من دون أهلية أو كفاية أو خبرة أو دراية،
وأغلب الظن أن أكثرهم دخلوا في هذا الباب تملُّقا للعصرية أو تملُّقا للحدث حتى لا
يقال عنهم إنهم يتخلفون عن ركاب العصر، أكثرهم لا يمتلك أدوات الشعر الحقيقي ،
من لغة وثقافة ومعرفة كافية بأصول الإبداع الشعري وشروط القصيدة العربية
الأصيلة، فاندفعوا يخبطون في متاهة الشعر المحدث بكل أخطائهم اللغوية
وقصورهم العروضي، واهمين أن لا ضرورة للقواعد والأصول والشروط في هذا
النص الجديد من الشعر الوليد الفريد⁽³⁾.

إن الحركة الشعرية الراهنة في الأردن، اليوم كما يرى صدوق ، شأنها شأن
الحركات الشعرية في سائر أقطار العروبة، تندفع إلى طريق غائم غاشم لا نهاية له،
بعد أن تسلك إلى الساحة كل من هبّ و دبّ، بغير قدمين، فاختلط الحابل و النابل،
وأخذ الدخيل يزاحم الأصل في غيبة شبه كاملة من النقد الخبير المسؤول والنقاد
المؤهلين الجادين المخلصين⁽⁴⁾.

(1) مقابلة شخصية أجريتها مع الشاعر بتاريخ 2007/11/4م.

(2) المرجع نفسه.

(3) مقابلة شخصية أجريتها مع الشاعر بتاريخ 2007/11/1م.

(4) المرجع نفسه.

شكل القصيدة:

وأما عن شكل القصيدة، فيرى صدوق أن الشعراء في الماضي يتحملون قسما كبيرا من المسؤولية في هذا الركود والجمود، ذلك أنهم لم يقدموا للدارس والراوي والمتلقي إلا نوعا واحدا من الشعر شكلا ومضمونا رغم وجود نماذج نادرة ومحددة حاول فيها أصحابها من شعراء الماضي أن يتفقتوا من قيود القصيدة المتوارثة في الموضوع والنوع والشكل والوزن والأسلوب.

ويدلل صدوق على ذلك بقصيدة للشاعر العباسي "سلم الخاسر" وهو من شعراء القرن الثاني الهجري، قالها في مدح الخليفة (موسى الهادي)، ويحسب أنها كانت أول محاولة لكتابة ما سمي فيما بعد بـ "قصيدة التفعيلة الواحدة". فقد جاء كل بيت في تلك القصيدة على وزن "مستفعلن" واحدة، وهي التفعيلة التي يقوم عليها بحر الرجز. (1)

قال فيها:

موسى المطرُ

غيث بكرُ

وكم قدرُ

ثم انهمرُ

ألوى المررُ

ثم غفرُ

عدلُ السيرُ (2)

ويرى صدوق أن من محاولات التقلت من الموروث الشعري القديم ، في الشكل والوزن على وجه الخصوص، بروز عدد من الشعراء اتجهوا إلى الإكثار من النظم في البحور القصيرة وابتداع أوزان أخرى مثل بحر سمي بـ "المستطيل" وهو عكس "الطويل" وبحر سمي بـ "الممتد" وهو عكس "المديد" ، ثم جاء بعد ذلك الموشح

(1) مقابلة شخصية أجريتها مع الشاعر بتاريخ 2007/11/15م.

(2) القيرواني، ابن رشيقي أبو العباس الحسن، العمدة في محاسن الشعر ونقده، ط 1، السعادة،

الذي ابتدعه "مقدم بن معافر" والزحى، والدوبيت، والمواليا وابتدعوا جديداً في القافية مثل "المسمط" و "المزدوج" الذي جاء به أبو العتاهية ⁽¹⁾. فصدوق كان على وعي تام بأن لا شيء ثابت في الأشكال الشعرية، هناك قواعد وأصول، و لكن هناك قيود وجمود. وقد كتب صدوق القصيدة الكلاسيكية في مطالع تجربته الشعرية وكتب قصيدة التفعيلة الواحدة في الوقت ذاته ، وقد نشرت قصائد له من هذا الشكل أو ذاك في الصحف المحلية وفي مجلة "الأديب" اللبنانية التي أخذت مكان ومكانة "الرسالة" التي كان يصدرها أحمد حسن الزيات ⁽²⁾، ثم مجلة (الآداب) التي كادت لا تنشر إلا قصيدة التفعيلة الواحدة.

لم يتعصب صدوق لشكل القصيدة القديم الموروث ولم يمتنعه أو يلغيه أو يتكره طوال حياته الشعرية ، التي بدأها في النصف الأول من القرن الميلادي الماضي، إذ ظل عبر مسيرته الشعرية، يكتب الشعر وفق الشكل القديم الموروث عندما تدعوه دواعيه النفسية مثلما يكتب القصيدة المحدثه عندما يفرض عليه المناخ النفسي ذلك.... ⁽³⁾.

كان صدوق ينتقل عفويا من القصيدة العمودية إلى قصيدة التفعيلة الواحدة كمن يخرج من فناء بيته إلى حديقة هذا البيت نفسه، فالشعر أولا وآخرا العمودي منه والتفعيلي يظل شعرا واللحظة الوجدانية، وكذلك المعاناة النفسية، هي التي تفرض وترها ومناخها وإطارها ⁽⁴⁾؛ المهم عنده أن لا تكون عملية الإفراغ أو الإبداع الشعري لحظة الكتابة متعمدة، أو مفتعلة.

وقد كتب صدوق في وقت مبكر جدا في الخمسينيات من القرن الماضي ما يسمونه في هذه الأيام بـ "قصيدة النثر" ⁽⁵⁾.

(1) القبيرواني، ابن رشيق: أبو العباس الحسن، العمدة في محاسن الشعر ونقده.

(2) المرجع نفسه.

(3) المرجع نفسه.

(4) المرجع نفسه.

(5) المرجع نفسه .

وله مجموعة كاملة تضم الكثير من مثل هذه النصوص نشرت باسم "الحزن أخضر دائماً" لكنه لا يدرجها تحت مسمى "قصيدة"، لأن "القصيدة" مصطلح فني تمخضت عنه العبقرية العربية الشاعرة في عصر ما يسمى بـ "الجاهلي"، ولهذا المصطلح أصوله وقواعده وشروطه وهي جميعاً غير متوفرة في النص الذي يطلقون عليه جهلاً، مسمى "قصيدة النثر" فصدوق ليس ضد هذا النص، لكنه ضد هذه التسمية له، لأنها غير علمية وغير دقيقة حيث أطلق عليها تسمية "شعر في نثر"⁽¹⁾ حيث يرى أنه من العبث ومن التخلف والقصور الإبداعي ، أن نطلق على نص مبتدع في نهايات القرن العشرين الاسم أو المصطلح ذاته ، الذي كان يطلق على النص الشعري قبل زهاء سبعة عشر قرناً من الزمان.

مذهبه الشعري:

وفيما يتعلق بالمذاهب الشعرية، ومذهبه على وجه التحديد ، فإن صدوقاً في الأصل ضد المذاهب الشعرية ، لأن المذهب الفني والمذاهب الشعرية في صميمها تعني تحديد الطريق الذي يمشي على هديه صاحبه الملتزم به ... وفي ذلك قتل للشعر وتزوير للعاطفة وإضعاف لقيمة الخيال الشعري⁽²⁾.

يقول صدوق بأن بداياته وقراءاته الأولى في حقائق الشعر العربي، وغير العربي عبر عصوره ومواسمه كلها ، هي التي كتبت الشعر -وما تزال تكتبه من داخله وبقلمه على أوراقه⁽³⁾.

لقد قرأ صدوق شعر الجاهلية كله، وعبر إلى عمالقة الشعر وصعاليك الشعراء طوال الأجيال الماضية ، ويسكن في أعماقه القراء - طرفة بن العبد والشنفرى، ومالك بن الريب، وامرؤ القيس ، وأبو ذؤيب الهذلي وجريز، والأخطل، والفرزدق، والأحوص، وديك الجن ، وابن هانئ ، وابن زيدون، مثلما يسكنه البارودي، وأحمد شوقي، ومطران ومن بعدهم ، عمر أبو ريشة، وبشارة الخوري وإيليا أبو ماضي، وجبران خليل جبران، وإبراهيم طوقان، وفي زاوية أخرى .. يغفو هوميروس،

(1) القيرواني، ابن رشيق: أبو العباس الحسن، العمدة في محاسن الشعر ونقده.

(2) مقابلة شخصية مع الشاعر بتاريخ 2007/10/15م.

(3) المرجع نفسه.

وشكسبير، وشيلي، وكيتس، وبودلير ورامبو، وباوند إليوت، ودانتي والخيّام، وغيرهم من شعراء الأمم الأخرى.

إن الشاعر الحقيقي عند صدوق لا يفصل قصيدته عن معايير ومقاييس مذهبية فنية محددة عندما يعقد للكتابة . الشاعر يكتب والدارسون والنقاد هم من يتولى عملية تصنيف هذا المبدع أو "المنتج الشعري" في إطار المذاهب والنظريات السائدة والمتعارف⁽¹⁾ عليها مثل: الواقعية، والرمزية والبرناسية، السريالية.

وهو يرى أن كل هذه المذاهب أو المدارس الشعرية ليس من بينها مدرسة عربية واحدة، لقد وصلت كلها من خارج الحدود : من بريطانيا وفرنسا خصوصاً، ومن البلدان الغربية بشكل عام.

فالرومانسية الأوروبية حملها إلى شعرنا العربي المعاصر شعراء المهجر ومدرسة الديوان ومدرسة أبولو، وخط يل مطران (أو الثقافة الفرنسية). والمذهب الواقعي بكل تفرعاته دخل شعرنا العربي المعاصر عن طريق الشعراء العرب الملتزمين حزبياً وعقائدياً، والمذهب الرمزي استورده الشعراء اللبنانيون من فرنسا، وكذلك المذهب السريالي الغامض وما تلاه وسيتلوه، كله أوروبي، غربي المنشأ والمصدر.

ولهذا يقول صدوق : "أنا عربي أكتب بالعربية روحاً ولغة، وأفيد من تجارب الآخرين ما استطعت إلى ذلك سبيلاً، لكنني أرفض أن أكون عبداً تابعاً لهم م أو عبداً لمدارسهم ومذاهبهم، وليقل بي الدارسون والنقاد والكتبة بعد ذلك ما يقولون، وليصنفي الدارسون في أي مذهب فني يشاؤون"⁽²⁾.

موقف صدوق من حركة التأليف النقدي في ميدان الشعر العربي:

لقد تراكت لدى راضي صدوق ملاحظات كثيرة حول الكتب والدراسات والمؤلفات التي تتناول الشعر والشعراء في القرن العشرين، ومن أهم هذه الملاحظات:

(1) مقابلة شخصية أجريتها مع الشاعر بتاريخ 2007/10/15م.

(2) مقابلة شخصية أجريتها مع الشاعر بتاريخ 2007/11/1م.

أ. الافتقار إلى رؤية شمولية نابعة من تصور متكامل لمجمل الحركة الشعرية المتطورة المستمرة في إطار السياق الثقافي العربي العام ،حتى أن المكتبة العربية تخلو تماماً من أي كتاب لباحث عربي يتناول مسيرة الشعر العربي المعاصر الشاملة، ومراحلها ورموزها وأعلامها بحيدة وتوازن وروح علمية خالصة⁽¹⁾.

ب. بروز ظاهرة التعصب القطري لدى بعض من الدارسين والباحثين والنقاد إلى حد الجناية في أحيان كثيرة على الأمانة العلمية الحقيقة الموضوعية بصورة أقرب ما تكون إلى نمط من "القبلية الأدبية"، ويمكن ملاحظة هذه الظاهرة في كثير من الكتب والدراسات الأدبية التي يبدو مؤلفوها وكأن كلا منهم معني بإبراز موقع بلده على خريطة الشعر العربي العام⁽²⁾.

ج. ثمة عديد من الكتب والدراسات التي تتناول الشعر العربي المعاصر أو بعضاً من فرسانه، تقوم على ذوقية انطباعية لدى مؤلفيها تستند إلى اندفاع عاطفي أو اعتبارات أيديولوجية أو معرفية خاصة تغطي على المعايير الأدبية الخالصة سواء أكان ذلك في تناولها حركة الشعر العربي الحديثة أو بعضاً من الشعراء أم في تقويمها آثارهم الإبداعية، وفي هذا السياق يمكن ملاحظة أن هناك شعراء برزوا في الصفوف الأولى ونالوا اهتماماً واسعاً من الدارسين نتيجة لهذه الاعتبارات، وقد لاحظ صدوق أن الشعراء المستقلين الذين نأوا بأنفسهم عن التحزب والتبعية و "الشلية" تعرضوا لعملية تعميم مجحفة.

كما يلاحظ أن هناك شعراء نجحوا في أن يحققوا لأنفسهم حضوراً إعلامياً براقاً لا يتناسب وقيمتهم الفنية، وقد تحول ذلك في كثير من الأحيان إلى حضور أدبي غير موضوعي في بعض الدراسات والمؤلفات المتداولة⁽³⁾.

(1) صدوق، ديوان الشعر العربي في القرن العشرين، ص9.

(2) المرجع نفسه، ص10.

(3) المرجع نفسه، ص10.

د. محاولة نفر من الدارسين إخضاع حركة الإبداع الشعري العربي المعاصرة للنظريات والمدارس النقدية المستوردة، وتقويمهم هذه الحركة ومراحلها ورموزها وأعلامها وإيقاعها على أساس هذه النظريات⁽¹⁾.

هـ. تركيز الباحثين والدارسين في أبحاثهم على بضعة أسماء بعينها في مجمل الشعراء العرب المعاصرين ، كما لو أن أصحاب هذه الأسماء وحدهم دون سواهم هم المتفوقون في مسيرة الشعر العربي المعاصر مع أن أكثرهم في ميزان التقويم النقدي العادل ليسوا كذلك. ويلاحظ في هذا السياق أن معظم الباحثين والدارسين يأخذون عن بعضهم بعضاً ويتداولون في مؤلفاتهم ودراساتهم عن حركة الشعر العربي المعاصر، الأسماء ذاتها والمعلومات والنماذج الشعرية ذاتها بصورة أقرب إلى ما يشبه تداعي الأفكار "دون أن يشعروا أنفسهم عناء البحث الجاد والإبحار في صميم هذه الحركة وسبب ر أغوارها والسعي لإنصاف أولئك نفر من الشعراء المبدعين الذين لم ينالوا حقهم الوافي أو بعضاً من حقهم من البحث والدرس والاهتمام لأسباب عديدة ، ربما يكون منها ترفعهم عن تزلف النقاد والدارسين أو ميلهم إلى العزلة وزهدهم بالأضواء⁽²⁾.

أكثر الكتب والدراسات المتداولة حول الشعر العربي المعاصر ، هي في الأصل رسائل جامعية أعدها أصحابها لنيل درجات علمية من جامعتهم وفق شروط ومناهج بحثية اقتضتها طبيعة هذه الرسائل ، ثم دفعوا بها إلى الطبع بنصوصها الأصلية دون نظر أو تعديل فيها، أو إضافة إليها مما تقتضيه طبيعة البحوث والدراسات الأدبية الحرة الشاملة، وقد تبين أن كثيراً من الدراسات الرسائل الجامعية في الأصل " ينطوي على مجاملة - قد تقترب من التزلف أحياناً - من أصحابها للأساتذة المشرفين على هذه الرسائل أو أعضاء اللجان الفاحصة⁽³⁾.

(1) صدوق، ديوان الشعر العربي في القرن العشرين، ص11.

(2) المرجع نفسه، ص11.

(3) المرجع نفسه، ص12.

ز. بعض من هذه الكتب والدراسات ينطوي على أغاليط مستهجنة تتم على قصور في إلمام أصحابها بمبادئ نحو اللغة العربية وصرفها وقواعد الإملاء وأصول العروض، بصورة لا تشجع على الاطمئنان إلى كفايتهم للاضطلاع بهذا النوع من الدراسات الأدبية⁽¹⁾.

ح. وفي حقيقة الأمر إن هذه الملاحظات كانت ماثلة في ذاكرة صدوق عندما عزم على التوثيق للشعراء في القرن العشرين مع إدراكه جسامه هذا العمل الموسوعي الشاق الذي يفترض أن ينهض به فريق من المتخصصين، ولم يغب عن صدوق ما يتطلبه القيام بهذا العمل الجليل من إحاطة بمجمل حركة الشعر العربي في هذا القرن من الزمان ومتابعة حقيقة وجادة لمراحلها وتطورها وأعلامها ورموزها وفرسانها، بداية من مرحلة الإحياء التي عادت بالشعر العربي إلى منابعه الأصلية الصافية وحررته من الجمود والصناعة المتكلفة ومروراً بمرحلة التجديد الأول التي حافظت على الشكل الموروث للقصيدة العربية مع الانفتاح الممدود على آفاق الآداب الغربية والإفادة من أساليبها وعبوراً بالاتجاه الإبداعي الجديد الذي نقل الشعر العربي من أغراضه الاتباعية القديمة إلى الأغراض الإبداعية الجديدة، وشكل إرهادها بتطور جذري عميق مهد للمذهب الرومانسي الذي بشرت به مدرسة الديوان واحتضنته من بعدها جماعة أبولو التي دعت إلى "سمو الشعر العربي وتوجيه الشعراء توجيهاً شريفاً ومناصرة النهضة الفنية في عالم اللغة والابتكار في الأساليب والمعاني ثم انتهاء بحركة الشعر الحر التي ظهرت في أواخر الأربعينيات، وتبلورت في الخمسينيات من هذا القرن وما تخللها وما تلاها من اتجاهات ومدارس تتراوح بين ما يمكن تسميته بـ "السلفية الجديدة" الرومانسية وما اصطلح على تسميته بـ "التخطي والتجاوز" مع مواكبة ما تقدفه المطابع إلى يومنا هذا من نتاج الأصوات الشعرية الطالعة في مختلف أرجاء الوطن العربي الكبير⁽²⁾.

(1) صدوق، ديوان الشعر العربي في القرن العشرين، ص13.

(2) المرجع نفسه، ص12.

وصدوق إنما يأتي بهذه الملاحظات لأنه ، عاش قريباً من الحركة الشعرية العربية المعاصرة، وحافظ على اقترابه منها منذ مطلع الخمسينيات حتى الوقت الحاضر: قارئاً متذوقاً ومشاركاً في إنتاج الشعر وصحفيّاً وإعلامياً قريباً من صميم حركة النشر والاتصال الجماهيري في عديد من البلدان العربية والأجنبية⁽¹⁾.

رأيه في حركة التجديد والمجددين في القرن العشرين:

يعد راضي صدوق صاحب رؤية في التجديد والمجددين، ويظهر ذلك من خلال أعماله التي تشتمل عناصر رؤيته في التجديد الشعري، من مثل كتابه "هوامش في الفكر والأدب" وكتابه "نظرات في الأدب السعودي" وموسوعته "ديوان الشعر العربي في القرن العشرين" وكتابته "عراء فلسطين في القرن العشرين" وكثير من محاضراته ومقابلاته الصحفية.

وقد تحدث عن حركة التجديد هذه حيث قال : إن حركة التجديد الشعري في هذا القرن تختلف اختلافاً جوهرياً عن حركة التجديد الشعري في زهو العصر العباسي، فالتجديد أيام العباسيين انطلق من موقف قوة سياسية وأدبية وثقافية في زمن كان فيه السلطان العربي الإسلامي هو الأول والنافذ وصاحب السطوة بين الأمم والشعوب . وكان فرسان التجديد من الشعراء العمالقة الأعلام الذي يدركون عظمة الدولة التي تُظلمهم ويعرفون سلطانها على الأمم، إضافة إلى اتصالهم الوثيق بمنابع التراث الشعري والأدبي الذي يمثلونه، ول هذا كانوا يقدمون على التجديد والخوض في مغامرته بثقة مطلقة، لا يخشون أن يجرفهم تيار وافد أو تغريهم بضاعة مستوردة، على عكس حركة التجديد الشعري العربي في عاصرنا الراهن، فهي لا تملك أي عنصر من عناصر القوة اللازمة لإبداع نمط شعري خالص من الهُجنة، والنحل، والشوائب التي تشوّه ذاتيّته، وتلغي شخصيته كنوع أدبي عربي مميز⁽²⁾.

وهو يرى أن شعراءنا من رواد التجديد ومُبتدعيه ومغامريه، طوال القرن العشرين، ليس لديهم أو بصورة أدق ليس لدى أكثرهم إلا النيات الطيبة والأمانى

(1) صدوق، ديوان الشعر العربي في القرن العشرين، ص12.

(2) صدوق، راضي، مسيرة الشعر العربي في القرن العشرين، ندوة الشيخ سعود المريبض، الرياض، 2001م، ص2.

والأحلام الوردية في تحقيق التجديد أو قدر منه لشعرنا العربي في عالم يموج بالتغيير في العادات والتقاليد والدول والشعوب، ويمور بالمنجزات المذهلة في الاختراع والاكتشاف والتكنولوجيا، مثلما يمور بشتى التيارات والمذاهب الفكرية والفلسفية والأدبية التي تطرأ وتزدهر وتتلاشى، يقوم بعضها على أنقاض بعض. ويؤكد صدوق أنه في الماضي كان التجديد ينطلق من قاعدة السيادة في السياسة والنفوذ والأدب والفكر والثقافة، وفي الوقت الحاضر تنشأ حركات التجديد الشعري عندنا في مناخ التبعية المطلقة لقوى خارجية أكبر من إحصائياتنا الطيبة وقدراتنا⁽¹⁾.

وأما عن محاولة الخروج بالشعر العربي من دائرة القصيدة العمودية التقليدية المتوارثة والمتداولة عبر القرون والأجيال الماضية، فهناك من ينسب الريادة في هذا المجال إلى الشعراء العراقيين نازك الملائكة وبدر شاكر السياب وشاذل طاقة وبلندر الحيدري. إذ تقول نازك الملائكة إنها هي التي سبقت هؤلاء جميعاً وكانت أول من كتب قصيدة "التفعيلة" عندما نشرت قصيدتها "الكوليرا" من الوزن المتدارك (الخبث) في أواخر عام 1947م، وبعد ذلك بأسبوعين صدر ديوان السياب بعنوان "أزهار ذابلة" وفيه قصيدة بعنوان "هل كان حباً" من بحر الرمل علّق عليها في الحاشية بأنها "من الشعر المختلف الأوزان والقوافي"⁽²⁾.

ويرى صدوق أن هذا الكلام ليس دقيقاً ولا يؤخذ به في المعايير المنهجية. فالتجديد بصورة عامة، لا يأتي على يد واحدة بمفرده، بل يبدأ في العادة نتيجة جملة من العوامل والظروف، فيشكل إرهاصات وبوارد تأتي وتبرز وتتلاحم من هنا وهناك، ثم يأتي الدأب والمتابعة والمواصلة والتواصل، إلى أن تتضح وتصبح ظاهرة عامة، وهذا هو تماماً ما حصل بالنسبة لقصيدة التفعيلة في الشعر العربي في القرن العشرين، فقد سبقت هذا النمط أو الشكل الشعري محاولات عديدة، على أيدي نخبة من المبدعين العرب في غير قطر عربي، لكسر حدة البيئية المقفلة في القصيدة العمودية الموروثة، فظهرت قصائد لميخائيل نعيمة (في المهجر) وإسعاف

(1) صدوق، مسيرة الشعر العربي في القرن العشرين، ص3.

(2) المرجع نفسه، ص4.

النشاشيبي (في فلسطين)، كما سعى أمين الريحاني إلى الخروج بالقصيدة العربية من مقوماتها وشروطها الأساسية (العروض الخليلي، القافية والروي) وكتابة نثر فني ينطوي على شعرية داخل النص .. ثم تطوّرت هذه البدايات إلى شكل "قصيدة التفعيلة".

ويشير صدوق إلى أنه وجد قصيدة على هذا الشكل باللغة العربية الفصحى للشاعر (بيرم) التونسي، نشرها عام 1936م في صحيفة "الزمان" بتونس، وإن الشاعر والمسرحي الحضرمي المتمصّر (علي أحمد باكثير)، نظم مسرحيته "أخانتون ونفرتيتي" سنة 1943م على البحر المتقارب على طريقة الشعر الحر، وأطلق عليه اسم "الشعر المرسل". وفي الأردن فإن عراراً (مصطفى وهبي التل) كتب قصيدة من الشعر الحر سنة 1943م المنشورة في ديوانه بعنوان "متى". وفي السودان أيضاً كتب الشاعر السوداني (محمد أحمد محجوب) قصيدة من الشعر الحر سنة 1945م.

وعليه فإن صدوق يرى أن قصيدة التفعيلة قد نضجت وشكّلت تياراً إبداعياً جديداً شق مجراه بوعي وثبات على أيدي نخبة من شعراء العراق (نازك الملائكة، والسياب، وشاذل طاقة، والبياتي، وبلند الحيدري) في أواخر الأربعينيات الميلادية، ثم شاعت الموجة عموم الأقطار العربية بترتب زمني وفق ما سمحت به المناخات الأدبية والثقافية لكل قطر، حتى تشكل في النهاية تيار عام واحد جديد⁽¹⁾. ويمكن أن أجمل ملاحظات صدوق حول حركة التجديد في الشعر العربي على النحو الآتي:

أ. يرى صدوق، أن أكثر محاولات التجديد الشعري العربي في هذا القرن، صدقاً مع النفس والتزاماً بالذات وإخلاصاً للغاية، هي محاولة مدرسة الإحياء بزعامة محمود سامي البارودي . ففي تلك المرحلة اتجه المجددون إلى العودة بالشعر العربي إلى أصوله الأولى وتجاهلوا النماذج الأوروبية تماماً، وقد استطاع البارودي أن يعود بالشعر إلى منابعه الأولى على الصافية، وحرّره من الركود والجمود، فصاغ بعضاً من تجاربه الخاصة وسجّل بعض الأحداث

(1) صدوق، مسيرة الشعر العربي في القرن العشرين، ص3.

السياسية في زمانه بشعره، كما وصف الطبيعة حوله والآثار والحياة في مصر، فكان النهج الذي سلكه منسجماً تمام الانسجام مع طبيعة المرحلة وشرف الغاية.

ب. يؤكد صدوق، أن حركات التجديد التي جاءت بعد محمود سامي البارودي وزملائه، بداية من مدرسة الديوان التي قادها العقاد وشكري والمازني، ودعت إلى نبذ الأفكار التي تقوم عليها القصيدة العربية التقليدية .. ومروراً بشعراء المهجر من أعضاء الرابطة القلمية (في أمريكا الشمالية) والعصبة الأندلسية (في أمريكا الجنوبية) الذين دعوا إلى الابتكار في الأساليب والمعاني، ثم جماعة أبولو (1932م) برئاسة الدكتور أحمد زكي أبو شادي، التي حددت أغراضها بالسمو بالشعر العربي وتوجيه الشعراء توجيهاً شريفاً وترقية مستوى الشعراء أدبياً واجتماعياً، والدفاع عن مصالحهم وكرامتهم، ومناصرة النهضة الفنية في عالم الشعر، ثم شعراء التيار الواقعي الذين ظهروا مع نهاية الحرب العالمية الثانية، ونهاية رواد ما اصطلح على تسميته بالشعر الحر والقصيدة الحداثية وقصيدة النثر ... نقول إن جميع حركات التجديد هذكما يرى صدوق كانت أسيرة للتأثيرات الأوروبية، خاضعة لمعطياتها، وتحتذي النموذج الشعري الأوروبي احتذاء التابع للسيد⁽¹⁾.

فالرومانطيقية الأوروبية دخلت شعرنا العربي المعاصر على أيدي شعراء المهجر والديوان وأبولو والمذهب الواقعي بكل تفرعاته دخل شعرنا العربي المعاصر عن طريق الشعراء العرب الملتزمين حزبياً وسياسياً . والمذهب الرمزي دخل شعرنا العربي عن طريق بعض شعراء لبنان أمثال : بشر فارس وأديب مظهر وصلاح الأسير وسعيد عقل وإلياس أبو شبكة وكلهم تلاميذ الثقافة الفرنسية ، والسريالية الغامضة التي أسسها الفرنسي أندريه بريتون ، وقد دخلت شعرنا العربي عن طريق أدونيس وأنسي الحاج وبعض شعراء جماعة مجلة "شعر" اللبنانية. وفي هذا السياق نستطيع أن نجد قصائد كثيرة لبعض أعلام التجديد في الشعر العربي

(1) صدوق، مسيرة الشعر العربي في القرن العشرين، ص3.

المعاصر مثل السياب و خليل حاوي وأدونيس تكاد تكون مقتبسة أو منسوخة حرفياً، شكلاً ومضموناً من قصائد لبعض أعلام الشعر الإنجليزي والشعر الفرنسي.

وقد أشار الشاعر عبدالرحمن شكري إلى أن زميله إبراهيم المازني قد نقل حرفياً عدة قصائد لشعراء إنجليز صاغها بالعربية ونسبها لنفسه، إذ كتب شكري في مقدمة ديوانه الخامس عام 1918م يقول: "لفتني أديب إلى أن قصيدة المازني التي عنوانها "الشاعر المحتضر" مأخوذة عن قصيدة "أدوني" للشاعر شيللي الإنجليزي، كما لفتني أديب آخر إلى قصيدة المازني التي عنوانها "قبر الشاعر" وهي منقولة عن قصيدة هايني الألماني، ولفتني آخر إلى قصيدة المازني "فتى في سباق الموت" وهي للشاعر هود الإنجليزي". ثم عدد شكري قصائد أخرى للمازني أخذها عن شعراء إنجليز ونسبها لنفسه. وكتب شكري مقالاً آخر نشرته مجلة المقتطف، يواصل فيه تعريته للمازني قائلاً: "اطلعت على مقالات المازني في ابن الرومي والجزء الأكبر منها ليس في ابن الرومي بل في العبقرية والعظماء.. فإذا أجزأ كبيرة منها مأخوذة بعضها من كتاب عنوانه "شكسبير"، تأليف الشاعر الفرنسي فيكتور هوجو، وبعضها الآخر من مقالات توماس كارليل الإنجليزي"⁽¹⁾.

أما بدر شاكر السياب فقد اعترف بنفسه بتأثره الكبير بالشاعر الإنجليزي ت.إ.إ. وتأثيره أيضاً على غيره من الشعراء العرب المحدثين. ففي المحاضرة التي ألقاها السياب في مؤتمر روما حول الأدب العربي المعاصر، والمنعقد في تشرين الأول أكتوبر عام 1961م، يقول: "لا بد لنا من الإشارة إلى ما كان للشاعر الإنجليزي الكبير ت.إ.إ. إيبوت، وخاصة في قصيدته "الأرض الخراب" من أثر كبير على الشعر الملتزم في الأدب العربي الحديث الشيوعي منه وغير الشيوعي، والردىء منه والجيد على السواء... وهناك فئة من الشعراء العرب الشباب قرأت إيبوت وفهمته وتأثرت بروحه وتكتيكه على السواء". وما لم يقله السياب أن قصيدته الشهيرة "أنشودة المطر" وكذلك قصيدته "المومس العمياء" كتبها طبق الأصل على غرار قصيدتين مشهورتين للشاعر ت.إ.إ. إيبوت"⁽²⁾.

(1) صدوق، مسيرة الشعر العربي في القرن العشرين، ص4.

(2) المرجع نفسه، ص5.

أما الشاعر خليل حاوي فهو في شعره، روحاً وبناءً، يكاد يكون صورة طبق الأصل عن الشاعر إدجار آلان بو، وفي بعض قصائده الأخرى يتحوّل إلى صورة من الشاعر بودلير.

أما بالنسبة للشاعر علي أحمد سعيد (أدونيس)، فيرى صدوق أنه قد اعترف بتأثره الكبير ببعض الشعراء الفرنسيين حيث يصرح في مقال بعنوان "سان جون بيرس وأنا"، نشره في مجلة "مواقف" قائلاً: "أعلن أنني أتأثر بكل ما يجري في العالم، والشعر العظيم هواء العالم . كل من يتنفس يتأثر". وهذا في رأي صدوق كلام جميل لا اعتراض عليه لو أن أدونيس تأثر بالشعر الإنساني العظيم فقط، لكن الحقيقة أنه في جميع قصائده الحداثيّة وتنظيراته في الحداثة، كان عالمة على شعراء الحداثة الفرنسيين، اقتبس وزقل وأخذ ونسخ عنهم قصائدهم وتنظيراتهم الفكرية والنقدية، ونسبها إلى نفسه وروّج لها في محيط الشعر العربي المحدث، دون أدنى إشارة إلى أصحابها ومصادرهما⁽¹⁾.

وقد تصدّى شاعر ودارس مقيم في المغرب الشقيق، كان من تلامذة أدونيس ومريديه الخالص، لكشف أستاذه في كتاب كامل بعنوان "أدونيس منتحلاً" نشره عام 1990م في الدار البيضاء، وقد تناول كاظم جهاد فيه الانتقال الفكري والانتحال الشعري وانتحال الشكل الشعري عند أدونيس متهماً إياه بالسرقة من الشاعر الفرنسي ميشونيك والشاعر بونفوا، كما اتهمه باستقاء تنظيراته من طروحات فلسفية وفكرية لكل من هايدجر واكتافيو باث وصالح ستيتية وبونو . كذلك كشف الشاعر والباحث العراقي سامي مهدي نصوصاً عديدة لأدونيس نشرها في كتاب كامل بعنوان أفق الحداثة وحداثة المؤلف عمده هذا الباحث في كتابه إلى مقارنته نصوص عديدة لأدونيس بنصوص فرنسية سطا عليها أدونيس وصاغها بالعربية بأسلوبه الخاص. كما ورد في كتاب سامي مهدي: "إن أدونيس كان عيالاً في مفاهيمه على التراث السوريالي ولا سيما تراث رامبو الأب الشرعي للسوريالية وبريتون معلّمها الأول، حتى أنك لن تجد بين تلك المفاهيم شيئاً من خارج ذلك التحدّث. وجليّ أن هذه المفاهيم التي تشكّل جوهر السوريالية وأهم عناصر تقنياتها،

(1) صدوق، مسيرة الشعر العربي في القرن العشرين، ص6.

هي في الوقت ذاته، العمود الفقري الذي تستند إليه الحداثة الأدونيسية، فما من مقال نظري لأدونيس، وما من حديث صحفي إلا وتردّد فيه شيء، يزيد أو ينقص منها . وإذا أضفنا إلى ذلك ما يريده أدونيس من أفكار الرفض، والانقطاع، والتمرد، والهدم، والتجاوز، والمغامرة، واستقصاء المجهول، ورفض ما هو عقلاني ومنطقي، وتحرير المكبوت، وتسمية اللامسمّى، والاختفاء بالحب والجسد، وجدنا أن الأدونيسية ليست شيئاً سوى السورالية⁽¹⁾.

أويؤكد صدوق أن بعض الدارسين والنقاد اليساريين أمثال : محمود أمين العالم وعبد العظيم أنيسون⁽²⁾ (جي علوش في مقدمة ديوان السياب) يذهبون إلى أن الشعر الحر نتاج ما قام به المذهب اليساري من نشاط اجتماعي وسياسي أدى إلى بلورته وإيجاده لكنه لا يشاطرهم هذا الرأي بجملته، بل يوافق على أن حركة الشعر العربي حظيت بحضانة أكثر من جهة أجنبية لأهداف متباينة⁽²⁾. ب. يشير صدوق إلى إن حركات التجديد الشعري العربي المتأخرة، ويقصد جماعة الشعر المحدثين انطلقوا في مشروعاتهم التجديدي من منطلق رفض الواقع الشعري العربي بكل أشكاله، بمضمونه وفكره وقيمه الثقافية، وبنائه التعبيري، وفي هذا السياق دعوا إلى الانسلاخ عن التراث العربي جملة وتفصيلاً، تحت ستار حجة العيش في الحاضر والنظر إلى المستقبل . وقد تزعم هذا الاتجاه يوسف الخال وأدونيس في الدعوة إلى إلغاء القصيدة العربية الأصلية شكلاً ومضموناً . وتطورت دعوته إلى تأسيس كتابة جديدة وليس إلى تأسيس قصيدة جديدة فقط، بمعنى أنه يدعو إلى تحطيم الحاجز الفني بين الشعر والنثر في الأدب العربي، والقضاء على ثنائيّة الكتابة الفنية (الشعر والنثر)⁽³⁾.

ج. يرى صدوق أن دهاقنة هذا التيار الجديد وفي مقدمتهم الخال وأدونيس (توسعوا في نطاق دعواهم لما أسموه بالحركة الإبداعية التجديدية ليشملوا

(1) صدوق، مسيرة الشعر العربي في القرن العشرين، ص7.

(2) المرجع نفسه، ص8.

(3) المرجع نفسه ص 9.

الدين، وقد دعا أدونيس ويوسف الخال علانية إلى رفض كل موروث سلفي بمفهومه الديني والسياسي ومعارضة كل مؤسسة سلفية دينية كانت أم أدبية...

د. ويؤكد صدوق أن أدونيس الذي يرفض كل موروث سلفي يعلن في دعواه باسم الإبداع ثورته الشعواء ، أنه يحرص على الارتباط بكل الحركات الشعبوية التي لعبت دوراً معارضاً مدمراً في التاريخ العربي الإسلامي، ويعد نفسه امتداداً لهذه الحركات، فهو يجد مثله الأعلى في القرامطة والإسماعيلية الباطنية والحركات الصوفية الرافضة للواقع، وقد بلغ من تأثر أدونيس بالاتجاه الصوفي أن سمى مجلته "مواقف" نسبة إلى كتاب المواقف "للفري"، وسمى ديواناً من دواوينه "مفرد بصيغة الجمع" نسبة إلى موضوع الليلة الثلاثين في كتاب "الإمتاع والمؤانسة" للتوحيدي، وهو بعنوان "مفرد بصيغة الجمع". ثم أن قصيدة أدونيس التي تحمل اسم المفرد بصيغة الجمع "كتبها مقلداً للشاعر الفرنسي السوريالي أبولينير في قصيدته "منطقة أرضية"⁽¹⁾.

هـ. يرى صدوق ومن خلال قراءته لمئات القصائد للشعراء الذين حاولوا التجديد أو غرقوا في محيط الجديد، في مختلف المراحل التي عبرتها مسيرة الشعر العربي في القرن العشرين، أن القلة القليلة منهم كانت تُقدم على فعل التجديد وهي تمتلك الأدوات تؤهلها لخوض هذه التجربة، وعن اقتناع بضرورة التجديد وإخلاص للشعر والأمة، لكن الكثرة الكاثرة من شعراء الشعر الحر والحداثي، إنما دخلوا في هذا الباب تملقاً للعصرية أو تملقاً للحدثاء، حتى لا يقال عنهم أنهم متخلفون عن ركاب العصر، وهناك فئة أخرى لم تقو على امتلاك أدوات الشعر الحقيقي من لغة وثقافة ومعرفة كافية بأصول الإبداع الشعري وشروط القصيدة العربية الأصيلة، فاندفعوا يـ تخبطون في متاهة الشعر المحدث بكل أخطائهم اللغوية وقصورهم وضالتهم الثقافية⁽²⁾.

(1) صدوق، مسيرة الشعر العربي في القرن العشرين، ص7.

(2) المرجع نفسه، ص8.

ثم يؤكد صدوق أن جميع تجارب التجديد والحدائث التي مورست وما تزال تمارس إلى اليوم على ساحتنا الشعرية، لم تهتدِ حتى هذا التاريخ إلى شكل فني للقصيدة المنشودة أو النص الشعري المنشود الذي يمكن أن يصطلح عليه الشعراء والنقاد، رغم مرور أكثر من نصف قرن من الزمان على هذه التجارب التي أرهقت الشعراء والدارسين والقراء.

الفصل الثاني

الدراسة الموضوعية

1.2 البعد الوطني:

وردت لفظة الوطن في تعريفات متعددة منها الوطن هو الذي تقيم فيه ، وهو منزل الإنسان ومحلّه ، وأوطنت الأرض ووطنها توطينا واستوطنتها أي اتخذت وطنا ". ووطن بالمكان وأوطن: أقام"⁽¹⁾.

وجاءت أيضا أن الوطن : "هو المكان الذي يقيم المرفيه ويألفه "، ووطن المكان أخذه وطنا يقيم فيه ووطن نفسه على كذا ، أي مهدا له وحملها عليه، وأوطنه اتخذه وطنا. والوطن "هو المنزل الذي تقيم فيه"⁽²⁾.

ويقصد بالوطنية حب الوطن والشعور بارتباط نحوه ، وهي أيضا ارتباط الفرد بقطعة من الأرض تعرف باسم الوطن⁽³⁾.

أما الاتجاه الوطني في الشعر فهو المنحى الذي يعرض فيه الشعر شؤون الوطن والمواطنين فيدعو إلى حب الوطن وحمايته ، والحفاظ على حقوق المواطن ورد كيد العدو ، وحفظ عهد الصديق، ويعكس مواقف النضال والقوة والعزة ضد المستعمرين، ويعالج مواطن الضعف والتقصير، ويدافع عن الجماهير وحقوقها وتراثها، وينافح عن مقدساتها وحريتها واستقلالها بجرأة وعناد من غير أن يؤثر فيه ترغيب أو ترهيب ، وهو ينبعث من عاطفة صادقة وشعور داخلي بحيث تلقاه يتفاعل مع القضايا ويترجم الأحداث والتطورات التي تحدث في بيئته وتلك التي تحصل في محيطه⁽⁴⁾.

(1) ابن منظور: لسان العرب، تقديم الشيخ عبد الله العلي ، إعداد وتصنيف يوسف خياط، المجلد الثالث ، دار لسان العرب، بيروت، ص 949

(2) رضا، أحمد: معجم متن اللغة، المجلد الخامس، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1960م، ص 777

(3) الحصري، ساطع آراء وأحاديث في الوطنية والقومية ، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1984، ص 9.

(4) عطوات، محمد : الاتجاهات الوطنية في الشعر الفلسطيني المعاصر من 1918 إلى 1968، ط1، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1998، ص 257.

والشاعر الوطني هو الذي يلتزم تصوير آلام أمته وآمالها ، ويتغنى بأفراحها وأتراحها، يدافع عن وطنه ويتمسك بقوميته ويعبر عن مواقفه الثابتة بصراحة وشجاعة ولا يثنيه عن سبيله تهديد أو وعيد، ويبدو في هذا كله الالتحام الصادق بين الطرفين الشاعر ووطنه، بحيث يكون الشاعر هو الثائر الرائد⁽¹⁾.

لقد أصبحت قضية الوطن تملك على الشاعر كل لحظات حياته، وأصبحت كالدّم في جسده فلم يعد بحاجة إلى مناسبة حتى يتحدث عن هذا الوطن ، ففي كل لحظة يتذكر هذا الوطن ويتحدث عن قضاياها، إنعيش قضيته في كل نبضة من نبضات قلبه، ويرى أن واجبه يملي عليه أن يكون صوت الشعب ، ولذا أصبح الشاعر لا يمس القضايا من الخارج بل تعمق في تلمس الجراح، وصار يعالجها من خلال حمله فكراً تحولياً يستبدل الواقع الرديء⁽²⁾.

ولعل من المواضيع والمضامين الوطنية التي دارت حولها قصائد الشعراء الأردنيين، العودة إلى فلسطين وحب الوطن والأرض وتحليل أسباب النكبة ، والتحدث عن المصائب والمجازر التي انزلها الاحتلال الصهيوني بالأهل ، وعن صمود المواطنين ومقاومتهم وعن رفضهم الأمر الواقع ، وعن هدم المنازل أو إجلائها، وهدم القرى، والدعوة إلى تحرير الأرض⁽³⁾.

ومن الشعراء الذين تحدثوا عن الجانب الوطني في قصائدهم الشاعر راضي صدوق ؛ وذلك لارتباطه الوثيق بالقضية الفلسطينية وبجهاد الشعب الفلسطيني المناضل لاسترداد حقه السليب ، ففلسطين منذ بداية القرن وحتى الآن وهي تعيش ظروفاً مأساوية عظيمة ومراحل نضالية مختلفة.

لقد كشف صدوق من خلال شعره عن اعتزازه وحبّه لوطنه، ودعا لرفع الظلم والأذى عنه. إذ يقول في قصيدة "البراكين أفاقت":

نحنُ أشبال فلسطين هُنا

لم نزل نصغي كهولاً وشباباً

(1) عطوات، الاتجاهات الوطنية في الشعر الفلسطيني المعاصر، ص258.

(2) النجار، التجديد في الشعر الأردني، ص220.

(3) المرجع نفسه، ص221.

نرَقِبَ الصَّوْرَ لنَمْضِي جَحْفَلاً

بَارِقِ الوَمْضَةِ يَنْصَبُ انْصِبَاباً

إِنْ دَعْتُ ((يَافَا)) إِلَى الْمَوْتِ نَكُنْ

كَلْنَا يَا صَاحِ الْمَوْتِ الْجَوَابَا⁽¹⁾

ويتحدث صدوق عن صفات الشعب الفلسطيني المناضل جامعاً بين الأنا والجماعة، لا سيما أنفرد من أبناء الشعب الذي نفض عنه قَتَامَ اليَأْسِ، وغبَارَ الاستكانة، ورفع رأسه وصوته عالياً منتفضاً من الجراح والدماء، لينهض واقفاً من جديد على طريق البطولة والصمود والمواجهة، منطلقاً إلى استعادة حقوقه المغتصبة.

يقول صدوق:

نحن في كل ظلامٍ مشعلٌ

يهتك الليل ويجتاح السحابا

من خيام الذل فجرنا المنى

وأحلناها رحيقاً وشرابا

وسقينا الأرض من أكبادنا

وملأناها جراحات خضابا

ورزايا الدهر لما أظلمت

شحذت أضلعنا الحرى حرابا

وفلسطين وإن ضاعت سدى

نحن نبنيها حصوناً وقبابا

لم نهن حتى يُوارى قدسها

سوف نعلوها نجوداً وهضاباً

الدمُ الحرُّ تلظى هادراً

زلزل الروح جنونا واصطخابا

(1) صدوق، ديوان أمطار الحزن والدم، ص19

البراكينُ أفاقت، لن ترى

في فضاء الله صرحاً أو يباباً

يا فلسطينُ أنظرينا نلتظي

قد صهرنا الأحرفَ الحمرَ كتاباً⁽¹⁾

وفي قصيدة فلسطين ويهوذا الثاني "يُصور صدوق حالة الشعب الفلسطيني الغريب المشرد من خلال تجربته مع الغربة والتشرد، فيصف انعكاسات الغربة على ذاته، روحاً وجسداً ومكاناً ومكانة في الحياة وبين الناس، فالليالي السود تصفحه بل أن الليل ينكره، فتسمعه يخاطب وطنه ويسأله هل ما زلت تذكرني؟! على سبيل الاستفهام الإنكاري:

أنامُ على شفير الجُرح مجدولاً بلا كفنٍ

وفي عيني تخفق أغنيات الشوق والشجنِ

أسائل في متيه الأرض: أين غدوت يا وطني؟

وتصفعني الليالي السود..... حتى الليل أنكرني؟

أفيءُ إليك يا وطني..... فهل ما زلت تذكرني؟⁽²⁾

ويتغنّى صدوقُ وطنه الذي يضيف عليه أسمى النعوت ، فهو أرض السلام والهدى، الأرض التي يعانق بها الهلال الصلـ يبجسيدا لروح التسامح الديني ، إذ يقول:

سلاماً سلاماً لأرض السلام وأرض الخلود ومهد الهدى

يعانق فيها الهلالُ الصليبَ ويحضنُ عيسى بها أحداً

ويكتب فيها الدم المستباح على جبهة القدس أسمى نداً

ألا أيها المؤمنون سلاماً..... سلاماً إلى أن يحين الردى

تسامت على الجرح أسطورةً

أذلَّ أباهَا حرابَ العدا⁽³⁾

(1) صدوق، ديوان أمطار الحزن والدم، ص20.

(2) المرجع نفسه، ص 65.

(3) المرجع نفسه، ص83.

ويحث صدوق الشعب الفلسطيني على الجهاد والنضال، وبث الروح القتالية في نفوس الفلسطينيين ليرفعوا راية الوطن المحرر ، مستلهمين البطولة والشجاعة والفداء من جراح وطنهم الحبيب السليب، التي لا تتجب إلا الرجال والبطولة والنصر. يقول في قصيدته:

فلسطينُ هذا ربيعُ الضياء

تبسمُ في حالكات الظلم

أطل على الكون نيسانه

وقد كان أسطورةً في العدم

طلعنا من الليل نوراً وناراً

وأنشودة من كفاح ودم

وسوف نسطرُ عبر المدى

ملاحم لم يبتدعها قلم

ونرفع فوق جبين الذرى

على قمم المجدِ أسمى علم

لك المجد يا تربةً لم تزل

على الدهر تُتجبُ غلب الرجال

إذا انحسر الفجرُ عن أرضنا

وغُيب في حالكات الليالي..

فإننا سنقشع عنه الظلام

ونسقيه من شفراتِ النضالِ

ونشعله جذوةً من لظى

توهج في غمراتِ النضالِ..

فجرحك يا أمُّ ميلادنا

ولن يُنجبَ الجرحُ إلا المعالي⁽¹⁾

(1) صدوق، ديوان أمطار الحزن والدم، ص15-16.

وَيَصُورُ صَدُوقُ أَسَالِيبِ الْيَهُودِ وَمُمَارَسَتِهِمُ الرَّامِيَّةَ إِلَى تَهْوِيدِ الشَّعْبِ وَالْبِلَادِ،
وَيُطْرِدُهُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ، وَتَهْجِيرُهُمْ إِلَى أَنْحَاءِ الْعَالَمِ.
ثُمَّ يَلْتَقِطُ مَشْهُدًا مِنْ مُمَارَسَاتِ الْيَهُودِ ضِدَّ الشَّعْبِ الْفِلَسْطِينِيِّ وَهَدْمِهِمْ مَنَازِلَهُمْ، إِذْ
يُرْسِمُ لَنَا صُورَةَ إِجْلَاءِ عَائِلَةٍ عَنْ بَيْتِهَا الْقُوَّةَ، حَيْثُ قَعَدَ عَسَاكِرُ الْيَهُودِ فِي مَكْتَبَتِهَا مَ،
يَسْكُرُونَ عَلَى أَوْرَاقِهِمْ، سَاخِرِينَ مُسْتَهْزِئِينَ بِالْدارِ وَأَهْلِهَا. يَقُولُ:
سَتُظَلُّ الْكَاسَاتُ تَدُورُ

هَذَا زَمَنُ الرِّيِّ
أَطْفَى فِي أَمْعَانِكَ نَارَ الْعَطَشِ التَّارِيخِيِّ
السَّاعَةَ تَشْرَبُ فِي بَيْتِي
السَّاعَةَ تَمْضَغُ أَعْصَابِي... تَطْعَنِي... تَسْرِقُنِي
تَصْنَعُ لِي مَوْتِي
لَكِنْ غَدًا يَوْمٌ آخَرُ
سَتُظَلُّ الْكَاسَاتُ تَدُورُ
وَيُظَلُّ الزَّمَنُ الْمُطْعُونُ يَدُورُ
بَيْتِي قَدْ يَصْبِحُ بَيْتُكَ
مَوْتِي... لَا بَدَّ... غَدًا يَصْنَعُ مَوْتَكَ!
مَزَقَ أَوْرَاقِي وَحُرُوفِي
وَاعْصَرَ أَحْدَاقَ الْأَطْفَالِ خُمُورَ
إِشْرَبْ.. إِشْرَبْ... حَتَّى الْعِيِّ
هَذَا زَمَنُ الرِّيِّ (1).

وَيَتَحَدَّثُ صَدُوقُ عَنِ الْمُمَارَسَاتِ الصَّهْيُونِيَّةِ الَّتِي تَجَسِّدُهَا الْوَسَائِلُ وَالْأَسَالِيبُ
الْقَمْعِيَّةُ الَّتِي ارْتَكَبَهَا الْإِحْتِلَالُ الصَّهْيُونِيُّ ضِدَّ الْعَرَبِ فِي الْأَرْضِ الْمُحْتَلَّةِ، هَادِفِينَ

(1) صَدُوقُ، دِيْوَانُ بَقَايَا قِصَّةِ الْإِنْسَانِ، ص 30-31.

إلى تحطيم إنسانية الإنسان على أرضه، وتجريده من مثله وقيمه وتراثه واقتلاعه من أرضه وبلده. (1) يقول في قصيدة "دم الفداء":

يرنو إلى الوطن الجريح، وقلبه

طير على الوطن الجريح مُحومٌ

أضحت قداسته مباءة طُغمة

والطهر في شرع الطغام محرمٌ

وإذا الصهاينة اللئام، ورجسهم

يختال في الحرم الأبى ويجثمُ

لو كان فيهم بعض دين ما بغوا

في القدس أرض الأنبياء وهدموا

أعربدُ الذئبان في جنباتها؟!!

قد هان خطبٌ لو يعربدُ ضيغمُ!

يا للدهاقين البغاة لو أنهم

قرأوا من التاريخ ما لا يُكتمُ

لدروا بأن الدهر أصدر حكمه

إن الزمان غداً يدور عليهمو!

ما نام ليثٌ عن حماه ولم يهن

شعبٌ له القرآن روحٌ ملهمُ! (2)

ويعبر صدوق عن كراهيته لليهود وحقده عليهم ، فهم شعب أستحق اللعنة من الله

والناس أجمعين. يقول في قصيدة "لعنة على الشعارات الكاذبة":

عليكم لعنة الإنسان والأحرارُ

عليكم لعنة الشهداءِ والأبطالِ والثاراتِ والعودةِ والغارِ!

عليكم لعنة المذبوح ضيفاً في مغانيكم غريب الدارُ

(1) خليل، صالح: الانتفاضة الفلسطينية في الشعر الأردني الفلسطيني الحديث، رسالة ماجستير،

جامعة مؤتة، 1996م، ص23.

(2) صدوق، ديوان أمطار الحزن والدم، ص5.

عليكم لعنة الأطفال زُغب الريش يرتعشون أيتاماً⁽¹⁾

وتحدث صدوق عن حلم الرجوع والتفاؤل والأمل بالعودة إلى الديار، فقد انتظر الإنسان الفلسطيني يوم العودة طويلاً وذرف الدموع غزيرة عليه ، وأنتظر عودته إليه على أحر من الجمر ، ولطالما داعبت الأحلام مخيلته وهو يعود إلى وطنه وجنته⁽²⁾. يقول في قصيدة "هل يعود الربيع":

يزورنا الربيعُ يا صديقي غداً
وسوف يفرش التلالَ بالزهورُ
وسوف يعبقُ الوجودُ بالعبير
يزورنا الربيع في وداعة الصغارُ
ويسأل الطيورَ عن ملاحنِ الهزارُ
وسوف يزرع القلوب بالأمَلُ
ويسكب العطاء في معاهد الثمار⁽³⁾

ن وإشاعة التفاؤل والبشرى جزء من الرسالة التعبوية التي أهتم بها الشعراء، والتي تهدف إلى رفع الروح المعنوية للفلس طيني المقاتل وتربطه بوطنه بصورة يكوفيها دائم الأمل ببزوغ فجر جديد⁽⁴⁾ فقه كان صدوق من السباقين إلى ذلك . حيث يقول في قصيدة "بكائية":

صوتكم يا أخوتي الطالعُ من خلف الظلام
صرخةُ الميلادِ في الأرض السليبية
أرضنا الخضراء ما عادت غريبة
صوتكم أطلعها كالفجر من خلف القتام
دمكم يمنحها نبضَ الحياة
يا أحبائي الذين

(1) صدوق، ديوان النار والطين، ص55.

(2) المرجع نفسه، ص211.

(3) المرجع نفسه، ص47.

(4) خليل، الانتفاضة الفلسطينية في الشعر الأردني والفلسطيني الحديث، ص185.

رفضوا ذلَّ السنينُ
يا بشاراتِ الندى تسقي الروابي
يا دماً حراً يصب النارَ في روح الصغارِ الحالمينُ
يطلع الفجرُ على وهجِ الحرابِ⁽¹⁾
وفي موضع آخر يشيع صدوق لنا جواً من التفاؤل والبشرى بقدوم الأبطال
المنقذين الذين يحملون في صرخاتهم النصر والحرية. يقول:
نعم يأتونُ
خيولاً كانطلاق اللحم كالبشرى السماوية
نعم يأتونُ
مع الريح الشمالية
وفي صرخاتهم وعدٌ بميلاد
بنادقهم تباشيرٌ تزفُ النصرَ للوادي
قبابُ القدس تعرفنا
وتذكرنا البساتينُ
غسلنا سوأة الماضي، وإنا دائماً آتونُ
فداءً عبقرى الفجرِ ليس يهون
وسوفُ يزغرد الوادي وتعبقُ في مرابعنا الرياحينُ
وتزهر غابة الليمون...⁽²⁾
وهو يرى أن العودة مرتبطة بالجهاد المقدس من أحرار هذه الأمة الذي يبعثهم
التاريخ. إذ يقول في قصيدته لعلنه على الشعارات الكاذبة "مستهزأ التاريخ من
رقاده الطويل، لعله يصنع ما تعجز الأجيال المعاصرة المهزومة عن صنعه:
تفجرُ يا دم التاريخ صبُّ الموت واللَّهبا
وزلزل صخرة الأقدارِ
لعلك تبعثُ الأحرارُ

(1) صدوق، ديوان بقايا قصة الإنسان، ص62.

(2) المرجع نفسه، ص76.

لعلك تُخصب الأرحامَ تُنجبُ من حشايا الموت أسطورةً

لعلك يا دمَ التاريخ تُشعل شعبنا غضباً

لعلك تصنعُ العجا

لعلّ.....عسى.....تعود الدار! (1)

ويعاهد صدوق بلاده ووطنه بأن يظل مخلصاً لها حتى لو كثرت الأقاويل بأ ن

الشعب الفلسطيني قد باع أرضه ووطنه بثمن قليل.

يقول في قصيدة "وداع عند الشريعة":

وقد يقال ضيّعوا إننا

نحن الذين الترابَ والوطنَ

وإننا بعنا القرابَ والسيوفَ

وقد يقال إننا

نزيف النضال..... نكذبُ الكفاح.... نقبض الثمنَ

وليس في عروقنا دمّ شريف (2)

ويفند صدوق كل هذه الاتهامات والدعاوى الزائفة المغرضة. فيقول:

وتزعم أنني أحرقتُ تاريخي قتلتُ أبي شربتُ دماءَ

أحبابي وإخواني

سحقتُ عظامَ موتاهم بلا رحمة

وأني بعثُ أوطاني

سدىً يا لعنةَ التاريخ، يطلع فجرنا الأزليُّ في آفاقِ

دنيانا

لقد قتلوا ضمير الفجر بُهتانا (3)

ثم يخص صدوق البطل الفلسطيني بالحديث، ويقول في مدحه في قصيدة بعنوان

"احتفالية في انتظار البطل":

(1) صدوق، ديوان النار والطين، ص56.

(2) صدوق، ديوان بقايا قصة الإنسان، ص49.

(3) صدوق، ديوان النار والطين، ص52.

عوذتُ مدحك أن يكون رياءً

يا واهبَ المجدِ القديمِ ضياءَ

طلقْ جبينك كالصباحِ سماحةً

لكأنَّ فيه من الضحى سيماءَ

صمتُ على ألقِ الجبينِ منورُ

إعجازه قد حيرَ البلغاءَ

يا ابنَ العظامِ أرومةً وسجيةً

المجدُ يورثُ لا يكون عطاءَ

أعليتَ في الميراثِ شهماً باذلاً

وسلكتَ دربك هادياً بناءَ

العاملونَ كلامهم أفعالهم

لا يسألون المدحَ والإطراءَ

عفو الكبيرِ إذا تقاصرَ مقولُ

فالشعرُ يلثغُ في فمي استحياءَ

لا يُنصفُ البطلَ العظيمَ قصيدةُ

مهما تكن عربيةً عصماءَ

لكنّها كالدمعِ من حديقِ الأسي

رقرقتها أنشودةُ خرساءَ⁽¹⁾

وقد احتل المكان الفلسطيني حيزاً مهماً ومؤثراً في القصيدة العربية وعند الشعراء الأردنيين أمثال راضي صدوق على وجه الخصوص، وذلك لأهمية هذا المكان في اعتبارات الكرامة والحرية وكافة الرموز في الهوية الوطنية القومية. وتحدث صدوق عن مدينة القدس حديثاً شائقاً، إذ كان لها حضورٌ بارز في التاريخ والشعر، لأنها مدينة الله على الأرض، وأولى القبلتين، وثالث الحرمين.

(1) صدوق، ديوان رياح السنين، ص112

يقول في قصيدة " جموح ":

أنا من القدس هل يدري الورى لغتي

يكاد ينكرني الأهلون والغيرُ

يكذبُ الناسُ أنبائي وما صنعتُ

يداي بالأمس... لاشأهتُ لهم صورُ

لكني في صميم النار معتكفُ

صلاتي الله أنَّ الحقَّ منتصر! (1)

ويصور صدوق في قصيدته (من قلب النار) اليوم الذي سقطت فيه القدس في

أيدي الثعالب "اليهود"، إذ بدت القدس حزينة، مطفئة الأنوار يخيم عليها الظلام من

كل جانب، يقول:

بالأحمر الناريّ أكتبُ..... من سيقرأني

وفي عينيّ مجمره اللهبِ

الريحُ تهجمُ..... والجرادُ يمصُّ أحداقي ويُمطر في

دروبي

وأراك وهماً في الغيوب

ودمماً تخثر في الشرايين الصديئة، في القلوبِ

وأراك عيناً أطفأتها الريح باردة الشحوبِ

وأراك كالشفة اليبيسة ليس تبسمُ في

انتظارٍ فمٍ رطيبِ.

وأراك حانية القباب، خفيّة الأجراسِ، تائهة

الدروبِ

(1) صدوق، ديوان رياح السنين، ص43.

يا قدسُ.....يا تاريخُ.....أيُّ غدٍ يطلُّ وراءَ عالمك

الرهيب؟⁽¹⁾

ويشير صدوق في قصيدته (هزيمة النصر) إلى جهاد القدس الأصيل والموصول
ضد الاحتلال الصهيوني، فهي مدينة صابرة على البلى والمصائب على مر
العصور والأزمنة، لأنها مدينة المجد والكرامة، يقول:
يا قدسُ صمتك قاتلُ

كم تصبرين على الرزايا

لو تنطقين..... لعلهم

قد يخلون من الخطايا

يا قدسُ.... طاهرة الدماءِ

أكاد أغرقُ في دمايـا..

قصفا المآذن والقباب...

وأسمعوا الدنيا حكايا

النصر؟.... تلك هزيمة

ستظل ترجمهم منايـا..

ويظل صمتك سيداً

يُعلي إلى الدنيا ندايا

ويظل مجدك في الضمير

سنأ يضيء في الحنايا ⁽²⁾

ولأن القدس ظلت تطلوع الفجر والشروق بعد الظلام الحالك الذي أحاط بها ،
فالثورة عند الشاعر هي القادر على زرع الرعب في قلوب الأعداء ، كي تعود
القدس حرة عربية إلى أهلها. يقول في قصيدة "احتفالية في انتظار البطل":
هتفتُ بنا الأمجادُ تنشدُ ثأرها

فغدوت أنت السمع والإصغاء

(1) صدوق، ديوان بقايا قصة الإنسان، ص32

(2) صدوق، ديوان أمطار الحزن والدم، ص17.

القدسُ تنتظرُ الشروقَ فكن لها

يا ناصرَ الدينَ الحنيفَ ضياءَ

وارفعْ نداءَ الحقِ إنك رائدٌ

أسمى الحناجرَ صرخةً ونداءَ

النصرُ بالإسلامِ ليس بغيره

إنا عرفنا الزيفَ والأخطاءَ

والفجرُ يعرفُ صانعيه، ولم يزلْ

مُذْ كان، يشرقُ بالهدى وضاءً⁽¹⁾

تحدث صدوق عن التلاحم بين المدن الفلسطينية، فالقدس رمز لـ الإسلام و"بيت لحم" رمز للمسيحية، وكلاهما يتشوقان لقاء بعد بزوغ الفجر وطرده الاحتلال من فلسطين، يقول في قصيدة "سلاماً لأرض السلام":

أيها الذين يحلمون بافتراة الصباح

الفجرُ رايةٌ ترفُّ حرةً على ذُرَى الرماحِ

القدس في انتظاركم تحنُّ للعناق والقبل

كطفلة سبية يتيمة.... حزينه المقل

وبيت لحم دمة على الخدود نارها نداء

ومزود المسيح مهجة جريحة تحن للقاء.⁽²⁾

وركضدوق على المحور الديني في حديثه عن المدينة القدسية ، فتغنى بمكانتها الدينية، لأنها موطن الأنبياء، ومسرى النبي عليه السلام، وهي لذلك مهوى الأفتدة والقلوب، فتحدث عن "قبة الصخرة" و"حائط البراق" و"كنيسة القيامة"، مما يدل على أنها مدينة المحبة والسلام. حيث يقول في قصيدة "سلاماً لأرض السلام":

يا صخرة المعراج قادمون..... قادمون

فكحلي بالنور مقلة البراق

قيامه المسيح قادمون.... قادمون

(1) صدوق، ديوان رياح السنين، ص116.

(2) صدوق، ديوان أمطار الحزن والدم، ص84.

فانتظري بشائرَ الإِشراقِ

الحبِّ والسلامِ في ركابنا

فاقرئي السلامَ

لكل طفلةٍ يتيمَةٍ

وكل مهجةٍ كليمةٍ

إنا غداً آتون يا مدينةَ السلامِ والصفاءِ

والنصرُ في انتظارنا

إلى اللقاء.....

إلى اللقاء.....(1)

ولا ينسى صدوق مدينته ومسقط رأسه، ومرتع صباه "طولكرم"، حيث ذكرها في قصائد متعددة، إذ يصفها بأنها "المدينة الصامتة" بسبب ما أصابها من الظلم عندما وقعت تحت وطأة الاحتلال يقول:

هذه هي المدينة الصامتة.....

تطل من وراء الربوة كما يطل القمرُ على الكون من وراء
الأسداف.

كل ما فيها صامتٌ لا يتكلم.....

الحجارة جامدة

الرياح صامتةٌ تخجل من الهبوب!

وأغصان الشجر لا تتناوح ولا تتمايل

أما العصافير الساذجة فهي تحلقُ في السماء وتطير إلى الحقول

والجنائن المحيطة بالمدينة، ودون أن يُسمعَ لأجنحتها أدنى رفيف!

صمتٌ في صمت.....

تلك هي الحياة في المدينة الصامتة(2)

(1) صدوق، ديوان أمطار الحزن والدم، ص85

(2) صدوق، ديوان الحزن احضر دائماً، ص76

ويكشف لنا صدوق عن صفات أهل طولكرم، فهم نبلاء يتمسكون بمكارم الأخلاق، ويغفرون ويصفحون عن زلات الآخرين:

إنها نبيلةٌ، لأنها صامئة... ولذلك كان أهلها نبلاء يتمسكون بمكارم الأخلاق

يغفرون لمن يسيئون، ويصفحون عن الزلّة والهفوة....

ويغسلون ما علقَ بالناس من وحل بما وهبهم الله من نقاء!⁽¹⁾

كما أن أهلها يتمتعون بالرحمة والحنان والحب والخير للناس ، حيث يقول:

دموعهم السخية ممزوجة بالرحمة والحنان

وعيونهم السود تنطق بمعنى الحب الأبدى، يرضون أنفسهم على حب الخير

للناس⁽²⁾.

وفي قصيدة (المدينة الصامئة)، يرسم صدوق لطولكرم لوحة فنية جميلة، حيث

يضيف عليها صفات معنوية ومادية، تعكس لنا صورة الحياة التي كانت في طولكرم.

حيث يقول:

المروجُ الخضراءُ تتنفسُ شعاع الشمس بملء أعشابها...

والعصافير الغريرة تترقرق حاملة، سعيدة.....

أما الحمامُ البيضُ في بيت جدتي، فإنها تتقر الحب، بينما يدلجُ

الفلاحون إلى مزارعهم وفي أيديهم الفؤوس العقفاء....

وهناك، حيث الأسلاك الشائكة،

الأسلاك التي تشطر السهل الفلسطيني اليانع إلى شطرين....

يعمل هؤلاء الفلاحون بحب، ونشاط، ولكن في صمت....

لأنهم في المدينة الصامئة⁽³⁾.

ويخاطب صدوق مدينته "طولكرم" طالباً منها أن تبقى شامخة مشرقة، فهي بلد

مباركة وطيبة. يقول في قصيدة "إلى طولكرم":

(1) صدوق، ديوان الحزن احضر دائماً، ص77

(2) المرجع نفسه، ص87

(3) المرجع نفسه، ص75

أُطلي على الكون... لا تغربي

تباركت من بلدٍ طيّبٍ...

تبارك فيكِ ضميرُ الحياةِ

وأفرخَ في روحكِ المخضبِ

ترامتُ، حوَاليكِ دنيا روى

ترف على أفقكِ الأرجبِ

وأهدتُ لكِ الطيرَ ألحانها

أغاريدَ من وحيكِ المعجب⁽¹⁾

ثم يباهي بها لأنها تتصف بالمجد والعزة والكرامة ولا ترضى بالذل والهون. يقول:
لكِ المجدُ لا تطرقي ذلّةً

تسامي على الأفق... لا تغربي

ولا يُرهبنك هذا الزمانُ

ونحن، حوَاليكِ، لم نرهـبـ...

فإن أسدلَ الليلُ أستارهُ

أُطلي على الكونِ في موكبِ

ففي وجنتيكِ شروقُ الحياةِ

وفي خافقِكِ صلاةُ نبِي! ⁽²⁾

ويشير إلى صمودها ضد الإحتلال، رغم نوائب الدهر ومصائبه. يقول:
صمدتِ على زرعِ النائباتِ

صمودَ كريمٍ، شجاعٍ، أبي...

ورويّت من دمكِ العبقريّ

سهولك، يا للثرى المخضبِ

قوافلُ من مهجٍ حرةٍ...

سفحت دماها على السبّسبِ

(1) ديوان، أمطار الحزن والدم، ص 77 .

(2) المرجع نفسه، ص 78 .

قرايينَ للعُرب.. يا للفساد..

ويا لخلود الدم اليعرُبي! (3)

يطلب منها أن تبقى ثابتة صامدة في وجه التيا رات العاتية والأمواج المتلاطمة،
حيث يشير هنا إلى عمليات التهجير اليهودية إلى الديار المحتلة. يقول:
وهذه دموعك لما تزل

تنزُّ على جفك الأهداب؟

أفيقي على الدهر.. يا طولكرم...

أطلي على الكون لا ترهبي!

فإن سلبوكِ ثراكِ الخصيب

وأخذوا على سهلكِ المعشب

وحطُّوا الرجالِ على أرضنا

وجاءوا بكل دخيلٍ غبي... (1)

ثم يبشر بالنصر القادم، إذ يقول:

فأنا سنلفظهم كالتَّواة

وليس لهم، بعدُ، من مهرب!

فإن أقبلوا في إهاب الأسود

لسوف يفرّون.... كالأرنب! (2)

وأما في المجال القومي فإن الشاعر لم يعد يكتفي بالتغني بالأمجاد كما كان يفعل
الشعراء السابقون، بل أخذ يدرس الواقع وينقده، ويتطلع للمستقبل في صدق والتزام
بقضايا الأمة العربية، ولم يعد الشعر القومي شعر مناسبة، بل أصبح الشاعر يكتب
هذا الشعر من منطلق التزام بقضايا الوطن التي هي قضاياها. (3)

(3) المرجع نفسه، ص78

(1) ديوان، أمطار الحزن والدم، ص79

(2) المصدر نفسه، ص78

(3) النجار، الجديد في الشعر الأردني، ص235

حيث يقول في قصيدة (دم الفداء):

يا مستعيرَ السيف من أسياده

ومُنَاطِحَ الهِجَاءِ وهو ملثَّمٌ

مستجدياً في الأرض تحلب ضرعها

بالسيف في أرض العروبة تُقَطَّمُ!

إنا بلونكم، فكنتم حيَّةً

رِقْطَاءَ تنهش في الظلام وتهزُمُ (1)

ويكشف صدوق للسائلين بأنه من مضر وينحدر من أصول عربية خالصة، فكل

العرب عاشوا في الصحراء وانحدروا منها، فهم من منبت واحد وصحراء واحدة

وتاريخ حافل بالجراحات والمعجزات. يقول في قصيدة "جموح":

أقول للسائلين الأهل: من مُضِرِّ

أخوكمو فيقول القوم: مَنْ مُضِرُّ؟

عشيرتي في عيوني فانظروا غضبي

ألست من لهب الصحراء أنحدر؟

عروبتني في جراحي فانظروا كبدي

تمورُ بالأحمر القاني وتتصهرُ

جمعتُ كل جراحي واستخرتُ دمي

فكان من معجزاتي النارُ والحجرُ! (2)

ويقول مؤكداً هذه الفكرة في قصيدة "عربي في روما":

ذكرتني نبضَ العروبةِ في دمي

ولقد نسيْتُ النبضَ في أوطاني (3)

(1) صدوق، الديوان أقطار الحزن والدم، ص11

(2) صدوق، ديوان رياح السنين، ص35

(3) المرجع نفسه، ص105

وهكذا يتبين لنا أن الجانب الوطني قد شغل مساحة واسعة من حجم دواوين الشاعر، وأنه جاء التزاماً عفوياً جياشاً في كل قصائده.

2.2 البعد الاجتماعي:

إن الجوانب الاجتماعية مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالشعر وبالأدب بشكل عام ، حيث أن الأدب يتداخل مع الدراسات الاجتماعية حتى أفرد له باب خاص عرف باسم (علم الاجتماع الأدبي) له دراسة الأعمال الأدبية وربطها بعوامل التفسير الاجتماعي المختلفة. ومن هنا فقد ارتبطت الدراسات الاجتماعية للأدب بالواقعية بوصفها اتجاهاً نقدياً يسعى لربط الأدب بالواقع الاجتماعي والسياسي والاقتصادي للمجتمع⁽¹⁾.

إن الشاعر لا بد أن يكون مرآة يعكس من خلال شعره الظواهر والجوانب الاجتماعية التي تحدث في مجتمعه ويكون له موقف يقوم على النقد الاجتماعي البناء الذي يعرض إلى الإصلاح والقضاء على مختلف العلل والأمراض الاجتماعية من أجل الرقي والنهوض بالمجتمع.

إن الشاعر الجديد يعبر عن قضايا الاجتماعية بدافع داخلي، وليس بدافع خارجي كما كان يفعل الشعراء في السابق ، فكثيراً ما كان الشاعر في السابق يكلف مثلاً بالحديث عن رعاية الأطفال في مناسبة أو احتفال ، فيتكلم كلاماً لا صدق فيه ولا حرارة، لأنه يشعر أنه غير مسؤول عن قضايا المجتمع الذي يعيش فيه⁽²⁾.

حفلت دواوين راضي صدوق بقدر كبير من القصائد الاجتماعية التي تناول فيها قضايا المجتمع فصور هموم الناس ومشاكلهم ، وما يعانون من أحوال الفقر والجوع والحرمان والظلم والاستبداد ، وتناول أيضاً الأمراض والآفات الاجتماعية والعلل في السلوك الاجتماعي من كذب ورياء وجحود وكراهية وحقد وغدر....

(1) العشماوي، محمد زكي الأندلسي وقيم الحياة المعاصرة، دار النهضة العربية، بيروت، ط 1 1980م، ص 177.

(2) النجار، الجديد في الشعر الأردني، ص 215.

وقد وقف صدوق موقفا صلبا رافضا ما يواجه المجتمع من علل اجتماعية مختلفة، ويتضح ذلك من خلال الظواهر الاجتماعية التي تناولها في دواوينه ومن أبرزها:

1. الجوع والفقر:

لعل أبرز الموضوعات التي تناولها صدوق في شعره الاجتماعي، مشكلة الجوع والفقر والحرمان، وما كان يعانيه الشعب الفلسطيني بعد اغتصاب الأراضي الفلسطينية. يقول في قصيدة "رماد يورق أزهارا":

نجوع؟

يا مواسم الربيع في بلادنا.... نجوع؟

يا خوابي الحصاد، يا بيادر الذهب!

وأنت في دماننا

جداول من الحنين واللهب؟

سيورق الرماد

لا بد يا ربيعنا الغريب

للتائه الغريب

من معاد⁽¹⁾.

لكن الربيع الذي يرمز فيه صدوق إلى الأمل الذي لا يخبو، سيحمل مع اخضراره بشارات الأمل بالخلاص، وذهاب شبح الجوع والحرمان اللذين يفتريسان الناس.

ويرفض صدوق أن يظل هذا الجوع مخيماً على الشعب الفلسطيني، كخيمة الليل الحالكة السواد، ويتساءل في استنكار رافضاً هذا الواقع. يقول:

إلام يظل هذا الجوع، مثل الليل، لا ترويه أنداء؟

ولا تقتل في أعماقه التتين؟⁽²⁾

(1) صدوق، الديوان بقايا قصة الإنسان، ص43.

(2) صدوق، ديوان النار والطين، ص22.

ولعل أفسى ما ينتفض له صدوق، وهو يواجه مشكلة الجوع التي عانى منها أهله، هي مأساة جوع الأطفال الأبرياء غير القادرين على احتمال شظف الجوع والضماً، وهو ينتفض أمام هذه المأساة ونجدها تلح عليه بصورة عفوية تلقائية في قصائد عديدة، حيث إنه لا يحتمل أن يرى طفلاً يقع فريسة الحاجة إلى لقمة خبز رخيصة.

إنه يكايستسلم، وهو يواجه مأساة الأطفال الجائعين فيحتر ماذا يفعل؟ وماذا يستطيع أن يفعل؟ أمام جبروت الحاجة وشظف الظروف ومأساة الأيام؟... إنه يعترف بعجزه ويعلن أنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً فيصرخ بكل ما في الإنسان المكافح من تحدٍّ، هاتفاً في توسل هو أقرب إلى الإدانة والاحتجاج والاستنكار للوضع الراهن الذي يعيشه، يقول:

أبيعك تاريخي وشعري وموقفي

بلقمة أطفال... فهل أنت قابل⁽¹⁾

ويكشف لنا صدوق في قصيدة هات خنجرك لأغرسه في ظهري" عن سياسة التجويع السائدة وهي سياسة تقوم على مبدأ الصمت مقابل الغذاء. حيث يقول:

فلا بد أن يضعوا الحجارة في فمك

إذا لم يستطيعوا أن يخلقوا فمك، بتجويع أطفالك!

أنت صوت الحق الذي لا يصمت

ارفع صوتك عالياً بكلمة الله⁽²⁾.

2. الصدق والوفاء:

تعدّ الصداقة من أثلل روابط التي تنشأ بين أفراد المجتمع وأنبلها، حيث تقوم على الحب والإخاء والوفاء بين الأصدقاء.

وعدت الصدقة القيم المثلى التي يتعارف عليها أفراد المجتمع ، فهي أكرم صورة من صور التكافل الاجتماعي بين الناس.

(1) صدوق، ديوان رياح السنين، ص 59 .

(2) صدوق، ديوان الحزن أخضر دائماً، ص 24 .

وقد تطرّق الأدب العربي، وخاصة الشعر عبر العصور إلى موضوع الصداقة، حتى لنجد كثيراً من الكتب التراثية في موضوع الصداقة والصديق، ولعل شاعرنا هو أحد الشعراء الذين تناولوا موضوع الصداقة في قصائد عديدة، حيث تحدث عن الأصدقاء في مواقفهم وتقلباتهم، وفي وفائهم وجحودهم.

ويؤكد صدوق في إحدى قصائده أن الصداقة أصبحت مرتبطة بمصالح فردية بين أفراد المجتمع في الغالب الأعم، فهي لا تقوم على مبدئها الصحيح الذي يدعو إلى الحب المجرد المنزه عن أي غرض ذاتي.

حيث يقول في قصيدة "يا سادة الحب":

وقد رأينا من الأيام ما عميت

به العيون وحرّ العقل والرشد

والناس كالدهرِ أغازٍ مطلّسة

ما أندرَ الخيرَ مهما يكثرُ العددُ

ترى الصديقَ صديقاً ما بذلتَ له

من ذاتِ نفسك حتى ينضبَ المددُ⁽¹⁾

وهذه المعاني التي تتطوي عليها هذه الأبيات هي معاني متداولة منذ القدم، لدى سائر الأمم والشعوب لكن كل شاعر يعبر عنها بطريقة وأسلوبه. وشاعرنا يستعيد هذه المعاني ويؤكد عليها من خلال تجاربه الخاصة في صراعه مع الحياة والناس، لكنه يضفي عليها طابعه الخاص، وهو يختصر تجربته مع كثير من أصدقائه بهذا الوصف:

مثلُ الفراشاتِ حولِ الضوءِ حائمة

ما دامت النارُ في المصباحِ تنقذُ!⁽²⁾

وفي قصيدتهات خنجر ك لأغرسه في ظهري "يشير إلى الأصدقاء، الذين

زرعهم فاقتلعوه!". حيث يقول:

وعندما تبلغ بهم مشارف الشاطئ

(1) صدوق، ديوان أمطار الحزن والدم، ص24.

(2) المرجع نفسه، ص25.

وتُنزلهم في أكرم المنازل،
أنظرُ إليهم تجدهم قد انقلبوا إليك،
وفي أيديهم خناجرُ الغدر
حمراء كلون الخطيئة في أحداقهم
سوداء كلون الحقد في قلوبهم
ثم ينقضون عليك⁽¹⁾

وتفيض نفس الشاعر بعلم المرارة، وهو يستعيد بعض فصول ذكرياته وتجاربه
مع الصداقة والأصدقاء، ويصف شراستهم وبشاعة ممارستهم عندما ينحرون
الصفا القنبيلة على مذبح المصالح والأعراض والأهواء النفعية الدنيوية الخاصة ،
يقول:

يمزقون جسدك إرباً إرباً....
ويلغون في دمك كالذئاب الوحشية.
يلعقون آخر قطرة بالأسنة حاقدة
ويهتفون باسمك بأخوة وحنان
مع كل طعنة خنجر يغرسونها في ظهرك،
يُسمعونك حكايةً من حكايات حبهام لك!
ومع كل مصةٍ من دمك
يدعون لك بالبقاء... والسعادة... وطول العمر!⁽²⁾
ويؤكد صدوق أن الصداقة مبدأ من المبادئ والمثل العليا التي تقوم على الحمية
والإخاء فهو يدافع عن هذا المبدأ حيث يقول:
ها أنت الآن وحيدٌ معلقٌ في الفراغ
ليس معك من سلاحٍ سوى قنديل المبادئ التي ناضلتَ من
أجلها..⁽³⁾

(1) صدوق، ديوان الحزن أخضر دائماً، ص23

(2) المرجع نفسه، ص24

(3) المرجع نفسه، ص27.

ونراه يتسامى عن عاطفة الحقد والرغبة في مواجهة الشر بالشر، والجحود بالجحود، والخيانة باللغة، بل نراه يترفع عن ذلك ويزيد على ذلك بالدعوة إلى مقابلة الطعنة بالابتسامة، يقول:

وإذا رأيت خنجر صديقك، يغوص في شغاف قلبك
حذار أن يرجف لك قلب أو يرعش جفن.....
من حق الصداقة عليك أن تمنحه الفرصة ليمتحن قوته فيك!
وإذا التقت عيناك بعينه
وتسمرت نظراته بنظراتك،
أغدق عليه كل معاني الوفاء والحنان
حذار أن تجعله يشعر بالندم أو الخيانة
بل شجعه على أن يدفع بنصلة خنجره في صدرك أكثر وأكثر...
أعمق..... وأعق⁽¹⁾.

والشاعر، في هذا السياق يتحدث عن الوفاء عند الأصدقاء حديث العارف
المجرب الخبيوهو يصف مواقفهم في حالي الإقبال والإدبار، والعسر واليسر،
والفقر والغنى، والضيق والفرج، إذ يقول في قصيدة "أمانيك يا دنيا"، مخاطباً الدنيا
ذاتها:

أمانيك كالصحب الآلي يجحدوني
وينأون عني كلما حلّ نازل
لقد كان لي في الناس أهل وأخوة
وكان لنا ماضٍ... وكانت شمائل
أضأت لهم روعي وفاءً ونخوة
وغنيتهم شعري وما أنا قائل
أشاحوا مع الأيام في راد الضحى
ولم يحفظ العرفان إلا القلائل

(1) صدوق، ديوان الحزن أخضر دائماً، ص28

وقد كان فيهم من يُرجى وفاءه

إذا عزَّ عند البأس شهْمٌ وفاضل⁽¹⁾

3. الظلم والاستبداد:

ومن أهم القضايا الاجتماعية الأخرى التي تناولها صدوق ما كان يعاني منه الشعب من أنواع الظلم والاستبداد في ظل الاحتلال الصهيوني. يقوم الظلم على صور متعددة منها : الإذلال، وسفك الأرواح البريئة من أجل أن يلهو الملوك و السلاطين! حيث يقول صدوق في قصيدة "لا تصلبوه":
يا سيدَ الآمي.....

عفواً

يا سيدَ كل الآثام.

ذُقْ معنى الإذلال ولو مرة

معنى أن تتسحق الأرواح الحرة.

معنى أن يتعذب إنسانٌ

لا ذنبَ سوى أن يلهو سلطان!⁽²⁾

والشاعر إذ يتوجه إلى السلطان بعد أن خسر مقعده وفقد سلطته وقوته، مذكراً إياه ببعض ما اقترفت يده من آثام لا يجمع به الأمل إلى أن يحسن الـ ظن بإمكان أن يعود هذا السلطان الآثم الظالم إلى رشده، ويغير من نظرتَه إلى الأمور وتعامله مع الناس، لأنه فطر على هذا النوع من البطش والتحكم بـرقاب العباد . يقول بقصيدة هذه:

لكنْ

هل يخفقُ للظالم قلب؟

هل تنبض في أعماق الحقد ينابيعُ الحب؟

هل يقوى الألمُ الخالدُ أن يغسل كل الأدرانِ الخرساء؟⁽³⁾.

(1) صدوق، ديوان رياح السنين، ص88.

(2) صدوق، ديوان النار والطين، ص78.

(3) المرجع نفسه، ص79.

وينتقل صدوق من ظلم السلطان إلى ظلم الزمان ... لكأنما هما صادران من نبع واحد... وهو لا يجد مجالاً أرحب وأنبأ من مجال التعاطف مع الأم الثاكلة والأمومة المفجوعة للحديث عن ظلم الزمان . ولعل قصيدته "إلى أمي" تعبر أصدق تعبير عن هذا الشعور، حيث يقول مخاطباً أمه الفاقدة لولديها.

أراك تتوحيين نوحَ الثكالي

على أخوةٍ في الثرى غُيِّبِ

وتبكينَ ظلمَ الزمانِ الجحودِ

وقومك لاهون في الملعب

فيا أم هذا شبابي إليك

يفديك من كل جانٍ غبي (1)

4. الأمراض الاجتماعية:

توقف صدوق عند الكثير من الأمراض والآفات الاجتماعية السائدة في المجتمع ومن أبرزها: الجهل، والمكر، والخداع، والكذب والجحود ، وتغلب الجانب المادي على الجانب الإنساني وانقلاب القيم والموازين الاجتماعية. ويناقش صدوق هذه الأمراض ومنها الكراهية والرياء والحقْد الذي ينتشر في المجتمع، حيث يقول في قصيدة "مضى العمر":

فلا بسمهُ الأحابِ فيها طهارةُ

ولا ضحكةُ الخلان بالحب تعمرُ

يُعانقُك الخلُّ الحبيبُ مرأياً

وفي قلبه الحقْدُ اللئيمُ يزمرُ

يمد لك اليمنى بحبٍّ ولهفةٍ

وينظرُ في يسراه نحوكَ خنجرُ

ألا ضاقت الدنيا بعيني، فكلمنا

أخلقُ في الآفاق تطوى وتصغرُ (2)

(1) صدوق، ديوان أمطار الحزن والدم، ص30.

(2) صدوق، ديوان الرياح السنين، ص104.

ويعري صدوق مظاهر الزيف والكذب والرياء والخداع المتفشية بين القطاع
الأكبر والأوسع من الناس في المجتمعات الحاضرة، وبخاصة في بلدان العالم
المتخلفة، وهو لهذا لا يذهب مع أي توهّم بأن الخير كامن في الناس كلهم خصوصاً
بعد سلسلة طويلة من تجاربه معهم. يقول:

حنانك لن تبكي عليك العواذلُ

أبيكي على قبر الضحية قاتلُ؟

توهمت أن الحب في الناس فطرةٌ

وأن سواد القلب وهمٌ وباطلُ

وعانقت حتى الحقد طيَّ ضلوعهمُ

فما ابتسمت عينٌ ولا جادَ باذلُ

فكم من نفوسٍ كنت برءاً لجرحها

وكم من فؤادٍ يائس بك أملُ⁽¹⁾

ويلح صدوق، على هذه المعاني المستوحاة من معاناته الطويلة، في أكثر من
قصيدة وفي مراحل وأزمنة شتى متباينة في مسيرته الـ حياتية والشعرية. وهو يؤكد
هذه المعاني في قصيدة أخرى عنوانها "لحظة النشوة... لحظة السقوط":

لا..... لا

الخدیعة لا تجرح القلب الكبير

الغدر لا يدمي مقلة النسر

الخداعُ ضعفٌ، ومذلةٌ، وغباء...

الأقوياء: لا يسبحون في السباح، الموحلة، الكريهة....

فوق ضفائرِ النور ترجفُ أجنحتهم بكبرياء

من قال أن عين الشمس تُرمدها سحابةٌ سوداء؟!⁽²⁾

ويؤكد صدوق بأن الغدر ليس من شدة يُلرّجال فهو من آفات المجتمعات الخطيرة
حيث يقول في قصيدة "دم القلوب":

(1) صدوق، ديوان الرياح السنين، ص83.

(2) صدوق، الحزن أخضر دائماً، ص53.

غدر الوفاء فما أبالي..... ما الغدرُ من شيم الرجالِ
نمضي على دربِ الجراحِ نخوضُ معتركَ النزالِ⁽¹⁾
وفي قصيدة "هات خنجرك لأغرسه في ظهري" يشير صدوق إلى أمراض
اجتماعية منها: "الكذب والرياء والجحود، وغياب الإخاء والصدق منكرات تلك
الصفات البشرية الخبيثة. حيث يقول:
لا تكن ساذجاً وتطلب الوفاء
نحن في زمن الخواء والكذب والجحود
لا تكن ساذجاً وتسأل عن الإخاء
نحن في زمن يكاد يتنكر فيه الجنين للرحم الذي آواه ، وحننا عليه ، ودفع به إلى
الحياة!
وإذا أردت أن تكون صادقاً وفياً مع الله ، وفي الله فامنح نفسك الله وشعارك :
الصمتُ والنسيان⁽²⁾.
وإذا كان صدوق قد تناول الأمراض والآفات الاجتماعية، إلا أنه في المقابل
تناول الصفات الحسنة الطيبة التي تنفّس في مجتمعه، فكل مجتمع له حسنات
وسيّئات.
ومن هذه الصفات الحسنة "الرحمة، والعطف، والحب، والنبيل، ومكارم الأخلاق،
والتسامح، والعفو، والصفح عن الآخرين، حيث يقول في قصيدته "المدينة الصامته":
هذه المدينة الصامته.....
سهولها خضراء تمنحُ ولا تأخذ
أمامها تمتد زرقَةُ السماء
صافيةً حزينة
بعيدةً عن العالم، بقدر قربها منه
إنها نبيلة لأنها صامته، ولذلك أهلها نبلاء يتمسكون بمكارم الأخلاق⁽³⁾.

(1) صدوق، ديوان رياح السنين، ص24.

(2) صدوق، ديوان الحزن أخضر دائماً، ص26.

(3) المرجع نفسه، ص77.

ويتابع ذكر هذه الصفات حيث يقول:

يغفرون لمن يسيئون، ويصفحون عن الزلّة والهفوة
ويغسلون ما علق بالناس من وحل، بما وهبهم الله من نقاء⁽¹⁾.
ويقول أيضاً:

دموعهم السخية ممزوجة بالرحمة والحنان
وعيونهم السود تنطق بمعنى الحب الأبدي ، يروّضون أنفسهم على حبّ الخير
للناس⁽²⁾.

3.2 البعد الوجداني:

1.3.2 الغزل "المرأة":

الحديث عن الحب حكاية قديمة قدم الإنسان على ظهر الأرض، بل قبل أن تطأ
قدماه أديم هذه البسيطة أيام لم يكن سوى فكرة خطرت بخاطر الفنان الأعظم،
وأوحى إلى مخترعها الثغر في وجه آدم الذي علقت نظراتها بنياط قلبه فهو
منها تحركه طينة تكوينه الأولى ولكن حواء - ولم تمر في مدرسة للفنون والفتون -
فرت من أمامه زيادة في الأغراء ، يرى نفسه وإياها إلا على سطح البسيطة ينشد
سوء طالعه - الشقاء التي ليس أسعد منها، وأغنية العذاب التي ليس أهنأ⁽³⁾.
أن الحب ليس قوام الحياة البشرية وحسب، وإنما هو ذلك التجاذب الذي يربط ما
بين سائر الكواكب بعضها إلى بعض وأن الحب شرعة أولية من شرائع الدين وأن
علة الوجود الأولى رمز الحب السرمدي أضحت العلاقة ما بين العاشق والمعشوق،
والمحب والمحبيب نفحات من أرقها ما جاء على لسان أحمد شوقي الذي رفّع الحب
هيكلاً علوياً وبعداً سماوياً⁽⁴⁾.

(1) صدوق، ديوان الحزن أخضر دائماً، ص77.

(2) المرجع نفسه، ص78.

(3) صدوق، راضي: الديوان (كان لي قلب) ، مقدمة قدرتي قلعجي، ص7.

(4) صدوق، ديوان كان لي قلب، ص10.

حيث يقول:

صوني جمالك عنا إننا بشرٌ

من الترابِ وهذا الحسن روحاني

أو فارتقي فلماً تأوينه ملكاً

لا تُتصبي شركاً في العالم الفاني⁽¹⁾

وتبارى الشعراء الأردنيون في الغزل الذي هو مرحلة من مراحل التفتح بصورة لافتة للنظر، لأنه شعر النفس الإنسانية والتجربة الشخصية المباشرة المتسمة بالحدة والحماسة والحرارة والفطرة والتأثر الداخلي والإحساس العاطفي والذوق لا الفكر، والشاعر الحقيقي ذو نزعة إنسانية عاطفية ذاتية ممزوجة بنظرة عالية ، وكان الشعر الغزلي الأردني فسيح الآفاق متعدد الجوانب يضمن اللوعة والشوق والتعطف والصد والحرمان والاستمتاع بالحياة واللذة والوصال والإباء⁽²⁾.

ومن الشعراء الأردنيين الذين اهتموا بالغزل (شاعر راضي صدوق)، إذ نجد مجموعة كاملة له نذرهما لحواء، وحواء وحدها التي قسا عليها مرات واستدر عطفها مرات، تبعا لما بادلته من عواطف وما استدرجته إلى مجاهل السراب ... فكشفت لنا هذه الصفحات عن تجربة مرة نعتقد بأن الشاعر قد عاشها وما زال يحياها.

ويقول كي المحاسني في قراءته ديوان كان لي قلب : "أن قصائد صدوق الأولى في المرأة والحب هي في معانيها ونظراتها من طبائع الشعراء في صدور حياتهم، تظل أعينهم شوارت وقلوبهم خوافق، وأنفاسهم تُصعد الزفير وبأيديهم أقلامهم، يرفعون رؤوسهم إلى العلاء، يستمطرون الإيحاء من عوالم بعيدة شاردة ثم ينكبون بين الفينة والأخرى على القرطاس، يخطون بيتاً أو بيتين، ثم يعاودون الكرة مثل طيور واقفة على مهادٍ منثورٍ عليها الحب تلتقطه مناقيرها الحين بعد الحين"⁽³⁾.

(1) شوقي، أحمد: الشوقيات، ط1، دار الكتاب العربي، بيروت، 1986، الجزء الأول، ص146.

(2) شهاب، أسامة صحيفة الجزيرة العربية، ط 1، منشورات وزارة الثقافة والتراث القومي، عمان، 1988م، ص111.

(3) محاسني، زكي: المعرفة، مجلة ثقافية شهرية، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، حزيران، 1963م، ص148.

ويقول أيضا: "وإذا لم أبارح كلمة الحبّ، فإنّي واجدُهما تموج في الديوان كله - ديوان كان لي قلب - فتنتطلق في كل قصيدة، وتريد أن تنزل كل بيت وهي حاملةُ الأسى وببيدها مشعلٌ منطفئٌ حاجته الـ رياح، وهو في شعره يكرّر ذكر حواء في أبيات ومقطعات رامزاً بها للمرأة من العجب أن تسيطر على صدور ق فكرات غابرات من الجنة الأولى"⁽¹⁾.

ثم يكمل: "حتى عدّته قد مارس نكبةً في فؤاده نزل بها من سماء الحب إلى دنيا الهجران والقطيعة، فأهوى معه بقصة آدم وإيليس، وجعل يمارسها في شـعره ويُندّي بها تعاشيب خياله، ثم لستُ أعجب حين أجده كتب خمس قصائد سمّي كل واحدة منها رسالة، وهذه الرسائل الخمس من أجمل شعره في باكورته، فإنّ أوزانها كانت مُمهّدة لما فيها من خواطر وهواجس، وعلى لمحاتها ترى تصاوير روحية، وأجد روح هذه الأنغام عند ألفريد دوموريه في لياليه الأربع، بديوانه الذي سمّاه (الأشعار الأولى)". ولقد فرغت من النظرة بهذه المجموعة من شعر راضي صدوق فأمنت بها أنه شاعر، ورأيتها ليست ديوان شعر، وإنما هي مأساة نفسية يمور لهيبها في قلب صاحبها فيطلع أبياتاً وقصائد كلها فيض ألم وعتاب، وتبيانٌ لإرهاق روح جريح وجد في الشعر العزاء والوفاء، وديوان كان لي قلب"، "جميعه صدى صوت عميقٍ ما زال يصرخ من ألم خيانة المرأة، ومن الحبّ، وانسكاب الحشرات عليه"⁽²⁾. ومن خلال متابعة شعر صدوق في المرأة والحبّ، والوجدانيات عموماً، عبر جميع المراحل في مسيرته الشعرية، نجده أسير هذه النظرة القديمة التي عبّر عنها وجسّدها في ديوانه الأول كان لي قلب " الذي ضمّ بواكيره الشعرية التي كتبها وهو دون العشرين من العمر، ولعلّ ذلك يعود إلى أنه خلال تجاربه الحياتية لم يُصادف في-إطلائته الأولى على عوالم الحبّ والمرأة - المحبة الصادقة الوفية الخالصة للحب بقلّ وروحاً ووجداناً، وقارئ شعره في هذا المجال عبر مراحل المتعاقبة، يجد فيه الحملة الضاربة على المرأة، ويجد أحياناً الهجاء المرّ، وفي أحيان أخرى يجد

(1) محاسني، المعرفة، ص149

(2) المرجع نفسه، ص149-150

القسوة والحدّة والترفع عن دنيا النساء الجاحدات القاصرات للهنم و إلى مرتقى
الحب الذي ينشده.

وقد سألتها، عن سرّ هذا الموقف القديم الجديد المتجدّد، الذي لم يتغير من المرأة
كمحبوبة معشوقة أو مُحَبَّة عاشقة، فقال : "إن هذا الموقف ليس مُفْتَعلاً، أو مُتَعَسِّفاً
ظالماً، أو مبالغاً فيه، لي قصائد تُمجّد الأمومة والتضحية والحنان في المرأة، ولكن
المرأة الطبيعية الأصلية الصادقة التي لا تخرج من إطارها وتتمرد على ذاتها،
وتنتكر لفطرتها وتتخلى عن رسالتها، أمّا ما غير هذا النوع من النساء فهنّ هدف
قصائدي التي يرى البعض أنها تُعبّر عن سخط من المرأة وغضب منها وعليها،
وربما تتطوي على درجة عالية من الجدّة والحمة والقسوة عليها والإدانة عليها"⁽¹⁾.

إن في حياة صدوق تجارب كثيرة، مؤلمة ومؤسفة وموجعة ومخيبة للأمل، عبر
مراحل حياته كلها، مع الحب والعاطفة والمرأة، لقد ارتبط بعلاقات عاطفية مع
أسماء لامعة وكبيرة في عالم الأدب النسائي، وبعض صواحب هذه الأسماء كان له
دور في نضجهن الأدبي والحياتي، كما في رعايتهن وتشجيعهن وتحقيق الشهرة
لهنّ.

ونستطيع أن نجد الكثير من القصائد، في دواوينه الشعرية المتعاقبة، تُعبّر عمّا
"لاقى" من هذا الصنف من النساء الجاحد النكور. يقول :

أَذْهَبِي لَا رَدَّكَ إِلَهٌ أَذْهَبِي

وَأَغْرُبِي عَنْ عَالَمِ الطُّهْرِ أَغْرُبِي

أَنْتِ بِنْتُ الرَّجْسِ يَا خَائِنَتِي

مُنْذُ أَنْ عَشْتِ بِقَلْبِي الطَّيِّبِ

شَرِبْتُ عَيْنَاكَ دَمْعِي وَدَمِي

وَتَمَرَّغْتَ بِرُوحِي الْمُخْضَبِ⁽²⁾

(1) مقابلة شخصية مع الشاعر بتاريخ 2008/2/2م

(2) صدوق، ديوان كان لي قلب، ص95.

ويقول صدوق في قصيدة أخرى:

أَتَقْسِمُ بِالْحُبِّ؟ وَالْحُبُّ وَهُمْ

كَفَرْتُ بِهِ وَاسْتَبَحْتُ الْحُرْمَ

وَلَطَّخْتُ بِالرَّجْسِ طَهْرَ الْحَدِيثِ

وَدَنَسْتُ كُلَّ مَعَانِي الْقِيَمِ

هُرَاءُ دُمُوعِكَ لَا تَسْتَرِدُّهَا

وَحَلَّ الْبُكَاءُ وَحَلَّ الْأَلَمُ

فَتَلَكَّ مَعَانٍ لَهَا قُدُسُهَا

حَرَامٌ يُدْنِسُهَا مَنْ ظَلَمَ⁽¹⁾

فالعنوان ينطوي على الكثير من المعاني والإيحاءات التي تتم على حقيقة تجربة الشاعر العاطفية، حيث تمتزج أشواق الحنين بلوعة الفراق ومرارة الذكريات. وقد نشعر، أحياناً، ونحن أمام هذا العنوان كأن لي قلب " بأن الشاعر يطوي قلبه على تجربة مريرة قاسية مع المرأة، منذ مطالع حياته، فليس سهلاً أن يكون عنوان ديوانه الأول بهذه التسمية، التي تضم مجموعة من بواكيره الشعرية الألى أيام كان دون العشرين من عمره، نحس ونحن نقرأها أننا أمام جمرات لاهبه، متوقدة، تفصح عن تجربة حارة، اشتعلت نارها في قلب الشاعر، ثم مست شغافه، وحركت سكينته، ثم خفتت شيئاً فشيئاً لتنتهي إلى هذه العناقيد من الشعر، يقول:

كان لي قلب وذابُ

وتوارى في الترابُ

كان لي قلب مع الأيام خافقُ

وشباب بالدم المشبوب دافقُ

كم مضى كالحالم النشوان يستاف دموعي

نابضاً - كالموجة العذراء - ما بين ضلوعي

ويحَ قلبي... فهو لا يرحم بؤسي وخضوعي.

وإذا صليتُ... يسلوني، ويغتال خشوعي

(1) صدوق، ديوان النار والطين، ص90.

ليته يذهب... هذا القلب... من غير رجوع!⁽¹⁾
ونراه يكشف في قصيدة أخرى، عن مكنون قصته مع حبه الأول، إذ يقول:
عبثتُ حواء في مهجته

فاكتوى المسكين من نار لظاها

كم مضى يرتاد في أهوائه

أنجماً يرتشف الليل ضياها

كم مضى والدمع في آفاقه

يقطعُ القفر، ويرتاد المتاهة⁽²⁾

وعندما نحاول أن نتعرف إلى ملامح المرأة التي يؤثرها صدوق، وهو شاب
دون العشرين، فهو يحب الأهداب السوداء، والجديلة الفاحمة المرسلة، والشفة
الحمراء القرمزية التي تكاد تعرب عن نفسها، ففي قصيدة "رموش طوال" يقول:
خيطان مضطربان من ليل

ناران تلتهبان من حولي

أخشى على عيني حرهما

أخشى العيون السود في الكحل

يستنزفان الموت من كبدي

وإذا شكوت الجرح يا ويلي!

ولقد عبدتهما... وما غفرا

أتراهما والعفو في حل؟

إن يحببا عينيك عن نظري

حسبي أهوم منك في الظل!⁽³⁾

(1) صدوق، ديوان كان لي قلب، ص 107

(2) المرجع نفسه، ص 25-26.

(3) المرجع نفسه، ص 94.

أما الجديلة فعلى الرغم من أن الشاعر أرادها باعثاً من بواعث الأمل فقد قامت
في خياله طاقة من الدجى وليست حزمة من النور حيث يقول في قصيدة : "إلى
جديلة":

في خاطري تأرجحي

وحيثما شئتِ أمرحي

وغازلي الكتفين....

ثم استرسلني.... ولوحي

ونادني إلى الهوى

يجبك مني مطمحي

يا باقةً من الدجى

تهدلي... لا تستحي!!⁽¹⁾

وأما تلك القرمزة الحمراء -الشفة- فهي تذكرة بلون دمه، وحرارة تجربته
مع حبيبته، فيستنير طوية نفسه ما كان من تجربة قاسية معها، ثم عدم مبالاتها
به وبجراحة بعد انف صام العرى التي كانت تربط بين قلوبهما، لكنه يقابل هذا التجاهل
وهذا الانتهاك بالرهان على المستقبل⁽²⁾، يقول في قصيدة "إلى شفة":
أضحكين... كلما...

بكيتُ من مرارتي؟

أسمحين للردى

يجوسُ في حشاشتي؟

تبسمي.... وفهقهني...

ففي غدٍ يا طفلاتي!

أكون في ذرى العلى

هناك فوق القمة!

(1) صدوق، ديوان كان لي قلب، ص35.

(2) المرجع نفسه، ص12.

وأنت في دجى الأسى

مقرورة... كالقطة!!

فحاذري أن تسخري

يا أنت... يا صبابتي! (1)

على أن تلك الهرة المقرورة المقهورة ظلت سيدة الموقف من حيث شاء الشاعر
أم لم يشأ، وهل أفصح لمخاتلته نفسه من هذا القول رغم أنه قيل على سبيل التهديد:

فحاذري أن تسخري

ثم هل أدعى إلى الاستعطاف من التهديد الذي يأتي صاحبه من حيث لا يدري:

يا أنت..... يا صبابتي!

ومثل هذا الموقف نجده في قصيدة "تجاهل" التي يقول فيها:
أجهلين من أنا

وكيف كان حُبنا

ألم نكن عبر الدجى

وكنت لي كل المنى

نسير في سذاجة

هناك. خلف المنحنى

سلي عيوننا فكم

تمازجت دموعنا

سلي الرموش كم ضحى

تهامست كأنا

شحوررتان في الربا

لا تعرفان ما الغنا

(1) صدوق، ديوان كان لي قلب، ص113.

أتذكرين خافقي

وقد أصاخ موهنا؟

تذكرني أحلامنا

فقد ترف حولنا

وحاذري أن تجهلي

فأُسننا يعرفنا.... (1)

وتحدث صدوق عن أسباب حبه لتلك المرأة، وذلك لما فيها من صفات حسنة، إذ إنها إنسانة، حسناء جميلة يزيد بها الطهر والإخلاص جمالا، يقول في قصيدة "الرباط المقدس":

أحببتها لأنها إنسانة

ندية كالزهرة الفينانة

فقلبها الخفاق لا يجتوي

من تلهب الأيام أحرانه

طويتها في القلب أغرودة

غزيرة الإلهام مرنانة!

حورية، يا حسناتها فتنة

بالطهر والإخلاص مزدانة

قد آمنت حقاً بأن الهوى

أنشودة الأفئدة الحيرانة! (2)

هذه هي صورتها في عينه، أيام كان يحترق بنار حبها، إنه يضيف عليها كل الصفات النبيلة الكريمة ... ونراه يلح على هذه المعاني والصفات التي تتميز بها الحبيبة في قصيدة "من وحي اللقاء الأخير" التي يستذكر فيها حلاوة أيام حبهما. يقول:

(1) صدوق، ديوان كان لي قلب، ص11.

(2) المرجع نفسه، ص58.

جميلةُ الروح... والأحلامُ صافية

كالنبع، خالصةً: روحاً ووجدانا!

رحيمة القلب كالعصفور... حالمة

غنثه سقسقة الوادي فعنانا! (1)

والقارئ لقصائد الغزل في ديوان كان لي قلب "يستطيع أن يستشف من بين السطور أن ظروفه الحياتية القاسية كان لها دور كبير في تعكير صفو علاقته الوجدانية، أو لنقل تجربة حبه الأول.

فقد أثقلت الحياة كاهل الشاعر قبل الأوان، ولم تكد براعم حبه تتفتح كؤوس أكمامها في أنفاس الربيع حتى داهمتها رياح الشتاء الجلدية ولم تعد تمثل من الربيع سوى حضور طيفه في دنياه، وما ذلك الحضور غير الذكرى... ذكرى نقرأ فيها الختام من وحي اللقاء الأخير " ولا نعرف طيف الحبيبة ويطلب من الطيف أن يحدثه عن الأسى والماضي وذكرى الحبيب. يقول في قصيدة "أحلام":
أيها الطيف لماذا تنتثي؟

نحن روحان بليل منتن...

هات حدثني عن الأمس الذي

لم يزل يمتص حتى بدني!

إنني كنت خيلاً... عابراً...

طاهر القلب، فهل تذكرني؟ (2)

ويسترسل في مناجاة هذا الطيف الحبيب، بعواطف غائمة وتهويمات مناسبة ممزوجة بالمسحة الصوفية (3). حيث يقول في قصيدة "أحلام":
أي طيف جاءني مبتسماً

راعش الوجدان يمضي قدماً

(1) صدوق، ديوان كان لي قلب، ص 59.

(2) المرجع نفسه، ص 13.

(3) عطيات، محمل الحركة الشعرية في الأردن تطورها ومضامينها (1921-1967م)، الجمعية العلمية الملكية، عمان، ص 459.

ينفضُ الأحلامَ عن مقاته

ويغذُّ السَّيرَ نحوي حالما

كلما نادتهُ رُوحِي للقا

راح يَرتاد بروحي الأنجما

مدَّ لي راحته في ذلَّة

وأَتاني في خُشوعٍ وانحنى

قال لي: هل تذكرُ الحبَّ الذي

شجَّ قلوبنا ولم يحفل بنا⁽¹⁾

ولعل هذه القصيدة التي يدور فيها صدوق بين اليقظة والحلم، أكثر قصائد ديوانه كان لي قلبتصويرا لقصة حبه الأولى، وتعبيرا عنها، إذ تظل تذكاراته لأيامه معها مغلفة بظلال من الحزن الشفيف تماما كما كانت هذه الظلال الحزينة ترافق تجربة حبه بدايتها وظلت تلازمه إلى ما بعد نهايتها . ولعلنا نلاحظ هذا الحزن، من خلال روايته الهادئة الحاملة المتأسية، لخطرات طيف الحبيب التي تلم به، وتقطع عليه سكينته، يقول:

بينما كنتُ حزينا محرقا

هكذا أرنو لأمسي مُطرقا

جاءني الطيفُ يواسي وحشتي

ينفضُ الآلامَ عني مشفقا!

بعث الذكرى بقلبي، بعدما

ولَّت الذكرى وعفَّ المُلتقى

قال لي: هل تذكر الماضي وهل

تذكرُ العصفورَ لما زقزقا؟⁽²⁾

(1) صدوق، ديوان، كان لي قلب، ص45.

(2) المرجع نفسه، ص46.

لكنه يستفيق مع نهاية الفصل الأخير من تجربته الحلوة والمرّة معا، ويعود إلى نفسه فلا يرى فيها إلا أنه لم يعد سوى جثة هادمة حطمتها الذكريات والأحزان ، يقول:

لم يعدْ يا طيفُ إلا جثةً

أنثرُ الدمعَ على أشلائه!

حطمته ذكرياتٌ نسجت

بيدِ الآلامِ من سودائه...

وأنتِ يا حواءُ في ركب الهوى

تسكبُ الهجرانَ في أحشائه

فإذا القلبُ صريعٌ ذابلٌ...

بلسمي يحترُ في أدوائه!! (1)

لكن صدوق مثله مثل سواه ممن فجمعوا بتجربة حبه الأول، لا يمكن أن ينسى لحظات الجمال والهناء والسعادة التي عاشها في حبه الأول قبل أن تجنح شمسُه إلى المغيب، ويستريح في نهاية التذكار والحلم إلى رواية "حكاية" حبه الأول برومانسية شفيفة حاملة، لعلها أصدق ما تكون تعبيرا عن عواطفه ووفائه لهذا الحب الغارب.

يقول في قصيدة "حكاية":

على الدروبِ التقينا

وعانقنا الأمانِي

نمشي الهوينا الهوانيا

على رفيف الأغاني

الفجرُ وافي إلينا

وضمنا في أمانِ

فمن شذاه انتشيننا

ومن شذى الأقحوانِ

(1) صدوق، ديوان كان لي قلب، ص46.

لقد أتى وأتينا

مع الطيوف الروابي

فجران بين يدينا

جداول من حنان

فهل ترانا التقينا

كما التقى عاشقان؟⁽¹⁾

ولعل من واقع تلك الذكرى ميلاد قصيدة "سأتي غدا"، التي ينطلق فيها الأمل بعيدا بعيدا، ويكون فيه اللقاء الذي ما بعده فراق، حيث يقول⁽²⁾:

على شفتيَّ

أغانٍ تدوبُ

وفي خافقي

احتدام رهيب

غدا سوف يونع

ثغري الجديب

وراء المدى

غداً نلتقي

وراء السحبِ

كضوءِ الشهب⁽³⁾

ويلوح للشاعر من وراء الأفق نجم جديد، يهل نورا حارقا هاتكا ستار الليل، هاديا للقلب الحائر، فيختلج القلب ويستعيد نبضه ويعود إلى أحلامه وآماله من جديد. يقول في قصيدة "نجم جديد"⁽⁴⁾:

(1) صدوق، ديوان كان لي قلب، ص106.

(2) المرجع نفسه، ص14.

(3) المرجع نفسه، ص27.

(4) المرجع نفسه، ص19.

أشرقَتَ يا نجمُ في رُوحِي وأحلامي

ورحتَ تنفضُ عن جنبيَّ الأُمي!

كأن رُوحَكَ ما زالت تعانقني

وهمسُكَ العذبُ، يُذكي قلبي الدامي

من أين أشرقَتَ، قل لي إنني أرقُّ

لم يحضنِ الليلُ في أحشائه هامي!

ولم أزل أطلق الأشعارَ ساجيةً

تنسابُ في لحنها المشبوب أيامي

أضعت عمري في لهوي وفي عبثي

متى يعودُ لروحي بعضُ إلهامي؟! (1)

وظهر عند صدوق لون جديد من ألوان الغزل، وهو الغزل المرتبط بالشكوى من المرأة وفقدان الثقة بها، وحمل هذا الشعر الثورة على النفاق في الحب والعتاب المر للحبيبة على انتها للعهود واتخذ شكل الدعابة ومناكفة النساء ووصل إلى حد إقامة الدعوى أمام المحكم ضد سحر المرأة وسطورة جمالها . يقول صدوق في لحظة يأس من الحبيبة مطالبا بأن تغرب عن وجهه (2) في قصيدة "لا ردك الله":
أنتِ إلهامي؟ وما أنتِ سوى

كوكبٍ كان... توارى وهوى

أنتِ أكذوبةٌ عمرٍ ضائعٍ

لحقَ القلبُ خطاها فغوى

كنت حلماً عابراً في خاطري

عبرَ الدهرُ عليه وانطوى

فإذا الحبُّ الذي كنا به...

دمعةٌ تنزفُ من عين الجوى

(1) صدوق، ديوان كان لي قلب، ص83.

(2) عطيات، الحركة الشعرية في الأردن تطورها ومضامينها (1921-1967م)، ص489.

قد نسيْتُ الأَمْسَ واليَوْمَ، فلا

تعذّليني... إنه شرعُ الهوى⁽¹⁾

ولعلنا نستشف من هذه الأبيات مدى غضب الشاعر وسخطه، مما لقيه من حواء هذه حتى أنه يجنح إلى هجائها وتقزيم صورتها، ويصفها بالأكذوبة والحلم العابر، معزياً نفسه عن سلوكها بإدعاء النسيان.

ومن عتمة هذا اليأس ومن دياجير ذلك القنوط، كانت آراء الشاعر وخواطره حول حياة والوجود والمجتمع ظلامية قاتمة موعلة في التشاؤم⁽²⁾، حيث يقول في قصيدة "خاطر":

زعموا إنما الحياةُ خلـودٌ

وهي في خاطر الهوى أمسية

يتلاشى الوجودُ في كبد المبهـم

كالظل في الرحاب السنية

إنما الأرضُ دميةٌ تتلـوى

فوق نيران قبضةٍ ذرية

أين منها الخلودُ وهي ضبابٌ؟

ليس في الأرض ليلةٌ قمرية

فاجثمي يا حياةً في قبضة الموت

وتيهي، فلست للأزليـة!⁽³⁾

فهو في هذه القصيدة، أقرب إلى الفيلسوف الحكيم المتأمل منه إلى العاشق الذي يستذكر تجربة دموع التجربة وعذاباتها بروح المفكر المتأمل في الحياة والناس.

ورغم ما عرف به الشاعر في حياته اليومية، من النشاط والأخلاق والحيوية النابضة المتوهجة، نراها يفكر بالهروب من الحياة والا نزواء في صومعة بعيدا عن صخب الحياة وضجيج الناس، حيث يدفن ما فيه في عاثر آماله ومتبدد أمنيته،

(1) صدوق، ديوان كان لي قلب، ص96.

(2) المرجع نفسه، ص19.

(3) المرجع نفسه، ص89.

لأنه غدا يحسب نفسه ليس في إعداد الأحياء وإنما على فراش الاحتضار. حيث
يقول في قصيدة "قصة شاعر":
يا ترى أين سُلقي رحلُهُ

ومتى يخفضُ للشمس الجباهُ

ربما يمضي إلى صومعةٍ

يدفن الماضي بأعماق ثراها

لا تسلهُ... إنه محتضر

جرعته خمرُ الماضي آساها⁽¹⁾

لكنه سرعان ما يجد جوابا على تساؤله يخرجُه من حيرته وضياعه، حيث
يقول في قصيدة "عودة إلى الصومعة":

ومضيتُ لا أدري، لصومعتي

حيرانَ في دربي

تطغى عليّ الذكرياتُ البيضُ

وتسيرُ (كالجيش العرمم) في مخيلتي

تنسابُ في صمتي

كأصابع الموت!

كالليل يصرخُ، كالشياطين الدنيئةُ

كالجن تعزف في أسي لحن الخطيئة⁽²⁾.

(1) صدوق، ديوان كان لي قلب، ص25.

(2) المرجع نفسه، ص97.

2.3.2 الغربية والحنين:

يبدو أن الإنسان منذ بدأ يضرب في الأرض قد حمل بين جوانحه ضروباً من الإحساس بالغربة حتى لقد تلونت قطاعات عريضة من أدبه بعد ذلك بهذا الإحساس⁽¹⁾.

وغربة الشعراء أصعب من سواها فهم في طبيعتهم المنفردة وإحساسهم المرهف يحسون بوطأة الغربة ، ولا سيما إذا كانوا في وسط لا يفهم ولا يقيم لهم وزناً عندها يسعى الشاعرهم إلى محاولة لإعادة صياغة واقعته من أجل إصلاح المجتمع والنهوض به، أو إلى أن يتمرد على هذا الواقع من خلال نقده وتوجهه لشعوره بقوة شخصية ترفض الذوبان والاستسلام⁽²⁾.

وإذا كان الشاعر صادقاً في التعبير عن الحياة في كل نواحيها فلا بد أن يعبر عن آلام المجتمع وآماله أن يدفعه أحد إلى هذا ، كما أنه من الناحية الأخرى يعبر عن آلامه وأحاسيسه الخاصة التي هي في أعماق أغوارها أحاسيس الأكثرية من أفراد هذا المجتمع⁽³⁾. إن الغربة عن الأرض هي ابتعاد الإنسان عن وطنه قسراً وإجباراً فأجبر أن يعيش بعيداً عن وطنه الأصيل يقول ستانداك "الوطن الحق هو الذي تلثقي فيه بكثير ممن يشبهونك"⁽⁴⁾.

والغربة عن الأرض تقضي لغربة بين الناس وشعور بالعزلة عنهم المفكر شاعراً كان أو أديباً مولعاً باعتزال الناس⁽⁵⁾.

(1) فهمي، ماهر حسن : الحنين والغربة في الشعر العربي الحديث، معهد البحوث والدراسات العربية، مطبعة الجبلاوي، 1970م، ص5.

(2) الشلبي، محمود: عبد الرحيم عمر شاعر، ط1، مطبعة الخالدي، عمان، 1984م، ص74.

(3) بصري، عبد الجبار داود : بدر شاكر السياب، رائد الشعر الحر، دار الجمهورية بغداد، 1968م، ص86.

(4) نقلاً عن د. هلال، محمد غنيمي، الرمنتيكية، ط6، دار العودة، بيروت، 1981، ص88.

(5) مغنية، أحمد محمود : الغربة في شعر محمود درويش (1972-1982)، ط1، دار الفارابي، 2004، ص19.

ويدخل في الغربة والاعتزال عناصر من مثل الإنسلاخ عن المجد، وتمع، والعزلة أو الانعزال والعجز عن التلاؤم والإخفاق في التكيف مع الأوضاع السائدة في المجد، وتمع واللامبالاة وعدم الشعور بالانتماء بل انعدام الشعور بمغزى الحياة⁽¹⁾.
ويصاحب الغربة كما أشار محمد الشوابكة "مظاهر القلق والأرق، والاكتئاب والضياع والاضطراب والشعور بالوحدة إلى غير ذلك"⁽²⁾.
والغربة عن العالم الذي يعيش فيه الشاعر يعزز هذا الشعور بالغربة انتماءه إلى عالم الحلم والخيال والشعور بدونية عالم الواقع لذلك كان تصوير الغربة من الموضوعات العزيزة على قلب الشاعر الرومانسي⁽³⁾.
ومن شلغراء الذين تحدثوا عن الغربة والحنين الشاعر راضي صدوق، إذ حمل لواء شعر الغربة، حيث ظهر غريباً قلقاً منكسراً، ويظهر هذا الانكسار جلياً في قصائده ذات الطابع الوطني وفي قصائده ذات الطابع الوجداني أو الفلسفي على السواء.

أ. ونلمس عند صدوق في هذا النوع من الشعر ظاهرتين:

ب. الإحساس الفطيع بالغربة.

ج. والإحساس بالعدمية.

والظاهرة الثانية ناتجة عن الأولى، واعتقد أن صدوق أحس بالغربة ليس إحساساً

أ فردياً بقدر ما هو إحساس ذو صفة جماعية يشترك فيها جيل كامل من المثقفين

الذين يتمتعون برهافة الحس والوعي الكامل معاً....⁽⁴⁾

عاش صدوق في بلدة "طولكرم" طفولته لا يذكر منها إلا هدير الطائرات ودوي المدافع، وجنون الرصاص، ولون الدم المسفوح عندما يمزج بتراب الأرض، لم يشعر

(1) شقيرات، أحمد: الاغتراب في شعر بدر شاكر السياب، ط1، دار عمان، 1987، ص12.

(2) الشوابكة، محطفة الغربة والاعتراب في شعر ابن دراج، مجلة مؤتة، م 4 العدد 2، 1989، ص139.

(3) سعيد، خالدة: حركية الإبداع، دراسات في الأدب العربي الحديث ط2، دار العودة، بيروت، 1982، ص5.

(4) صدوق، ديوان بقايا قصة الإنسان، ص94.

بالأمن والأمان ذات لحظة، كان يحدث ضمن طفولته بيوم أسود حالك القتام ينتظرهم من وراء الزمن الآتي ليقذفهم فرائس في أشداق الاغتراب والتشريد، ولقد تنفس صدوق هذا الحدس صريحا بملء رئتيه في قصائده الأولى في مطالع الخمسينات، حيث كان الإحساس المبكر بأن بلدة "طولكرم" ستسقط يوماً ما في أشداق العدو الصهيوني الهمجي. وظل هذا الإحساس الجارح الخائف المؤلم يكبر في داخل صدوق مع الأيام والسنين حتى كتب قصيدة بعنوان إلى طولكرم تحمل هذا الإحساس قبل سقوط المدينة في براثن الصهاينة في د ر ب حزيران عام 1967م نشرت في مجلة العربي الصادرة في الكويت.

كان الإحساس بالغربة يتلبس صدوق وهو في وطنه قبل ضياعه ، لأنه يشعر بأن أبناء الشعب الفلسطيني مدفوعون إلى الغربة بعيدا... بعيدا عن تراب الوطن والعشيرة. إن الغربة فلسطينية ، وكل فلسطيني هو الغربة ذاتها هو لونها وجراحها وعذاباتها ونشيدھا النازف الصارخ في متاهات العالم الأصم ، يقول: "منذ خمسين سنة وأنا رحلة اغتراب دائم، الغربة تسكن خلايا الجسد وأثير الروح ونسغ الدم، أرحل معها وترحل معي نتسامي علقم الذل ونتل مظ مرارة الرحيل ونحن نتساقط من ميناء إلى ميناء، تتقاذفنا المطارات وتلهو بنا مراكز الحدود على مدارات الأرض، خمسون سنة والغربة قدرتي وأغنييني وهويتي التي يعرفني بها الآخرون، خمسون سنة وأنا أحمل وطني حقيبة على الكاهل وأخبئه دمعة في العين، وخفقة في القلب وعطرا في نسغ العروق يفرح الناس بأوطانهم ولأوطانهم وأنا أبحث عن وطني بين أطلال الحلم وسراب الوهم وضرائب الذكريات وجماجم الشهداء".⁽¹⁾

أحس صدوق مرارة الغربة، إذ نجده يدعو "بابل" وهي المدينة الموعودة التي نفي إليها الشاعر وأهله، ويطلب منها أن تفتح أبوابها لهم. يقول في قصيدة "على أسوار بابل":

نحن منفيون، يا أرض، أتينا من قباب الله في القدس القديمة....
ليس في أعيننا رجس، وما في أرضنا روح زنيمة
مثلما كان بنو يعقوب

(1) مقابلة شخصية أجريتها مع الشاعر بتاريخ 2008/3/1م

غرقى في وحول العار في ليل الخطيئة
ما أقمنا هيكلاً للفسق لم نرجم بريئة⁽¹⁾.

ونجد صدوقاً يحس بغربه مكانيه إذ يعاني من (التشرد والنفي)، تلك الغربة التي وصفها الدكتور ماهر حسن فهمي بقوله: "كان الاغتراب المكاني اغتراباً فردياً، تخلع القبيلة فرداً أو يبقى الحاكم فرداً، أو تضطر الظروف الاقتصادية أفراداً إلى الرحيل، أما اليوم فتتسع الدائرة وتصل إلى حد غربة شعب بأجمعه مثل ما حدث في فلسطين.⁽²⁾

إن الغربة التي عبر عنها صدوق هي غربة شعب بأكمله، شرد ونفي عن وطنه الحبيب، بعدما سرق اليهود وطنهم، وهم الذين يصورهم في قصيدته (على أسوار بابل) أدق وأعمق تصدير نلاحظ منه إحاطة الشاعر بخصائص الذات اليهودية وملاحمها التاريخية المعروفة عنهم والتي عرفوا بها في كل أرض حلوا فيها، كما تلاحظ معرفته بتاريخهم ودقائق توراتهم المتداولة، يقول صدوق:

نحن منفيون يا بابل، جنناك جيعاً
سرقنا موسماً جردان يعقوب.... بغايه اللعينة
خرجت من قمم التاريخ، تجتر بقاياها، تصب
الزيت والنار على الموتى الرماد.
نزرع الأرض أفاعي وجراد
ألف "راحاب" بغية
أسلمت "يوشع" نهديها، وباعته المدينة⁽³⁾.

ويصف صدوق حلة المنفيين من وطنه فلسطين بعد احتلال اليهود لأرضهم وتشردهم في متاهات الأرض باحثين عن موطن قدم أو ظل خيمة تؤويهم وتحنو عليهم، حتى نراه يعبر عن قومه ويأسهم من العثر على ملجأ أو منفى يقرون فيه،

(1) صدوق، ديوان النار والطين، ص7

(2) فهمي، الحنين والغربة في الشعر الحديث، ص5

(3) صدوق، ديوان النار والطين، ص8.

بنبرة مستسلمة للظروف والأقدار، كل ذلك مقابل أن يجد له جداراً يسند ظهره
المتعب إلى ظلاله، يقول:

افتحي الأبواب يا بابلُ جئناك أسارى طائعينُ
أطفئي أعيننا بالليل، شدِّينا إلى القيد اللعينُ
نحن جئناك أسارى طائعينُ (1).

ويلح صدوق في توسله إلى " بابل " أن تفتح لهم أبوابها، لكنها لا تستجيب بل
إنها تشيخ عنهم وتخبئ أسوارها بعيداً عنهم، يقول:
خبأت أسوارها بابلُ، ما عادت تطيقُ
موكب النفي يشقُّ الليل، جوعان غريقُ
دمعت عيناك يا بابل للجرح العميقُ
أشرعي أبوابك الربداء إن الليل طالُ
هاهم الأحرارُ، بقيا من ظلالُ
تتمطَّى في فراغ الدرب كالأسل تنزَّى في العظام
ظمنت أكبادهم للظل، ضمَّيهم.... على الدنيا السلام (2).

بابل عند الشاعر تصمت ولا تستطيع الكلام لا لأنها ليس فيها منفى لشعب
كريم أخرج من وطنه من دون ما إثم أو ذنب أو جريمة، بل لأن بابل فتحت
أسوارها، في الماضي القديم، لجماعات اليهود، والشاعر في تسجيله رفض " بابل "
إيواء الشعب الفلسطيني كأنما يريد تنزيه شعبه الكريم عن أن يكون كاليهود في
الطباع السيئة والآثام التي فعلوها عبر التاريخ ضد الإنسانية جمعاء، يقول:
صمتت بابلُ...

هل يُجدي الكلام؟
ليس في بابل منفى لكرامٍ
إنها سجنٌ لقطاع الطريقِ

(1) صدوق، ديوان النار والطين، ص9.

(2) المرجع نفسه، ص9.

ليس في بابل سجنٌ لطليق⁽¹⁾ .

ويتساءل صدوق ماذا يفعل إنسان مهوم منفي ومقتول؟ لا يستطيع أن يصنع شيئاً بل إنه لا يملك حتى الإحساس بالمصائب والويلات والجراح التي أصابته:

ماذا يصنع مهزومٌ.... منفيٌ.... مقتولٌ؟

لا يملك حتى الإحساس بنزف الجرح؟⁽²⁾

ويؤكد صدوق بأنه ما يزال غريباً منفيّاً شريداً، حيث يقول في قصيدة "بكائية":

في ليالي الصمت والذلة... في تيه الغريب

لم أزل يا عشناً الطيب منفيّاً شريداً...

آه من تيه الغريب!⁽³⁾

وهو يصور لنا صورة الإنسان الغريب في شخصية النازح عن وطنه والبعيد عن أصله وعشيرته، معبراً عن كل ذلك جميعاً بغناء أشبه ما يكون بغناء الطيور النازحة عن أعشاشها، يقول في قصيدة " لحظة كآبة ":

أغني غريبَ الدار والأهل والهوى كما تتدبُّ الأعشاشُ نازحةً الطير

حنانك... طال الليل واشتعل الأسى فهات لي المقدور... خذني إلى قبري⁽⁴⁾

إن الإحساس بالغربة يسكن خلاياه ويتجسد سلوكاً ونظرة ومعاناة، حتى في يومياته المعيشية، مع ذاته مع أبنائه.... مع أحبائه وأقرب الناس إليه، ففي قصيدة له عنوانها " إلى الصغيرة رلى، تتجلى كل هذه المعاناة والمعاني، في يوم مترع بالشجن.

يقول:

صغيرتي.... أنت هنا عالمٌ من غير لونٍ مستباحٍ شريدٌ
الشمسُ لا تشرقُ في أرضه ولا يغني بليلاً أو يُعيدُ
وكلُّ معنى خير... خالداً... تموت سيماء... ويفنى الخلودُ

(1) صدوق، ديوان النار والطين، ص10 .

(2) صدوق، ديوان بقايا قصة إنسان، ص47.

(3) المرجع نفسه، ص61.

(4) صدوق، ديوان أمطار الحزن والدم، ص55

أنت هنا غريبة يا "رلى"
يعيش للموت.... وما من مني
بنت غريب مستذل طريد
يحيا لها العمر سوى أن يعود⁽¹⁾
وتتجلى المعاناة أيضا في قصيدة عنوانها "شاعر في الطائرة" قالها وهو في
الجو، بين السماء والأرض:

شقي بي الأفق فأني هنا
من كان لا يملك فوق الثرى
في موطني... لست الغريب الوحيد
عشاً له بين زحام الوجود
فالجو أسمى موطن للذي
يحيا على الدنيا غريباً طريد⁽²⁾
ولعل هذا المعنى يعبر عن يأس الشاعر من نجدة أهل الأرض وإيوائهم له
ولشعبه، إذ يمني نفسه بأن يجد له سكناً آمناً وحضناً دافئاً في.... الفضاء!

ويلح عليه الإحساس باليأس من الأرض وأهل الأرض، فيخاطب نفسه ليعيدها
إلى صوابها و تعرف حقيقتها، حتى لا تجمع فتنسى أنها غريبة لا مكان لها بين أهل
الأرض جميعاً، يقول في قصيدة "أحزان الشاعر الغريب" مخاطباً نفسه:

من أنتَ غير غريب ضاع موطنه
الأرض تتكر في عينيك لونهما
وديس في زحمة الأقدام وانسحقا
إن الغريب سرابٌ حيثما انتلقا⁽³⁾
ويصف صدوق الغربة النفسية التي يعيشها، إذ يعبر عن فقدان الذات حيث
الإنسان يكون سلوكه من خلال البيئة التي يعيش فيها، فهو يستشعر بأن الأرض
تتكبره، وتتكبره الطيور المهاجرة من وطن إلى وطن، حتى أنه ليكاد يشك في ذاته
وماهية وجوده، يقول:

أسأل عن وطني كل طير
وتتكرني الأرض! من ذا تكون؟
فتتكر ما عرفت موطننا
وأسأل نفسي: من ذا أنا؟
إذا الليل أسدل أجفانه
أويت له جدثاً موهننا⁽⁴⁾

(1) صدوق، ديوان أمطار الحزن والدم، ص55 .

(2) المرجع نفسه، ص125.

(3) صدوق، ديوان رياح السنين، ص64.

(4) صدوق، ديوان أمطار الحزن والدم، ص50.

وعلى صعيد آخر، يتبدى لنا تركيز الشاعر على العلاقة بين الغربة والهوية ... فهو يرى بأن الغربة تضيق هوية الإنسان الغريب، وتجعل منه كائناً لا هوية له إلا المأساة، وذلك بسبب فقدان وضياح وطنه، وأكثر ما يجسد ذلك في الفلسطيني المشرّد الطريد المبعثر في كل اتجاه، ففقدان الأرض ينتج عنه فقدان الهوية الإنسانية، وقصيدة "عند بوابة المستحيل" للشاعر صدوق تختصر هذا المعنى وتُلح عليه.

أنت وحدك لا فجرَ ولا ربيع
وحبك لا لونَ له ولا هويةَ إلّا المأساة
والأرضُ التي سرقوها من تحت قدميك
ليدفعوا بك خروفاً ضالاً، في متيعة الذئاب، ومسالخ الجزّارين⁽¹⁾
فصدوق يعيش بلا هوية، لأنه يشعر بأنه غريب لا وطن له كالآخرين ... كما
يشعر بالضياح وفقدان الهوية الإنسانية، حيث يتحول الناس الغرباء إلى خرفان ضالة
تائهة، في متاهات الذئاب ومسالخ الجزّارين.
ومن أبرز مظاهر الغربة النفسية التي يعيشها صدوق، الشعور بالوحدة، حيث
يقول في قصيدة "لكل ليل ظالم قمر":
سكن الوجودُ إلى غلائله وبقيتُ لا مأوىَ ولا سترُ
وحدي أكفكفُ عبرتي بيدي وأكادُ أحبسُها... فتتحدّرُ؟⁽²⁾
ويصرخ صدوق من أعماق كهف اليأس والوحدة القاتلة ، حيث يقول في قصيدة
"أطياف".

وأصرخُ من كهف يأسِي ووحدي القاتلة:
لماذا تسافرُ رُوحِي... وتتركني القافلة؟⁽³⁾
والوحدة تجعله إنساناً حزيناً تشجر في أعماقه الأحزان، وتشعل النيران بين
أعضائه، يقول في قصيدة "هذه ساعة الفراق":

(1) صدوق، ديوان الحزن أخضر دائماً، ص16.

(2) صدوق، ديوان رياح السنين، ص17.

(3) المرجع نفسه، ص49.

أنا وحدي، ووحشتي، وصمودي واحترافي... وشقوتي... وعنائي
وكتابي يكاد يضجر منّي وجراحي تضجُّ من كبريائي!
أغمضُ الليلُ جفنه واستفاقتُ في عروقي مواجعُ البر حاءِ
وطيورُ الأحزانِ تنقرُ قلبي وتمورُ النيرانِ في أعضائي⁽¹⁾

ويربط صدوق بين الغربة وبين الإحساس بالوحدة والوحشة وهو يشعر بأنه
عندما تداهمه الوحدة وتختم عليه، يشعر بأنها كالعناكب تعشش في عيونه وتنسج
من جفونه أبياتها، وتصبح خطاه ثقيلة على الأرض مثل السلاحف، بسبب تلك
الغربة النفسية التي يعيشها، ولعل قصيدة "قطرات من الجرح القديم" تجسد كل هذه
الأحاسيس والصور والمعاني، يقول:

غداً سوف تكبو خطاه
ويصحو على الدرب، بين زحام الوجوه، غريباً وحيداً
تعشش في مقلتيه العناكبُ،
تنسجُ أبياتها من جفونه
تشدُّ خطاه السلاحف للأرض، تثقله بالقيود⁽²⁾.

ويسهر صدوق مع الليل بلا مؤنس، لأنه وحيد يد أعزل نأى عنه أطفاله، بسبب
هدم اليهود بيته الذي كانوا يعيشون فيه، يقول في قصيدة "كان لي قلب":

وحدي مع الليل بلا مؤنس أو موحش كالمارد الأعزل
قد هدم العش... فيا بومة يا حية رقطاع... لا تُعولي⁽³⁾.

ويترحل صدوق في الدنيا من قطرٍ إلى قطر، ومن قارة إلى قارة، ومن شرق
إلى غرب، فيصبح مثل السندباد الذي أرهقته الـ غربة يسكنه الحلم بأنه لا بد لهذا الليل
البهيم من قمر يبدد قتامه ويبعث الضوء في عتمة النفس الراحلة أبداً ..، ونحن نجد
كل هذا في قصيدته "لكل ليل ظالم قمر".

فكأنني ضوءٌ ولا لهبٌ وكأنني عطرٌ ولا زهرٌ!

(1) صدوق، ديوان أمطار الحزن والدم، ص90.

(2) صدوق، ديوان النار والطين، ص31.

(3) صدوق، ديوان أمطار الحزن والدم، ص58.

أرتادُ هذا الكونَ خاطرةً كالسندبادِ أمضتهُ السفر⁽¹⁾
وعندما يرحل صدوق جواباً في الأرض، فإنما يحل من دون أن يعرف الغاية
من هذا الرحيل، وأين سيرسي به زورقه في نهاية المطاف، يقول:
وأرحلُ لا أدري إلى أي غايةٍ وأيانَ يُرسي زورقي بعد رحلتي⁽²⁾
ويؤكد صدوق بأن هذه الغربة لا تتبدد إلا بالعودة إلى أحضان فلسطين الأم
والوطن فيسأل: هل سيأتي المنقذون المخلصون؟ وهل يطلع فجر الحرية والنصر؟
حتى تنتهي الغربة بالعودة إلى الأرض والوطن الحبيب، يقول في قصيدة "عيون
حزيرانية":

ترى يأتون من خلفِ الليالي موكباً من نور؟
ترى يأتون؟
وأغفى الصمتُ يضحك من رؤى الأوهام
وأغفتُ أمنيّاتي في ذرى الأحلام
وقهقهةً مارداً في الليل... أين الفجر؟... أين النور؟⁽³⁾
إننا نرى الشاعر يربط بين الوطن وكل العواطف والمعاني والتجارب الإنسانية
الجميلة، حتى الحب خارج الوطن السليب لا صدقيه ولا معنى فيه، فاللقاء بين
الفلسطيني ومحبوبته زيف وعار خارج وطنه فلسطين، إنها غربة نفسية يعانيتها
الشاعر لا يستطيع الخلاص منها إلا بالعودة . يقول في قصيدة "رسائل في بريد
حزيران":

كلانا غريب
لقانا ونحن غريبان زيفٌ وعارٌ
تعالى أضْمَكِ في أرضنا.... في ظلال الجراح
نُشيعُ كلَّ أكاذيبنا

(1) صدوق، ديوان رياح السنين، ص20

(2) المرجع نفسه، ص121.

(3) المرجع نفسه، ص75

وتحيينَ والقدسَ في أضلعي⁽¹⁾.

لقد أدرك صدوق أبعاد الغربة قاطبة، معبراً عن غربة الإنسان في الحياة بجوانبها كافة: النفسية والمكانية والاجتماعية، وتركزت الغربة لديه بالإحساس بالضيق والتشرد والوحدة والترحال الدائم. وكانت فلسطين تعيش معه كل لحظة من لحظات العمر، وكذلك مدينته الصامدة على خط النار (طولكرم).

3.3.2 الحزن والتشاؤم:

إن الحزن أو الكآبة طابع غالب على الشعر الوجداني، وهو قول حق لكنه لا يصدق على نماذج كثيرة من الشعر، كما تختلف الكآبة فتظل صورة لحالات نفسية عارضة، وتعمق أحياناً وتمتد حتى توشك أن تكون نظرة ثابتة إلى الحياة والكون تدفع الشاعر إلى كثير من التأمل في غاية الحياة وصبغة الخير والشر والجبر والاختيار.⁽²⁾

والحزن ظاهرة في الأدب العربي في مجالات هـ كافة، وفي الشعر على وجه الخصوص، فما الذي يدفع بالشاعر إلى الالتحام مع الحزن ؟ وصيرورته كتوأم روح لا ينفصل عنه ولا ينفك إلا في حالات نادرة ؟ فنحن لا نكاد نقرأ ديواناً، سواء للقدماء من الشعراء أم المحدثين، إلا وقد رسمت غيمة الحزن والفراق والألم على صفحات كتابه. والغريب في ذلك هو ميل النفوس والأذواق إلى هذا النوع من الموسيقى الروحية والشاعر نادراً ما يكون خارجاً عن دائرة الأحزان والظروف المهيأة لهلفغالب الشعراء نشأوا إما أيتاماً أو فقراء أو مغتربين أو مهجرين أو منفيين أو عاشقين . والقارئ يجد بين الشعراء من ينعى نفسه ومن ينعى وطنه وحظه..... وقد تولد الحزن عند الشاعر العربي من ظرفه الذي يعيش فيه، ومن الأرض الملغمة بالصدمات والانكسارات والهزات فتصبح سارية في جسمه ... في

(1) صدوق، ديوان النار والطين، ص35

(2) القط، عبدالقادر الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر، ط 1 منشورات جامعة اليرموك، اربد، 1980م، ص271.

جميع أعضائه... لتنعكس على مواقفه ووجهات نظره في الحياة، وبالتالي تنعكس على شعره فتسبغ عليه الصبغة الحزينة، ليعرف فيما بعد بشاعر الحزن والأسى. والحقول التي يتمحور حولها الحزن عند الشعراء هي: الغربة، الموت، الرحيل، المنتهى، السفر، الدموع، الخوف من المجهول، الأسى، الفراق، الانتدبار، الدموع، وكل معاني اليأس، فالحزن والشعراء ملتحمان خيطهم واحد وبدايتهم واحدة. وهناك من يرى أن الشاعر العربي ولد لكي يكون حزيناً... عرفناه شاعراً جاهلياً باكياً للأطلال، وراثياً مفتقداً للأحباب، وحاملاً لهموم الأمة بتاريخها الطويل وتجاربها الدامية المتواصلة⁽¹⁾.

غير أن الحزن يتفاوت من شاعر إلى آخر، وفي السياق، نجد أن راضي صدوق شاعر الحزن بامتياز، ونحن نلمح ذلك ونلمسه في نتاجه الثري طوال مسيرته الشعرية، حتى أنه سمي أحد دواوينه المطبوعة بعنوان "الحزن أخضر دائماً". ويتحدث عن ظاهرة الحزن في شعره فيقول: عندما أطوف في عوالم الماضي البعيد القريب، أذكر أننا نحن الجيل الأول من أبناء النكبة العربية في فلسطين كنا نتمزق جوعاً وألماً ودماءً.. نبحث عن لقمة الخبز لكي تشغل في شراييننا بعضاً من الحرارة والقوة من أجل أن نواصل سيرنا في طريق قدرنا المكتوب إلى شواطئ نحن نريدها ولا نتمناها، ونعمل من أجلها ولا نحلم به، كنا نقسم رغيف الخبز بعدالة وإيثار، حتى إذا ما استقرت اللقمة الضئيلة البخيلة في البطون، انطلقت سواعدنا، نحفر بطن الأرض، ثم ترتفع إلى السماء الكريمة بأدعية قوالة في ابتهاج مؤمن غير ذليل... وكان الشعر رفيقنا في الدرب، يؤنس وحشتنا ووحدتنا، ونحن تحت مطر الرصاص الغادر، وكنا حينذاك صبياناً نقطع رحلة بين المدرسة والبيت. وظل هذا الرفيق الأنيس يتغذى من أعماقنا الكئيبة الكابية، وينمو على حساب أعصابنا وشراييننا ونهار أعيننا⁽²⁾.

ولقد ثار على صدوق في مطالع بدايته مع الشعر - جمهرة من النقاد والقراء، ثورات كانت تملأ صفحات كاملة من الملحقات الأدبية في الصحف الأردنية، بسبب

(1) مقابلة شخصية أجريتها مع الشاعر بتاريخ 2008/2/14م

(2) المرجع نفسه.

هذا الحزن القاتم الأسود وتلك الروح ا لحزينة الغريقة بالدمع .. واتهموه بالتخاذل والاستسلام، وما دروا أن أغنياته الحزينة، تلك وهذه، هي من وجيب هذا القلب المؤمن الصامد الذي ما استسلم يوماً لزوبعة، ولا غنى على وتر كاذب أو منافق أو خؤونهما دروا أنها أيضاً بعض أناشيد العزاء و التأسي التي كانت يهدد بها قلبه وشبابه وربيعه هو يعبر رحلة صموده وسط ع ذاب الحرمان والألم والموت، حتى كتب له النصر في أكثر من معركة، ومع هذا فما يزال قلبه يغني، مجروحاً حزيناً، ربيعاً الذي ضاع، وشبابه الذي انقضى ..حتى أيام كان ما يزال في ميعة الصبا ورونق الشباب.

لقد ظهر الحزن عند صدوق في عدد من قصائده ، وهو يعترف بأنه حزين، حيث يقول في قصيدة "أين مني الربيع":
إيه يا شاعري الحزين رويداً

إنَّ صرفَ الأيامِ غيرُ أمينٍ

كم تبسّمت والليالي غضابٌ

وتمرّغت بالهوى والمجون..

ومنحت الأيامَ معنىً جديداً

لم يهوّ على خيال السنين⁽¹⁾

وقد عرف من حوله هذه الانغمار في الحزن المشبوب، منذ أوائل طلوعه وظهوره شاعراً، حتى محبوبته تخاطبه وتصفه بالبائس الحزين، وه و لا ينفي عنه هذه الصفة، بل نجده لا يبررها ويفلسفها في رسائله الشعرية الموجهة إلى محبوبته، حيث يقول في قصيدة الرسالة الثانية:

تقولين: أنت ببئس حزين، ومثلك لا يقطف الفرقدا

وروحي أنا من ضياء النجوم، وروحك من شهقات الردى

ولكن... أنا لكِ إنا تراب، وسوف نعودُ إليه غدا...⁽²⁾

(1) صدوق، ديوان أمطار الحزن والدم، ص105.

(2) صدوق، ديوان كان لي قلب، ص66.

ويُسقط صدوق حزنه على الأمطار فيجعلها تبكي دموعاً، وعلى الرياح فيجعلها
تعصف الأرض، وتزوبع الرعود، إذ تكشف لنا تلك الأوصاف الحالة النفسية
الحزينة التي يعيشها صدوق، فهو يقول في قصيدة "قطرات من الجرح القديم":

وما هم؟!..... فلتتفجر دموعُ المطرِ

ترابٌ هي الأرضُ، تعصف فيها السمومُ، تضجُّ الرياحُ
تعالِي نَشْدُ السحاب، نزوبعُ كالرعد، نخفق مثل عوالي الرماحُ
نغسلُ أحزانَ كلِّ البشرِ. (1)

لكنه في موقف آخر، يرى أن الإنسان الحزين لا يشعر به أحدٌ ، ومستلهم
الأحزان لن يصغي إليه أحدٌ لأنه "حزين، والناس ينشدون الفرح والمسرات والبهجة،
يقول في قصيدة "رحلة العيث":

أنا ناك يا مغني الصمت.... يا مُستلهم الأحران

لن يُصغي إليك البحر

ولن يسمعك الركبانُ

لقد سدت صواري الرياح كلَّ مسامع السفنِ

وماتت لهفةُ البحارِ

ومات الصمتُ

خلف زوابع التيارِ

أنا ناك، لن يمدَّ إليك، هذا الشاطئ الصخريُّ أيديه

ولا يهفو إليك الرملُ

لأنك يا مُغني الصمتِ والأحرانِ (2).

ويكشف لنا صدوق عن صفات الإنسان الحزين، فالحزين قليل الراحة والنوم، يعيش
طوال حياته أرقاً بائساً متشائماً من الحياة، هذا ما عبر عنه في قصيدة "أغنية شاعر
مجهول":

كم من ليالٍ عشتها أرقاً حزيناً

(1) صدوق، ديوان النار والطين، ص34.

(2) المرجع نفسه، ص15.

في ظل صومعتي الحنون
 والشمعة الصفراء تنزف في شجون
 لكنما كبدي
 تغفو على كمد
 كالنار تصخب في جنون
 تصليه زمجرة الحنين.....
 للأمس..... للماضي..... لأعماق السنين⁽¹⁾.
 يخاطب صدوق "أمه" ويشكو إليها الأحزان التي لازمته وسكنت في أعماقه، يقول
 في قصيدة "إلى أمي":
 يظل الحزن مسحوباً على عينيك..... يا أمه
 يلون جرحك الدامي..... بألوان من المأساة
 يظل الحزن..... هذا الصخرة الشوهاء.... يفغر فاه
 ويخنق في ثراكِ السمح كل جداول الأمواه
 سدىً يا أمّ تنتحبين.... لن يسمع غيرُ الله⁽²⁾.
 ثم نجده يتحدث لأمه، عن حياته البائسة، بعد أن مضت السنون برونق العمر
 وبريق الشباب.
 يقول في قصيدة "إلى أمي":
 مضى يا أمّ زهو العمر ما عادت لنا أيام
 وحطّ الليلُ خيمته.... وغيبَ موكبَ الأحلام
 وشاه النورُ في الأعين.... جفّت شعلةُ الإلهام⁽³⁾.
 ويجعل صدوق من رحيل الأحباب سبباً للحزن ، إذ أصبحت ديارهم خالية لم يبق
 فيها إلا الحزن والذكريات، يقول في قصيدة "لكل ليل ظالم قمر":

(1) صدوق، ديوان النار والطين، ص96.

(2) صدوق، ديوان رياح السنين، ص70.

(3) المرجع نفسه، ص71 .

لهفًا عليك... مضى الزمانُ بنا
العمرُ حلمٌ، والصبا غررُ
ومنازلُ الأحبابِ مقفرةٌ...
لم يبق إلا الحزنُ والذكرُ
ومواعظُ الأيامِ ماثلةٌ
تروي أحاديثَ الألى عبروا
رحلوا مع النسيانِ أحجيةً
حارتَ بها الأجيالُ والعصرُ
وأنا هنا في الليلِ معتكفُ
تلهو بي الأحلامُ والفكرُ
مهما يطلُ ليلُ الأسى أبدًا

فلكلَّ ليلٍ ظالمٍ قمرٌ!!⁽¹⁾

ويؤكد صدوق أن الوحدة ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالشعور بالحزن، فالوحدة تولد الحزن، حيث يقف وحيداً على نهر من الأحزان، يقول في قصيدة "عيون حزيرانية":
أنا وحدي على نهرٍ من الأحزانِ
قبابي لم تزل خرساء... لا كلمة
شفاهي أطفأتها الريح... لا بسمه

سمعت صراخكم في الليل يطوي غربة الآفاق⁽²⁾

إلى الحزن عند صدوق أخضر دائماً بمعنى أنه ملازمه ولا فكاك منه، لكنه أيضاً مصدر خصب وعطاء وإلهام له، لا تتضب ينابيعه، إذ يحمل فيه طياته الأمل والبشرى بالعودة إلى الوطن السليب، ويتجلى هذا المعنى في قصيدة "الحزن أخضر دائماً":

قل لي: هذا الخيطُ الأخضرُ
هل ينبتُ من أعماقٍ مجهولة؟

(1) صدوق، ديوان رياح السنين، ص20.

(2) صدوق، ديوان بقايا قصة إنسان، ص75.

ألمع ورقاً لا تبصره إلا عين الروح
والمح، في الباطن، بعض جروح
هل ينبت هذا الخيط الأخضر من غصن الدم؟
قالوا: قد ينبت شوك من ورد والفرح الطفل
قد يزهو من أحزان الليل
أخضر هذا الحزن، يظل، وأنت
الراحل في التيه، وحيداً تسألك الريح متى تلقي المرساة....
متى تحتضن الشيطان؟⁽¹⁾

وهفي قصيدة ثانية، يؤكد بأن الخلاص من الحزن لا يكون إلا بالعودة إلى
وطنه الحبيب "فلسطين"، بعد تحريره من الاحتلال الصهيوني، يقول في قصيدة
"وداع عند الشريعة":

خبأت كل ما في العين من دموع
وكل رعشة من الحنين
كل خفقة من الضلوع
خبأت روعي كلها، فداء لحظة من الرجوع⁽²⁾.
والحزن يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالغربة، فمن أهم أسباب الحزن عنده الشعور
بالغربة والبعد عن وطنه، يقول:

عودي إلى ترابنا الحبيب، يا حبيبة
إنا غريبان هنا
وقد يُقال أننا
نعيش في بلادنا⁽³⁾.

ثم إن الحزن أحياناً كان يصل بالشاعر صدوق إلى درجة الت
شاؤم. يقول في
قصيدة "خواطر":

(1) صدوق، ديوان الحزن أخضر دائماً، ص45.

(2) صدوق، ديوان بقايا قصة الإنسان، ص48.

(3) المرجع نفسه، ص48.

زعموا إنما الحياةُ خلودٌ

وهي في خاطرِ الهوى أمسيةٌ

يتلاشى الوجودُ في كبدِ المبهمِ

كالظلِ في الرحابِ السَّنيّةِ...

إنما الأرضُ دميةٌ تتلوى

فوق نيرانِ قبضةِ ذريّةٍ

أين منها الخلودُ، وهي ضبابٌ

ليس في الأرضِ ليلةٌ قمريةٌ

فاجثمي يا حياةٌ في قبضةِ الموتِ

وتيهي، فلست للأزلية⁽¹⁾

ومن صور التشاؤم عند صدوق، إنه يرى أن رحلة الحياة هراء، ولن تفضي إلى شطآن النجاة، التي يحلم بها الإنسان المرهق الباحث عن خلاص، يقول:

هراءٌ..... دربنا المزحوم بالأحلام والصورِ

هراءٌ رحلةُ المجدافِ. لن تفضي به الأمواج للشطآنِ

ولن تحدو أحلامُ الرمالِ البيضِ شوقَ زوارقِ الركبانِ⁽²⁾.

ويرى صدوق أن الليالي السود أَرْضَعَت الشعب الفلسطيني المر، وسقته كؤوس العذاب منذ الاحتلال شاكياً ظلم هذه الليالي في قصيدته "إلى أمي" التي يخاطب فيها أمه:

هنا، يا أمُّ، تُرضعنا الليالي السودُ غسلينا.....

ونسقيها الدمَ القاني..... ونطعمها الشرايينا.....

نضيءُ نهارها الذاوي..... بأعيننا..... وتطفينا!

نعيشُ لها وتتحرنا..... وتغرسُ رمحها فينا.....

وتلغقُ جرحنا النازفَ، للموت..... تُضحينا⁽³⁾.

(1) صدوق، ديوان كان لي قلب، ص89.

(2) صدوق، ديوان النار والطين، ص22.

(3) المرجع نفسه، ص103.

ولعل خلاصة حزن الشاعر وألمه قد تجلت واضحة في قصيدته التي يقول فيها:

سدى لن يزهر اللوزُ.... ولن يثمر بستانُ
ولن تبتسم الشمسُ.... ولن تسرح قطعانُ....
فهذا عالمٌ سبخٌ.... عتيق الجوع... ظمآنُ...
وما في أرضه قلبٌ نقيُّ الحب.... ريانُ
سدى يا أم، تبتهلين.... ما في الكون إنسانُ
دعي الجرح يواسي الجرح يا أماء في الصدر
وخلي الدمعة الثكلى وراء الجفن لا تجري....
ولا يرهبك إعصارٌ.... من الأيام والدهر...
وخوضي في عباب الموج في قلب من الصخر...
بلا معنى.... بلا لون... فتلك هوية العصر...⁽¹⁾

4.3.2 الجانب التأملي الفلسفي:

ظهر عند كثير من الشعراء المعاصرين ما يسمى بـ "الطابع التأملي"، وذلك نتيجة لتأملهم الطويل في الذات وفي ما حولهم من الكائنات، شأن الفلاسفة الروحيين، انشغلوا بما انطوى في أعماق النفس من المخبآت والودائع وانشغلوا بمشاكل الوجود وقضايا الفناء والخلود "الموت والحياة" فاتجهوا بفنهم وشعرهم إلى استجلاء غوامضها. وهذا الاتجاه نحو الحياة الروحية والمواضيع المجردة هو أروع ما سجله تاريخ الأدب الحديث من تجديد وبُعد نظر⁽²⁾.

(1) صدوق، ديوان النار والطين، ص104.

(2) صيدح، جورج: أدبنا وأدباؤنا في المهاجر الأمريكية ط 3، دار العلم للملايين، بيروت، ص70.

ونجد الشعراء الوجدانيين اهتموا بأن يكون الشعر تعبيراً عن النفس والمشاعر الذاتية بعيداً عن التكلف وكل ما يجعل من الشاعر أداة في يد غيره ولذلك ابتعدوا عن شعر المناسبات⁽¹⁾.

واتخذ هؤلاء الشعراء من الذاتية نقطة انطلاق للعواطف والأحاسيس في المجال التعبيري⁽²⁾، فاهتموا كل الاهتمام بالعالم النفسي للشاعر وما يتصل بهذا العالم من تأملات فكرية ونظرات فلسفية تهتم بحقائق الكون وتفتش عن أسرار الوجود⁽³⁾. إن الشعر الوجداني من الموضوعات الشعرية الجديدة في الأدب المعاصر ، حيث ينحو هذا الشعر منحىً إنسانياً رقيقاً؛ لأنه حوى خفق القلوب وتساؤلات النفس وحيرة العقول، وتمثلت في المشاركة الوجدانية بين الشاعر وقارئه⁽⁴⁾. ففي ضوء انفعالات الشعراء، يستعيد الإنسان تجاربه، ويطبّقونها على تجاربهم المماثلة التي لم يستطيعوا التعبير عنها لأنهم محرومون من هذا الفيض الإلهي وهو الشعر، فإذا بهم يجدون في هذا الشاعر الذي مارس تجربتهم متفصلاً للألم المكبوت، ومخرجاً للأسى المنطوي، والعاطفة السجينة⁽⁵⁾.

ومن الشعراء المعاصرين الذين اتجهوا إلى الشعر الوجداني "راضي صدوق"، فقد سار في شعره نحو الوجدان وإرسال النفس على سجيتها؛ لأن الشعر لديه تعبير عن النفس والمشاعر الذاتية، ومن أهم القضايا التي تتألف منها صدوق "ثنائية الموت والحياة" إذ يرد الحديث عن ثنائية الموت والحياة أو الخلود والفناء في كثير من قصائده.

(1) لكبير، حسن أحمد : تطور القصيدة الغنائية في الشعر العربي الحديث من (1881-1938م) دار الفكر العربي، ص254.

(2) عثمان، عبد الرحمن: الأدب المعاصر، مطبعة دار النشر للجامعات المصرية، 1968، ص88.

(3) هيكمل، أحمد: تطور الأدب الحديث في مصر ط2، دار المعارف بمصر، 1971، ص157.

(4) المرجع نفسه، تطور القصيدة الغنائية، ص397.

(5) داود، أنس: التجديد في شعر المهجر، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، ص136.

يصف صدوق الدنيا بأنها فانية، فالموت هو نهاية الإنسان، و هو خلق من التراب ويعود مجبراً إليه. يقول في قصيدة "الرسالة الأولى":

إنما الدنيا عذابٌ

ودموعٌ.... وشرابٌ

وكلانا سوف يمضي مرغماً نحو التراب

إن هذا اللحد يا رُوحِي، هو الحتمُ المجاب⁽¹⁾

وعجيب أن يتوصل الشاعر إلى هذه النهاية، وهو كان ما يزال في مطالع الحياة، لم يواجه صراعها الحقيقي في ميادينها الواسعة، لكنه كان ينظر بعين قلبه إلى ما تخبئه السنون، فلا يجد خلاصاً منها إلا بتطمين نفسه بحقيقة أن الحياة معاناة ولهو، فيها اليسر وفيها العسر، لكن النهاية واحدة وهي: الموت.

ويكاد هذا المعنى يطل على القارئ من خلال كل قصيدة تتصل بتجربة الشاعر مع الحياة، فالقبر دائماً يقفز إلى أبياته من دون استئذان، ففي قصيدة "خاطر" يريد صدوق أن يمضي إلى القبر. قائلاً:

سوف أمضي مع الضباب إلى القبر

وأغفو على عذيف المنية

إن هذا الوجود يعصر ذاتي

في كؤوس من الشراب زكية⁽²⁾

ويعلل صدوق نهاية الحياة بقوله:

أين منها الخلود وهي ضباب؟!

ليس في الأرض ليلة قمرية

فاجثمي يا حياة في قبضة الموت

وتيهي، فلست للأزليّة⁽³⁾

(1) صدوق، ديوان كان لي قلب، ص64.

(2) المرجع نفسه، ص89.

(3) المرجع نفسه، ص90.

وفي أحيانا كثيرة، نجده يلتفت إلى نفسه فيراها ذاهلة مستغرقة في غمار الحياة، وكأنها تحسب أنها خالدة مخلدة، فيخاطب ذاته في عتاب لهذا الدهول عن حقيقة الموت التي تنتظر كل إنسان، إذ يقول في قصيدة "لحظة كآبة":
سرى بك طيف الموت أم أنت لا تدري؟

ذهلت عن الدنيا وأبحرت في الغمر...⁽¹⁾
ويتبأ بقرب موته ورحيله عن الدنيا التي ملأت قلبه بالجراحات والويلات، حيث يقول في قصيدة "حنانيك":

ترغردُ في قلبي الجراح، وطالما
خنقتُ جراحي في صُراخ عويلي
أنا الموتُ فانظرني على الدرب ماشياً
ألملمُ أيامي وظلَّ فصولي
حنانك... هذي مهجتي جرحت فمي
أغنيك فلتسمع دوي صليلي
إذا احترقتُ روعي، فتلك قصيدةٌ
تنبئُ عن موتي وقربِ رحيلي⁽²⁾

ويقول أيضاً في قصيدة "بوهيمية":
نحن سرابٌ نقطعُ الطريق..... ثم
كلنا مسير إلى زوال.....
ونحن يا صغيرُ رحلةُ التراب
رحلةُ الزمان..... رحلةُ الظلال⁽³⁾
وهناك ضرب من الموت المقدس الذي يباركه الشاعر، ويجد فيه العزة والمجد والفخر، إنه الموت في سبيل الوطن. يقول في قصيدة "الرماد يورق أزهاراً":
الموت في غموضه يحملُ وهجَ ساعة الميلاد

(1) صدوق، ديوان أمطار الحزن والدم، ص53.

(2) المرجع نفسه، ص75.

(3) صدوق، ديوان النار والطين، ص67.

يا روعة الشروق والميلاد!
ولعنة على كآبة الظلام والرقاد
يا عالم الجحود والنفاق
أفق، فالكون من رقاده أفاق⁽¹⁾.

وفي قصيدة في بحر الرغوة "يجعل الموت قوة تثبت الإرادة والعزيمة، وتشعل النار في نفوس الأحرار حتى يحرروا أوطانهم التي اغتصبت منهم، يقول:
فصبي الموت يا صخرة.....
على كتفي، في زندي، صُبي الموت واحترقي....
يظل الوهج في عيني من خلف الزجاج، يشع بالألح⁽²⁾.
وثمة موت لا يأبه الشاعر ولا يتخوف منه إنه الموت الذي يواجهه وهو في مقام التحدي...وفي هذا السياق نجده، يصف الأبطال الأحرار مخلداً شجاعتهم. إذ يقول في قصيدة "عائد من النار":
مرحباً...
يا وقدة النار، أتيتُ
عيني الرمضاء مصباحي،
وماء الجرح زيت..
أشرعي السنة الموت، فقد جنّ اللجام
جاءك الفارس يجتاح الظلام
مهرة الليل وعصف الرياح لا يثنيه موت⁽³⁾.
ويمعن في تحديه الموت، غير هباب ولا وجل، ليبنى عالمه الخاص، فوق الجراح والدموع والأحزان، يقول في قصيدة "كلمات من القلب":
يا أنت لو تدرين أي الدنى
يتوق أن يرقى إليها الفؤاد

(1) صدوق، ديوان بقايا قصة الإنسان، ص41

(2) المرجع نفسه، ص55

(3) المرجع نفسه، ص83 .

وأي فجرٍ غامرٍ بالضياء...

أريده يطلع خلف الرماد

لقلت: هذا شاعرٌ كـاذبٌ...

أو مستهام بالروى، واهـم

لكنني سوف أشق الحياة....

بقوة وأنفها راغم

وسوف أبني عالمي شامخاً

كالشمس رغم الموت رغم العذاب

فالشمس لا تطفئ نيرانها

كآبة الأرض وحزن السحاب⁽¹⁾

وليس بعيداً عن صورة إلحاح الشاعر على موضوع الطين ،نجدته يتناول "فكرة الطين" حيث أفرد ديواناً كاملاً باسم "النار والطين" يصور الشاعر من خلال ه اعتقاده بأن الإنسان لا يستطيع أن يعلو على وجوده المادي أو تتحرر روحه من "قفص الصلصال" الذي كتب عليها أن تعيش فيه ه حياتها الدنيا، حيث ينكر صدوق على نفسه من نسيان لوجودها الروحي النقي الأول⁽²⁾، يقول في قصيدة "ثورة على عاطفة قديمة":

أنا ترابٌ باحثٌ عن تراب

ما عاد في جنبي غيرُ الرغاب

أتوق أن أفنى على طينة

حمراء كالشهوة أو كالعذاب⁽³⁾

لكنه كثيراً ما يتوق إلى التحرر من صفته الطينية، منطلقاً إلى السمو، فنجدته يقول في قصيدة "لا شيء":

(1) صدوق، ديوان رياح السنين، ص60.

(2) القط، الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر، ص273.

(3) صدوق، ديوان النار والطين، ص71.

أنا أمس... حاضراً... مستقبلاً

أي سرٍ ينطوي في خافقي؟

برئت نفسي إلى خالقها

وتحررت من الطين الشقي

وحده الله الذي في خاطري

أزل... باقٍ... عظيم... سرمدٍ

ليس في دنياي ما يملكني

وأنا أرفض منها أي شيء⁽¹⁾

ويتحدث صدوق عن طبيعة الحياة بعامة ، حيث يقول في قصيدة "تلك هي طبيعة الحياة":

تلك هي طبيعة الحياة

الشوكة لا تمنح الآخرين العطر.....

والحدأة لا ترتفع إلى حظائر النسور.....

القمم العالية منزل كل رائع، وسامٍ، وعظيم....⁽²⁾

لكنه يظل متفائلاً أحياناً ، ولهذا نجده يوجه نداءً إلى بني جلدته لبذل الجهد والطاقة لإعمار الحياة بقيم الخير والمحبة والوفاء. يقول:

الحياة صفتان.... بيضاء وسوداء

فلنطبع ملامحنا، يا خيمة الظل، في الصفحة البيضاء

لنمنح العالمَ بحيرة من النقاء، تظل حضاناً حنوناً يفتح صدره لكل الزوارق الحاملة البريئة....⁽³⁾

ويقول:

الحياة ورقتان... خضراء يانعة، وناشفة عجفاء

(1) صدوق، ديوان، رياح السنين، ص127.

(2) صدوق، ديوان الحزن أخضر دائماً، ص21.

(3) المرجع نفسه، ص37.

فلنمنح الورقة الناشفة الظامئة، بعض الري من أنفسنا
لنمنحها بعض ما يدفق، في شراييننا، من دم
ولنفتح عيوننا المرهقة على ضوء الشمس،
نجدل من خيوطها قطوفاً من الأمل والمواعيد، في ظلال غدٍ حالمٍ
هنيء..... (1).

ومن أبرز الموضوعات التي تناولها صدوق "الطبيعة"، حيث تتجلى فيها الفروق
بين الموقف الموضوعي والموقف الوجداني، وبين ما يقتضيه كلا الموقفين من
تعبير فني. فالشاعر الموضوعي أو الكلاسيكي ينظر إلى المشهد الطبيعي نظرة
شاملة فتستوي عنده الصورة ويولي كلا منها عناية خاصة ليرسم منها جميعاً في
النهاية لوحة كاملة (2).

وعندما يتحدث صدوق عن الربيع، فإنما يتحدث عنه معنى ورمزاً، بكل ما يعنيه
من خضرة وخصب وازدهار، وما ينطوي عليه من جمال وأزاهير وأريج فواح ،
ومن هذا كله، تتبدى لنا صورة الحياة الجميلة الهائلة المعطاء التي يحلم بها الشاعر
وينشدها لكل الناس.

يقول في قصيدة له بعنوان "عند بوابة المستحيل":
والربيعُ يضحك في الآفاق....
يخصفُ من ورقه وثمره على الآخرين
أنتَ وحدك، لا لون لك، ولا هوية، إلا المأساة
والأرضُ التي سرقوها من تحت قدميك
ليدفعوا بك خروفاً ضالاً، في متيهة الذئاب، ومسالخ
الجزارين..... (3).

والشاعر عندما يتناول الطبيعة في شعره، لا يتوقف عند العموميات، بل يلتفت
إلى أدق تفاصيلها التي تلعب دوراً كبيراً في إعـ مارها وازدهارها، أو في انحسارها

(1) صدوق، ديوان الحزن أخضر دائماً، ص37.

(2) القط، الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر، ص64.

(3) صدوق، ديوان الحزن أخضر دائماً، ص16.

وشمولها وجفافها....كالسحب والمطر والربيع والخريف ونجده يخاطب
السحابة، مثلاً طالباً منها أن يمتع المطر، وتسكن الصحارى، لأن العطش الذي
أصابه هو عطش روحي، حيث يقول في قصيدة "حذار أن تمطري:
يا سحابة المطر البازل.....

تبلدي في جفاف البخل، واسكني صحارى الجذب
ما عاد الروحُ الظامئ يحلم بقطرة من مطر
صار العطش لروحي الظامئ، نيرةً عطرٍ ومجمرة بخور....
من عطشي أغرف جداول موسيقي
حذار أن تمطري، في قلبي، حتى لا تجف أغنياتي!⁽¹⁾
ومثل ما نراه يربط ما بين الربيع وبين عطائه الشعري، نجده كذلك يربط بين
الربيع وأحزانه وما لاقاه من عنت في رحلة صراعه مع الحياة ، ولعلنا نجد هذا
المعنى في قصيدته "أين منى الربيع":
يا ليالي الأسى يهيج شجوني

ما ألاقيه من صراع السنين

أين منى الربيع؟ أين شبابي؟

ضاع في لجة العباب سفيني

إيه يا قلبي الجريحُ حناناً

لا تحرك لواعجي وشجوني

إنَّ بعضَ النسيان فيه عزاءٌ

ودواءٌ للخافقِ المطعون⁽²⁾.

ومن أهم الأبعاد التي تطرق إليها صدوق "البعد الفلسفي" فقد أتيح لعدد كبير من
الشعراء الأردنيين أن يكونوا على جانب كبير من الوعي الفلسفي والنظرة العميقة

(1) صدوق، ديوان الحزن أخضر دائماً، ص32.

(2) صدوق، ديوان أمطار الحزن والدم، ص105.

في الكون والإنسان والحياة وتأثروا بمدرسة الخيام، ونظرات الصوفيين وفلسفة عشقهم⁽¹⁾.

فهو في قصيدته المعنونه بـ "لا شيء"، يبحث عن قوة مجهولة وراء هذا الكون، حيث يقول:
ولقد طوفتُ في الدنيا.... وفي

كل مجهول... وفي كل قصي

باحثاً عن أي شيء إنما

لم أجد في كل شيءٍ أي شيء!

إنني ما زلتُ في درب السرى

كلما غادرتَه عاد إليّ

رحلةً طالت ولما تبتديء

وطريقٌ عاثرُ الخطو عصيٌّ

أنا أمس... حاضر... مستقبل

أي سرٍ ينطوي في خافقي⁽²⁾.

وفي هذه القصيدة يتبدى وعي الشاعر بحقيقة الحياة الإنسانية، ونلمس موقفه الفكري والأخلاقي منها، فهو ينتهي إلى الزهد بها، وبإغراءاتها وبريقها وبهارجها، حيث لا حقيقة فيها إلا الحقائق الإلهية، مـ بينا لنا أن سر قوته الذاتية في الترفع عن مغريات الحياة وتحرره منها، يكمن في تحرره من مغرياتا وشهواتها. يقول:

برئت نفسي إلى خالقها

وتحررت من الطين الشقي

وحده الله الذي في خاطري

أزل.. باق.. عظيم.. سرمدٍ

(1) حداد، الحركة الشعرية في الأردن، ص408.

(2) صدوق، ديوان رياح الستين، ص127.

ليس في دنياي ما يملكني

وأنا لا أملك منها أي شيء! (1)

وفي قصيدة "مجهول" يسأل صدوق بأسلوب فلسفي عن الغريب الذي قتلوه من يكون، إذ إن صدوقاً عاش غريباً قلقاً ومات قبل أوانه، حيث يقول:

هذا الذي قتلوه

من ذا يكون...؟!

وتساءلت كل العيون

"من ذا يكون؟..."

قمرٌ تعثر في الطريق

عيناه مطفأتان يأبى أن يفيق

كلماته كالزهر تضحك... كالجديلة

أرخت على شفتيه ظلاً من طفولة

والجرح مرتعش تغلغل في الجبين

"هذا الغريب على الطريق

من ذا يكون؟!...." (2).

ويستمر صدوق بالتساؤل عن الغريب المقتول، حيث يقول:

"هذا الذي قتلوه..."

من ذا يكون؟! "

الفجرُ يعرفه ذووه

فلتتكروه...

لا يعرفُ الفجرُ الصغار (3)

ويتحدث صدوق عن الحيرة التي يعيشها قلبه، فهذه الدنيا كل ما فيها حائر، حيث

يقول في قصيدة "يا قلب":

(1) صدوق، ديوان رياح الستين، ص128.

(2) صدوق، ديوان بقايا الإنسان، ص70-71.

(3) المرجع نفسه، ص72.

مسكين يا قلب..... إلام تظل في دنياك حائر!
كالكوكب الحيران يغفو جفنه وهواه ساهر!
أتظل تبكي يا فؤاد ليلهب الدمع المشاعر؟
اقرأ على الماضي السلام وغنّ أغنية الأزهير⁽¹⁾.
إن رفقة متأنية لشعر صدوق الوجداني ت كشف لنا عن تميز واضح لدى
الشاعر، وقدرة على التأثير والإقناع، كل ذلك بفضل المعاناة التي عاشها وأحسن
التعبير عنها.

(1) صدوق، ديوان بقايا الإنسان، ص61.

الفصل الثالث

الدراسة الفنية

إن اللغة هي الأداة الأولى للشاعر -وللأديب عموماً- أو لنقل إنها المادة الأولى التي يشكل فيها وبها بناءه الشعري بكل وسائل التشكيل الشعري المعروفة، أي أنها الأداة التي تخرج كل الأدوات الشعرية الأخرى من تحت عبايتها وتمارس دورها في إطارها⁽¹⁾.

إن اللغة لدى الشاعر وسيلة للتعبير والخلق، موسيقاه وألوانه وفكره ومادته التي سوّى فيها كائناً ذا ملامح وسمات. كائناً ذا نبض وحركة وحياة⁽²⁾، "ونقصد بلغة الشعر الإطار العام الشعري للقصيدة من حيث صور هذا الإطار وطريقة بنائه وتجربته البشرية وهو ما تؤديه اللغة الشعرية من خلال الصور الشعرية والصور الموسيقية والموقف الخاص بالشاعر في تجربته البشرية"⁽³⁾.

إن التجربة الشعرية في أساسها تجربة لغة، فالشعر هو الاستخدام الفني للطاقات الحسية والعقلية والصوتية للغة، ولغة الشعر هي الوجود الشعري الذي يتحقق في اللغة انفعالاً وصوتاً موسيقياً وفكراً... لغة الشعر إذن هي مكونات القصيدة الشعرية من خلال صور موسيقية ومواقف إنسانية بشرية⁽⁴⁾.

(1)زايد، علي عشري : عن بناء القصيدة العربية الحديثة، دار الفصحى للطباعة والنشر، ص42.

(2)العشماوي، محمد زكي : قضايا النقد الأدبي المعاصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الإسكندرية، 1975هـ، ص31.

(3) الورقي، السعيد: لغة الشعر العربي الحديث، دار النهضة العربية، بيروت، 1984م، ص65.

(4) المرجع نفسه، ص5.

فالصورة الشعرية بمكوناتها وأبعادها جانب من اللغة الشعرية، والصورة الموسيقية بأنغامها وإيقاعها وأطرها التركيبية والتشكيلية جانب من اللغة الشعرية، والتجربة البشرية كموقف إنساني -على أي نحو كان- جانب من اللغة الشعرية⁽¹⁾. ويقول غنيمي هلال: "إن أولى مميزات الشعر هي استثمار خصائص اللغة بوصفها مادة بنائية، فالكلمات والعبارات في الشعر يقصد بها بعث صور إيحائية وفي هذه الصور يعيد الشاعر إلى الكلمات قوة معانيها التصويرية الفطرية في اللغة"⁽²⁾.

والشاعر في محاولته المستمرة للكشف عن الجوانب الجديدة في الحياة وللكشف عن صورة هذه الجوانب الجديدة داخل وعيه الفردي والجماعي، وصورتها المنصهرة مع مكونات لا وعيه، يحاول باستمرار الكشف عن لغة جديدة، فكل تجربة لها لغتها الخاصة بتطور الصورة الذهنية للدلالة من حيث علاقتها بظروف معينة وأفكار وتصورات وآراء وقضايا تشكل باستمرار تشكلاً يتناسب وواقع الحياة المتغير⁽³⁾.

وإذا كان الشعر فاعلية فهذا يعني أن جوهر الشعرية وسرها في اللغة، كما أن جوهر اللوحة وسرها في تناسق ألوانها وجوهر القطعة الموسيقية وسرها في تناسق أصواتها، وهذا يعيد القول في أن اللغة ذات استعمالين ثنائي واستعمال شاعري⁽⁴⁾. إن للشعر الجديد لغة جديدة أصولها عربية ودلالاتها جديدة، وهذا شيء طبيعي في أدب جديد له مفهوم جديد، فاللغة مادة متطورة متجددة⁽⁵⁾، ومن يعاين لغة الشعر

(1) الورقي، لغة الشعر العربي الحديث، ص5.

(2) هلال، محمد غنيمي للنقد الأدبي الحديث، ط3، دار ومطابع الشعب، القاهرة ، 1964م، ص415.

(3) الورقي، لغة الشعر العربي الحديث، ص64.

(4) موسى، خليل: الحداثة في حركة الشعر العربي المعاصر، ط 1، مطبعة الجمهورية، دمشق، 1991م، ص97.

(5) الشرع، علي: لغة الشعر العربي المعاصر في النقد العربي المعاصر في النقد العربي الحديث، منشورات عمادة البحث العلمي والدراسات العليا، جامعة اليرموك، 1991م، ص6.

الحديث فإنها مختلفة في طبيعتها وفي بعض سماتها عن لغة الشعر القديم ، فهذه اللغة حافلة بالغموض والإبهام⁽¹⁾، الذي عدّه "رومان ياكبسون" سمة ملازمة للشعر، حين جعل الغموض متصلاً بجذور الشعر نفسه، بحيث يتجاوز الغموض الرسالة التي يحملها النص إلى حد يصبح المرسل والمتلقي غامضين أيضاً⁽²⁾. ولعل جانباً واسعاً من الغموض جاء بسبب احتفال النص الشعري الحديث بالانحراف وتغلل الرمز عليه، زيادة على أنه يند و منحى التكثيف، ويسكت أحياناً في جوانب يتوجب على المتلقي أن يواجهها ويسهم في تقديرها وتأويلها⁽³⁾.

1.3 التناص:

يشكل التناص ظاهرة من ظواهر الحداثة في الأدب، كما هو حال التضمين الذي يشكل ظاهرة في الأدب القديم، ولكن الذي يميز التناص في الأدب الحديث، عن التضمين في العصر القديم هو أنّ التناص يتخذ شكلاً أكثر خفاءً وباطنية في النص الحديث، فبذلك يبتعد عن المباشرة ويوسع المسافة بين النص المشار إليه والنص المشير⁽⁴⁾.

ويقول جريماس في كتابه المشترك عن السيموقراطيا : "كان الباحث السيمولوجي الروسي "باختين" أول من استخدم مفهوم التناص، فأثار اهتمام الباحثين في الغرب بحيوية الإجراءات التي تقوم عليها الدراسات المقارنة التي تضمنته والتي يمكن أن

(1) الرواشدة، سامح إشكالية التلقي والتأويل، ط 1، جمعية عمال المطابع التعاونية، عمان، 2001م، ص50.

(2) ياكبسون، رومان قضايا الشعرية، ترجمة محمد الولي حنون، ط 1، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، 1988م، ص5

(3) فضل، صلاح: أساليب الشعرية المعاصرة، ط1، دار الآداب، بيروت، 1995م، ص31

(4) أبو ديب، كمال : الحداثة، السلطة، النص، مجلة فصول، مجلد 4، عدد3، الهيئة العامة للكتاب، 1984، ص54

تمثل تحولاً منهجياً في نظرية التأثيرات، لكن عدم الدقة في تحديد المصطلح أدى إلى تعدد المسالك في فهمه وتطبيقه⁽¹⁾.

وتعد "جوليا كرسيفا" أول من شاع عندها مصطلح التناص في الستينات من خلال كتاباتها لأبحاث عن السيمائية⁽²⁾، إذ إن الإشارات التي قدمها "ميخائيل باختين" حل فيها ظاهرة التناص ولكنه لم يستعمل مقابلاً في لغته ليطلقه على هذا المصطلح⁽³⁾.

وتقول "جوليا كرسيفا" التناص هو ترحال للنصوص ، وتداخل نصي، ففي فضاء نص معين تتقاطع وتتفاى ملفوظات عديدة منقطعة من نصوص أخرى⁽⁴⁾. وترى أن التناص هو التفاعل النصي في نص بعينه⁽⁵⁾. ويعرف التناص على أنه: رتب مبدع بأفكار مبدع آخر وبآرائه وبأسلوبه⁽⁶⁾، وهو التعالق الدخول في علاقة " بين النصوص مع نص حدث بكيفيات مختلفة وهو فسيفساء من نصوص أخرى، أدمجت في النص بتقنيات مختلفة"⁽⁷⁾.

(1) فضل، صلاح: مقال بعنوان (از التوشيح بين الانحراف التناص)، مجلة فصول، مجلد 8، القاهرة، 1989م، ص 76.

(2) الزعبي، أحمد: التناص نظرياً وتطبيقياً، ط 1995، 1م، مكتبة الكتاني، اربد، ص 9

(3) باقر، محمد : التناص "المفهوم والآفاق"، مجلة الآداب، عدد 1990، 6م، بيروت، ص 65

(4) كرسيفا، جوليلم النص، ترجمة فريد الزاهي، مراجعة عبدالجليل ناظم، ط 1991، 1م، دار توبقال للنشر، المغرب، ص 41

(5) داغر، شريل : التناص سبيلًا إلى النص الشعري وغيره، مجلة فصول، مجلد 16، القاهرة، 1997م، ص 127

(6) مرتاض، عبد الملك: في نظرية النص الأدبي، مجلة الموقف الأدبي، عدد 201، 1988م، ص 56، ص 25

(7) مفتاح، محمد: تحليل الخطاب الشعري (إستراتيجية التناص) ط 1986، 2م، المركز العربي، بيروت، ص 121

أما التناص عند عبد الملك مرتاض فهو "شبكة من العلاقات النصية التي تتم بوسائل قراءة النصوص، أو سماعها، وربما حتى كتابتها، إذ كثيراً ما تكون تناصية داخلية، بحيث ينقل منتج النصوص صوراً سابقة لنفسه عن قصد أو غير قصد"⁽¹⁾.

وبعد عرض هذه التعريفات المختلفة لمصطلح "التناص" نجد أن هذه الظاهرة لها جذور في الأدب العربي القديم، ولكن الاختلاف في التسميات، إذ نجد لظاهرة التناص مصطلحات مختلفة استخدمها القدماء، حيث درسوها تحت مسميات مختلفة مثل السرقات الأدبية والمختص⁽²⁾، والتضمين، والاستشهاد والقرينة، والتشبيه، والمجاز، والمعنى فما هي إلا صوراً من التناص⁽³⁾.

وقد ظهر التناص واضحاً عند "راضي صدوق"، في معظم دواوينه الشعرية، فهو يختار من القرآن الكريم والسنة النبوية والتاريخ العربي والإسلامي ما يناسب الدلالات التي يريد التعبير عنها فيوظفه في شعره. وقد جاء التناص في محورين رئيسيين هما:

1. التناص الديني.

2. التناص الأدبي.

1.1.3 التناص الديني:

ويقصد "بالتناص الديني استحضار نصوص أدبية مختارة سواء أكانت من القرآن الكريم، أم الحديث الشريف، أم القصص الدينية، أم الإشارات الدينية وتوظيفها في سياقات القصيدة، بحيث تتسجم هذه النصوص الدينية مع النص الشعري وتؤدي الغرض أو الفكرة التي يريد الشاعر من هذا التناص"⁽⁴⁾.
ونجد عند صدوق مجموعة كبيرة من هذه التناصات، إذ استحضر كثيراً من الآيات القرآنية، حيث يقول في قصيدة "أذكريني":

(1) مرتاض، عبد الملك: في نظرية النص الأدبي، مجلة الموقف، عدد 21، 1988م، ص 56.

(2) باقر، التناص "المفهوم والآفاق"، ص 67.

(3) الزعبي، التناص نظرياً وتطبيقاً، ص 15.

(4) المصدر السابق، ص 32.

اذكريني... بشقائي... كلما الصبحُ تنفّسُ...

واذكريني كلما سهّدي الليل وأبلس!!

إن في قلبي قدساً ليس من ذكراكِ أقدسُ

فاذكريني!... أذكريني كلما الصبحُ تنفّسُ....(1).

نجد في هذه المقطوعة الشعرية تناساً دينياً، حيث اتفقت هذه المقطوعة مع قوله

تعالى: "فلا أقسم بالخنس، الجوار الكنس، والليل إذا عسعس، والصبح إذا تنفس"(2).

فصدوق يطلب من محبوبته أن تذكره كلما الصبح تنفّس، لما في إسفار الصباح من

نسيم عليل يزيد في النفق البهجة والسرور، فيطلب منها أن تتذكره وخاصة عند إسفار

الصباح، إذ تكون محبوبته على درجة عالية من الفرح والاستبشار وبروح متفائلة.

ثم يكرر التناص نفسه في موضع آخر، إذ يقول في قصيدة "توأمنا":

حلمٌ من الماضي أطلَّ أم الهوى بكرٌ جديدٌ؟

ودمٌ تدفق في العروق أذاب عن قلبي الجليدُ

فإذا الخواء بروحي الظمأى تنفّس كالصباحُ

وأفاق قلبي خافقاً بالحب من خلف الجراحُ

وتبسّمتُ، فقرأتُ في الشفتين أغنيةَ الحنانُ

وإذا بقلبينا على درب المحبة عاشقان!

من كان يدري أن روحينا على وعد اللقاء؟(3)

ويقول صدوق في قصيدته "الرسالة الأولى":

ض إنما الدنيا عذابُ

ودموعٌ... وشرابُ

وكلانا سوف يمضي مُرغماً نحو الترابُ

إن هذا للحدّ، يا روعي هو الحلمُ المُجاب! (4)

(1) صدوق، ديوان كان لي قلب، ص54.

(2) سورة التكويد، آية 17.

(3) صدوق، ديوان أمطار الحزن والدم، ص117.

(4) صدوق، ديوان كان لي قلب، ص64.

وفي هذا استحضار لقوله تعالى: "كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز، وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور"⁽¹⁾.

إنؤكد صدوق على حتمية الموت فهو نهاية كل إنسان على هذه البسيطة .
ويقول في موضع آخر في قصيدة "الرسالة الثانية" مؤكدا الدلالة نفسها:

تقولين: أنت بنيس حزين، ومثلك لا يقطف الفرقدا!

وروحي أنا من ضياء النجوم، وروحك من شهقات الردى

ولكن... أناتك إنا تراب، وسوف نعود إليه غداً....⁽²⁾

ويبرز استحضار المعاني القرآنية واضحاً في قصيدة "المهزومة"، حيث يقول:

هو: قدمي في الشمس، وخذك في الطين

قرص من حمأ مسنون

مستنقع حقد ومجون

لن أغضب... لن أغضب

لن أسفح قلبي وشجوني

الشمس تعانق أحلامي وتقبل بالنور جبيني

وتخبئ في صلب قراري

كلمات ومواقد من نار

تتفتح أزهاراً وحناناً في ومض عيوني

لن أغضب... لن أغضب

إني صانع أقدارك من قبل التكوين⁽³⁾

وفي هذا توافق مع قوله تعالى: "ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون، والجآن خلقناه

من نار السموم"⁽⁴⁾.

(1) سورة آل عمران، آية 185

(2) صدوق، ديوان كان لي قلب، ص 66

(3) صدوق، ديوان بقايا قصة الإنسان، ص 24

(4) سورة الحجر، آية 27

كما يبرز التوظيف القرآني واضحاً في قصيدة بعنوان بوهيمة
غنّ الدم المسعور.... ولتطفئ به
جنوننا في الصُّلب والترائب
غنّ الجنون في العروق... في الصدور
في عيوننا... وفي المخالب⁽¹⁾.

يلتئلم صدوق هذه المقطوعة من قوله تعالى : "فلينظر الإنسان مما خلق، خلق من ماء
دافق، يخرج من بين الصلب والترائب"⁽²⁾.

وفي قصيدة "جموح" يقول:
وكان طفلك فيك النجم مشتعلًا
يُضيء ما أظلم المحلولك العكرُ
يظل ممتشقاً صخرًا ومحتضناً
حمائم الحب لا باغ ولا أشرُ
تكلم الطفل يا أحبارهم خُسفتُ
عليكم الأرض لا تبقي ولا تذرُ
سيطلع الصبح من عينيه مبتسماً
ويمحق الليل، إن الليل منتصر⁽³⁾

وفي هذا استحضار لقوله عز وجل: "سأصليه سقر، وما أدراك ما سقر، لا تبقي ولا تذر،
لواحة للبشر"⁽⁴⁾.

وفي معرض حديثه عن الزيف والباطل والخداع في الحياة، يقول في قصيدة
"جحود":
تميزت في الناس حتى الذرى

(1) صدوق، ديوان النار والطين، ص66.

(2) سورة الطارق، آية 5، 6، 7.

(3) صدوق، ديوان رياح السنين، ص45

(4) سورة المدثر، آية 27.

ومن ذا يزاحمني ملعبـي؟

أنا الحبُّ صِرْفاً، وكأسي دهاقٌ

ولكنَّ عصري الخؤونُ الغـبي

تفـنن في الزيف حتى الهوان

وأسرفَ في الذلِّ حتى صَبـي

يجورُ على المبدعين الحياةَ

ويُرخي الذُّؤابةَ للثعلب⁽¹⁾.

وفي هذا تشابه مع قوله تعالى: "إن للمتقين مفازاً، حدائق وأعناباً، وكواعباً أتراباً، وكأساً دهاقاً،

لا يسمعون فيها لغواً ولا كذاباً"⁽²⁾.

فالآيات تتحدث عن ثواب المتقين يوم القيامة حيث يدخلون الجنة ويظفرون بما لذ وطاب من ثمراتها ويتزوجون الحور العين، ويشربون بكؤوس مملوءة من ألذ شراب الجنة ولا يسمعون شيئاً من الباطل واللغو وكذباً من القول.

حيث يبحث صدوق عن حياة مثالية يسودها الحق والعدل والصدق بعيداً عن الباطل والزيف والظلم الذي ينتشر في المجتمعات الراهنة، فهو يريد تغيير الواقع إلى واقع أفضل منه.

وفي قصيدة يسوع يولد عند الشريعة "التي يصدّرها بعبارة المناسبة (في 1967/8/28م) لدت فلسطينية عائدة إلى ديارها مولوداً عند (الشريعة) يغمر صدوق مملود في قصيدته بتطويبات إنجيلية يماهي فيها بين قصة سيدنا عيسى عليه السلام، وقصة هذا الطفل، من حيث الولادة وما ينتظره من جنایات الأبحار الطافح بها سفر حزقيال، والعيش في شجرة الخوف والبشارة التي يحملها للبشرية، والأهم من ذلك هو سؤال الهوية.

(1) صدوق، ديوان رياح السنين، ص95

(2) سورة النبأ، آية 31، 32، 33، 34.

وتتشب القصيدة الأنفاس الإنجيلية وتتذر بحرير كلماتها المنعمة با لحزن
والتوجع، فكلاهما؛ الطفل وسيدنا المسيح عليه السلام، قد سارا في درب الأحلام
والآلام⁽¹⁾، إذ يقول في القصيدة:

كأنه يسوع
يولد في مغارة
كأنه بشارة
تُطل من غيابة الظلام
أخضر كالزيتون، أبيض كالسلام
كأنه حمام
منقاره قلم⁽²⁾

غير أن هذه البشارة المكلفة بالحمية والنقاء والطهرانية لا تلبث أن تهددها النذر
التي تتربص بمجيئها وولادتها، قاططة زهرة وعددها وأحلامها بغدٍ خالص من رجس
النكران والقتل⁽³⁾، يقول:

يخط في الأسفار
نبوءة الأقدار
وما يقول حزقيال عن مبادل اليهود
عن مباءة الأمم
هذا الذي يطل عند غيمة "الشريعة"
ذبيحة الأجيال
شاهد الزمان والحضارة الوضيعة
كأنه ينطق... كالمسيح
يحمل باقة من الزهور
للعالم الجريح

(1) جميعان، محمد سلام: الحلم المغدور في بقايا قصة الإنسان، مجلة أفكار، عدد 224، 2007، ص 98.

(2) صدوق، ديوان بقايا قصة الإنسان، ص 33.

(3) جميعان، الحلم المغدور في بقايا قصة الإنسان، ص 98.

العالم المغيم العيون والضجر

ماذا يقول هذا القادم الذبيح؟

عيناه تتضحان باللهب

وثغره يثور بالغضب⁽¹⁾

وفي القصيدة تقرع للعاملين الذين لم يفتحوا عيون الحب على الحقيقة، وأغلقوا آذانهم عن سماع النداءات والاستغاثات والبشارات التي أطلقها الطفل منذراً بالقيامة ، كما فعل السيالمسيح عليه السلام من قبل "، ويسترسل صدوق في استحضار مأساة الطفل متأثراً بقصة سيدنا عيسى عليه السلام، يقول:

كأنه من غيمة ولد

تحمله.. تعود للديار

من أبوه

من ذووه؟... لا أحد!

وعندما تعود أمه إلى المدينة

صامتة حزينة

يسألها الأحبار عن صغيرها الغريب

ما تقول

ما تجيب؟⁽²⁾

إن ملامح سيدنا المسيح في شعرنا المعاصر مستمدة من الموروث المسيحي ، وخصوصاً ملامح "الصلب" و"الفداء" و"الحياة في خلال الموت" وثلاثتها ملامح مسيحية، وعلى هذه الملامح الثلاثة أسقط شعراؤنا معظم الدلالات المعاصرة التي استخدموا فيها شخصية المسيح⁽³⁾.

(1) صدوق، ديوان بقايا قصة الإنسان، ص34

(2) المرجع نفسه، ص99

(3) زايد، علي عشري استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر، ط1،

منشورات الشركة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، 1978، ص104

فالمسيح في الأدبيات الدينية، كان ظهوره ومجيئه إيذانا بنهاية اليهود بكل ما كانوا يمثلونه ويمارسونه من بغي وظلم وفسلفسوق وخروج على كل النواميس ، بما في ذلك الناموس الذي جاء به موسى عليه السلام.

ومن هذه الملامح التي استخدمها صدوق "صورة المسيح" الذي أسقط عليه آلام المحنة وما يعانيه شعبه الفلسطيني المشرّد من الظلم والاحتلال اليهودي ، إذ يقول في قصيدة "لا تصلبوه":

لا تصلبوا المسيح من جديد

دعوا دماءه على اليهود

دعوا على أبنائهم خطيئة الدماء...

تمور في عروقهم، وتشعل الندم

دعوا المسيح لليهود يحفرون جبهته

يتوجون بالقتاد هامة

دماؤه تسيل في مسالك الألم

نبارك التراب، في (بيوس)

ونبعث الحياة في محاجر العدم⁽¹⁾.

أما ملمح (الفداء) فقد امتزج كثيرًا بملمح الصليب، فكل شاعر يتحمل آلام المحنة وعذاباتها إنما يتحمل فداءً لفكرة يعتنقها، وكل مناضل سقط أو تعذب إنما يسقط أو يتعذب فداءً لدعوته التي يناضل من أجلها، أو لأمته⁽²⁾..... يقول صدوق في القصيدة نفسها:

لا تصلبوه من جديد

فأنتم (حماته) وأهله... ومرتجاء...

من أجلكم قضى.... وأسلم الحياة...

لا تصلبوا الذي فداكم بالدم

(1) صدوق، ديوان النار والطين، ص81

(2) زايد، عن بناء القصيدة العربية الحديثة، ص107.

(3) صدوق، ديوان النار والطين، ص82.

.... يا أهله.... يافدية الضمير... والضياء⁽³⁾...

ويقول:

وها هو المسيح من جديد
دماؤه مطلولة على الصليب
يا للحواريين يصلبون فادي البشر
يا أهله ومرتجاه
من أجلكم قضى وأسلم الحياة
وأنتم تمزقون جبهته....⁽¹⁾

وتملمح آخر استخدمه صدوق في ال قصيدة (الحياة من خلال الموت)، ففي الموروث المسيحي أن المسيح عليه السلام كان في العشاء الأخير قبل القبض عليه وفيما هم يأكلون أخذ يسوع الخبز وبارك وكسر وأعطى تلاميذه، وقال : خذوا وكلوا، هذا هو جسدي، وأخذ الكأس وشكرا وأعطاهم قائلا : اشربوا منه كلكم لأن هذا هو دمي الذي يُسفك للعهد الجديد، الذي يُسفك من أجل كثيرين⁽²⁾.
ويصور صدوق أمله في بعث ألف مسيح إلى فلسطين وتحررها من دنس اليهود،
إذ يقول:

وتغرزون في جبينه القتاد، حيث يونع الزهر!
وتتضحون من عروقه الدماء!
وتقطعون لحمه كما تُقطع الشياء....
(من يشتري؟....)
يا لعنة الوجود... لعنة الحياة....
على الذي يبيع فادي البشر⁽³⁾.

واستحضر صدوق قصة سيدنا آدم مع حواء عندما نزلا من الجنة إلى الأرض وتفرقا، وأصبح سيدنا آدم في حيرة من أمره ، ويتفق ذلك مع قصة الشاعر مع

(1) صدوق، ديوان النار والطين، ص83.

(2) أنجيل متى، الإصحاح السادس والعشرون.

(3) صدوق، ديوان النار والطين، ص85.

محبوبته، حيث نذر ديواناً كاملاً لحواء التي رمز بها إلى تلك المرأة التي أحبها
وشاءت الظروف وتفرقا فأصبح حائراً تائهاً ، حيث تكشف لنا هذه الصفحات عن
تجربة مرة نعتقد بأن الشاعر قد عاشها وما تزال تعيش في ذكرائه ووجدانه.

إذ يقول في قصيدة " قصة شاعر ":

إنه آدمٌ في حيرته

ضل حواء ولم يقفُ خطاها

حائراً تنسابُ في أعماقه

غصصٌ تدفنُ في النفس منهاها

أيقظتُ ذكراه من رقدتها

وأفاقتُ من دياجيرِ كراهها!

لا تسلهُ، واسأل الذكرى عسى

تكشفُ السترَ عن الأمسِ عساها (1)

2.1.3 التناص الأدبي:

إن الموروث الأدبي هو أهم المصادر التراثية وأقربها إلى نفوس شعرائنا
المعاصرين، ومن الطبيعي أن تكون شخصيات الشعراء من بين الشخصيات الأدبية
هي الألق بنفوس الشعراء ووجدانهم لأنها هي التي عانت التجربة الشعرية
ومارست التعبير عنها وكانت هي ضمير عصرها وصوته، الأمر الذي أكسبها قدرة
خاصة على التعبير عن تجربة الشاعر في كل عصر (2).

إن الباحث الأدبي يقصد به تدخل نصوص أدبية مختارة قديمة أو حديثة شعراً
أو نثراً، مع النص الشعري، بحيث تكون منسجمة وموظفة ودالة قدر الإمكان على
الفكرة التي يطرحها الشاعر أو الحالة التي يجسدها ويقولها في شعره (3).

(1) صدوق، ديوان كان لي قلب، ص26.

(2) زايد، عن بناء القصيدة العربية الحديثة، ص173.

(3) الزعبي، التناص نظرياً وتطبيقاً، ص153

يقول عز الدين إسماعيل : (ليس غريباً أن نجد الشاعر يفسح المجال في قصيدته للأحداث التي تتجاوب معه التي مرت ذات يوم بنفس التجربة، وعانتها كما عاناها الشاعر نفسه) (1)، وهكذا وجد الشاعر رهن تصرفه مئات الأحداث التي يمكن أن ترن في وجدان المتلقي وسمعه بأبعاد من تجربته المعاصرة (2). ويستحضر صدوق تناسات أدبيّة في شعره، ومن هذه الأمثلة استحضاره صورة نفسية قديمة لشاعر قديم هو عنتره العبسي، إذ يقول:

كالعيس في البداء يقتلها الظما

والماء فوق ظهورها محمول⁽³⁾

ويقول صدوق في قصيدة "أمانك يا دنيا":

أمانك يا دنيا... سدى تتكريني

فما أنا مجهول ولا المجد جاهل!

وكوني لقلبي حبة وربيعه...

فقد أنكرتني عند جوعي السّنابل

وسرت مع البداء يقتلني الظما

فما رحمت قلبي الظميء المناهل⁽⁴⁾

ثم يستدعي صدوق احتراقات (المقنع الكندي) الذي قال:

فإن أكلوا لحمي وفرت لحومهم

وإن هدموا مجدي بنيت لهم مجدا⁽⁵⁾

(1) إسماعيل، عز الدين : الشعر العربي المعاصر، قضايا وظواهره الفنية والاجتماعية، دار الكاتب العربي، القاهرة، 1967م، ص307.

(2) زايد، عن بناء القصيدة العربية الحديثة، ص174.

(3) عنتره العبسي، تقديم وشرح محمد عبدالمنعم خفاجي، ط 1، مكتبة القاهرة، 1969م، ص199.

(4) صدوق، ديوان أقطار الحزن والدم، ص36.

(5) الطائي، أبو تمام ديوان الحماسة، شرح العلامة التبريزي، ط 1 دار القلم، بيروت - لبنان، ج2، ص37.

إذ يقول صدوق في قصيدة "أمانك يا دنيا":

أمانك... ألقيتُ السلاحَ على الثرى

وطامنتُ من بأسِي، ولستُ أختلُ

(فإن أكلوا لحمي وفرت لحومهم)

وإن طعنوا رأيي فلستُ أجادلُ!

دعيني أعش كالناسِ مضطربَ الرؤى

أتاجر في سوق الورى... وأنزلُ

أبيع أغاريدي وأذبحُ مُهجتي....

وأصبغُ أحلامي وما أنا غازلُ⁽¹⁾

ويتناص صدوق مع مجموعة من الشعراء ، لكانه يرثي الشاعر في كل زمان ومكان، ويعرض فداحته جراحه المشابهة على مر العصور ويؤكد اغتراباته الحادة⁽²⁾ يقول صدوق:

وأغمض عيني عن أمورٍ كثيرةٍ

لئلا يقول الناسُ إنني عاقلُ

وأسحبُ أذيالَ الخنا متباهياً

فما ضاعَ بين الناسِ إلا الأفاضلُ⁽³⁾

فنحن هنا أمام أحاسيس المعري ، والمقنع الكندي ، والمنتبي، وراضي صدوق في وحدة شعورية مكثفة من الألم العميق، وهجاء الواقع ومفارقاته في صورة عتاب جارح⁽⁴⁾ يأتي الشاعر إلى مسألة خيانة العمر وانتهاء حدة الحياة ، وهي مسألة من أعماق المسائل الشعرية التي يعانيتها الإنسان عامة، فكيف بالشاعر وهو يشعر

(1) عيسى، راشد: راضي صدوق أديباً، مجلة أفكار، منشورات وزارة الثقافة عمان، عدد 224، 2007م، ص 86.

(2) صدوق، ديوان أمطار الحزن والدم، ص 38.

(3) المرجع نفسه، ص 86.

(4) عيسى، راضي صدوق أديباً، ص 86.

بأن عمره سينقضي دون تحقيق ق الحلم، فيلجأ إلى هجاء الدنيا وفضح زيفها وتأكيد صموده ولامبالاته بها في مكابرة شاعرية آسية⁽¹⁾، إذ يقول في القصيدة نفسها:

مضى العمرُ يا دنيا وما أنتِ فتنةٌ

ولا أنا مفتونٌ ولا عنك سائلٌ⁽²⁾

إلا إن صورة عتاب الأقارب والأحباب والأصدقاء من أكثر الصور النفسية حضوراً في القصيدة، فهو يعتز بذاته المكتفية بذاتها وعدم حاجته إلى كل هؤلاء المزيفين الضعفاء⁽³⁾، يقول:

وما كنتُ فيهم بالذي يرتجي يداً

ويسأل معروفًا، وما أنا فاعلٌ

أنا الرجلُ الطاوي على كبريائه

يُزلزلني دهري وتغلو النوازلُ

تُعانقُ أهْدَابُ النجومِ ذؤابتي

وأهصرُ عنقودَ الذرى وأناضلُ

وأكتبُ في سفر الخلود حكايتي

أنا الأملُ المقتولُ.. والدهرُ قاتلُ!⁽⁴⁾

ومثل هذه الأَشْجَانِ الكبريئة تذكرنا بزهو المتنبي و كينونته حين خاضه الواقع والحلم وأوفى له جبروته الروحي العظيم، وتدُّ يلنا إلى مفاخرة المتنبي "ابن سناء الملك" بنفسه⁽⁵⁾، ويقول:

توقدُ عزمي يجعلُ الماءَ جمرَةً

وحيلةُ حلمي تجعلُ السيفَ مبرداً

(1) عيسى، راضي صدوق أدبياً، ص 87

(2) صدوق، ديوان أمطار الحزن والدم، ص 38.

(3) عيسى، راضي صدوق أدبياً، ص 87.

(4) صدوق، ديوان أمطار الحزن والدم، ص 39.

(5) عيسى، راضي صدوق أدبياً، ص 87

وأظماً لو أبدى لي الماء منةً

ولو كان لي نهرُ المجرةِ مورداً

ولو علمتُ زُهرُ النجومِ مكانتي

لخرتُ جميعاً نحو نعلي سُجداً⁽¹⁾

ثم تبلغ الأشجان المكابرة ذروة ألمها الإنساني العميق في آخر بيت في القصيدة ،
هذا البيت الذي يميل إلى أسباب صبر الشاعر على غربته الجغرافية والنفسية وما
يلاقيه من أصناف العقوق والصدود الدنيوي الذي يلقاه الشعراء أصحاب النفوس
الصابرة المثابرة على اعتدادها للنفس لأن في داخل كل واحد منهم فارساً ليس من
البيسي يقاتل الهزيمة في أحواله النفسية وممتلكاته من الشجاعة والمكابدة ومحاوره
الآلام بإباء وشموخ وتحدياً⁽²⁾. يقول صدوق:

فيا زمنَ الويلاتِ كفَّ عن الأذى

فما أنا بالجاني ولا أنتَ عادلُ

أبيعكُ تاريخي وشعري وموقفي

بلقمةِ أطفالي، فهل أنتَ قابلٌ؟!⁽³⁾

ويستدعي صدوق ألم الشاعر (حطّان بن المعلّى) إذ يقول:

لولا بُنياتُ كزغبِ القطا

رُددنَ من بعضٍ إلى بعضٍ

لكان لي مضطربٌ واسعٌ

في الأرض ذاتِ الطول والعرضِ

لوهبتَ الريحُ على بعضهم

لامتنعت عيني من الغمضِ

(1) ديوان أبو الطيب المتنبي بشرح أي البقاء العكبري، دار المعرفة، بيروت، ص110.

(2) عيسى، راضي صدوق أدبياً، ص88

(3) صدوق، ديوان رياح السنين، ص59

وإنما أولادنا بيننا

أكبأدنا تمشي على الأرض⁽¹⁾

فالأبناء يكسرون خاطر آبائهم، ويحولون دون أن يمضي الأب - ولا سيما إن كان شاعرا - إلى آماله وأحلامه ، ففنع بالزهد الدنيوي وربما يتخلى عن مبادئه ومواقفه وربما يطوف الدنيا وينسى نفسه مقابل أن يؤمن لهم لقمة عيشهم ، سالمين من نكبات الدهر وأحزان الحياة وصعوباتها المعيشية⁽²⁾.

إن هذا البيت يشخص بعمق أسباب ترحال صدوق وهجراته الجغرافية حين فقد المكان وحلم القلب، فحرص على أن لا يفقد كذلك فلذات أكبادهم ، وفي ذلك جهاد حياتي لافت للنظر ، وإيثار قلما عرفناه عند شعراء كانوا أنانيين وعاشوا لتعظيم أنفسهم على حساب ضياع أسرهم وشتاتها مع لقمة العيش والحزن اليومي⁽³⁾.
ويصور صدوق نفسه بأنه سندباد عصره لكثرة ترحاله وغربته عن وطنه .
حيث يقول في قصيدة " لكل ليل ظالم قمر":
ارتأ هذا الكون خاطرة

كالسندباد أمضه السفـر...

مهما يطل ليل الأسى أبداً

فلكل ليل ظالم قمـر...⁽⁴⁾

فإن حال صدوق في كثرة ترحاله كحال ابن زريق البغدادي الذي يقول:
ما أب من سفرٍ إلا وأزعجه

رأي إلى سفرٍ بالعزم يُزمعه⁽⁵⁾

(1) الطائي، أبو تمام : ديوان الحماسة، تحقيق عبد السلام عبد الرحيم عسيان، إدارة الثقافة

والنشر بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ج1، 1981، م، ص166

(2) المرجع نفسه، ص88.

(3) المرجع نفسه، ص88.

(4) صدوق، ديوان أمطار الحزن والدم، ص45

(5) العامري، بهاء الدين: الكشكول، دار الكتاب اللبناني، ج1، بيروت، 1983، م، ص104.

ويذكر صدوق على سبيل التناص الأدبي أسماء بعض الشعراء أمثال قيس بن
الملوح الذي ارتبط اسمه بالقضية العاطفية، إذ يعبر صدوق عن قضيه ته العاطفية
ولكن يخيّف عليها دلالات أخرى غير عاطفية تطف في الضياع وال تشرد الذي كان
يعيشه الشعب الفلسطيني وما زال يحياه حتى الآن.

يقول في قصيدة "دموع وعذاب":

فلا تبك؟ لا تبك يا منشدي

فإن كلينا على موعد

تثور الليالي بأضلاعنا

وتحرق بالتيه ما نرتدي

ونحن كما كان قيسٌ وليلى

نضل الطريق، ولا نهتدي

تبسم؟ ودع عنك هذا القنوط

لنمضِ سوياً إلى المورد⁽¹⁾

ومن الشعراء الذين استحضروهم صدوق في شعره (أبو نواس)، حيث رأى
الشعراء في رفضه الوقوف على الأطلال في شعره ، واستبدال الحديث عنها
بالخمرة إلى ربط الشعر بعصره وتعبه عن ضمير هذا العصر ، وبهذا التأويل
لشخصية (أبو نواس) استخدم شعراؤنا شخصيته⁽²⁾. فصدوق يعبر عن حال عصر
وما يعانيه شعبه وأهله في فلسطين من وطأة الاحتلال اليهودي، إذ دمر اليهود كل
معالم الحضارة في فلسطين، يقول في قصيدة "بعد ألف ليلة وليلة":

يا عبدَ الخير، أجرني...

من غيرك، في الزمن الملعونِ يجيرُ؟

أبناءُ الشيطانِ

سرقوا سلطاني

باعوني

(3) صدوق، ديوان كان لي قلب، ص37

(4) زايد، عن بناء القصيدة العربية الحديثة، ص185.

باعوا تيجاني
قتلوا جاري تي....
وأراقوا خمرة خابيتي....
ما عاد (أبو نوّاس) يغني
فالقصرُ خواءً.
يا عبدَ الخير، أجرني
بوركت تراباً وسماءً⁽¹⁾

2.3 الرمز:

يُذكر في لسان العرب أنَّ الرمز هـ و تصويت خفي باللسان كالهمس ويكون تحريك الشفتين بكلام غير مفهوم باللفظ من غير إبانة بصوت ، إنما هو إشارة بالشفتين وقيل الرمز إشارة وإيحاء بالعييين والحاجبين والشفتين والفم، والرمز في اللغة حمل ما أشرت إليه مما يبان بلفظ بأي شيء أشرت إليه بيد أو بعين⁽²⁾.
وود الرمز عند المعجميين والبلاغيين العرب، حيث تحدث عنه ابن رشيق القيرواني وقدامة بن جعفر، إذ نجد الرمز عند العرب يتركز في أنه تعبير إشاري إما بصوت خفي أو بحركة عضو كالحاجب أو الشفتين أو العينين أو الفم أو اليد⁽³⁾.
ربما يكون "أرسطو" أقدم من تناول الرمز على أساسه، وعنده أن الكلمات رموز لمعاني الأشياء أي رموز لمفهوم الأشياء الحسية أولاً ثم التجريدية المتعلقة بمرتبة أعلى من مرتبة الحس⁽¹⁾. يقول محمد غنيمي هلال : "الكلمات المنطوقة رموز لحالات النفس، والكلمات المكتوبة رموز للكلمات المنطوقة"⁽²⁾، والرمز مجاز نوعاً

(1) صدوق، ديوان النار والطين، ص73

(2) أحمد، محمد فتوح: الرمز والرمزية، ط2، دار المعارف، 1978م، ص35.

(3) محمد غنيمي هلال، النقد الأدبي الحديث، ط 3، دار النهضة العربية، القاهرة، 1964م،

ص37، 38.

يسعف الإنسان على فهم المثل بالإشارة إليه، وتمثيله وتمويهه في آن واحد (1) وبدأت منذ مطالع هذا القرن محاولات عديدة تدد الرمز بمفهومه الدقيق. واتفق أصحاب هذه المحاولات على أن الرمز شيء حسي معتبر كالإشارة إلى شيء معنوي لا يقع تحت الحواس، وهذا الاعتبار قائم على وجود مشابهة بين الشئيين أحست بها مخيلة الرامز.

ومنذ ذلك الحين أصبح واضحاً أن الرمز بمعناه الدقيق يميز بأمرين: أولاً: أنه يستلزم مستويين: مستوى الأشياء الحسية أو الصورة الحسية التي تؤخذ قالبا للرمز، ومستوى الحالات المعنوية إليها وحين يندمج المستويان في عملية الإبداع نحصل على الرمز (2)

ثانياً: لا بد من وجود علاقة بين ذنك المستويين، هذه العلاقة التي تصب الرمز قوة التمثيل الباطنية فيه. ويدرس الرمز من خلال مستويات أربعة مهما تعددت أوجه الخلاف (3):

1. المستوى العام.

2. المستوى اللغوي.

3. المستوى النفسي.

4. المستوى الأدبي.

إن استخدام الرمز في السياق الشعري يضفي عليه طابعا شعريا، بمعنى أن يكون أداة لنقل المشاعر المصاحبة للموقف وتحديد أبعاده النفسية، وفي هذا الضوء ينبغي أنفهم الرمز في السياق الشعري ، أي في ضوء العملية الشعورية التي تتخذ الرمز أداة وواجهة لها.

الرمز إذا كان له مغزى ، فإن هذا المغزى يختلف نوعاً ما من الاختلاف من سياق إلى آخر؛ لأن الرمز من حيث هو وسيلة لتحقيق أعلى القيم في الشعر هو أشد

(1) حمدان، أمية حمدان : الرميّة والرومانتيكة في الشعر اللبناني، منشورات وزارة الثقافة والأعلام، بغداد ، ص24.

(2) أحمد، الرمز والرمزية، ص40.

(3) المرجع نفسه، ص38.

حساسية بالنسبة للسياق الذي يرد فيه من أي نوع من أنواع الصورة أو الكلمة .
فالقوة في أي استخدام خاص للرمز لا تعتمد على الرمز نفسه بمقدار ما تعتمد على
السياق⁽¹⁾.

إن الشاعر لا يلجأ إلى الـ رمز إلا لأنه مرغم على ذلك بسبب وجود عوائق
سيكولوجية واجتماعية وأخلاقية ،بالإضافة إلى أن الخوف والحياء تحول دون
اللجوء إلى التعبير مباشرة عن رغباته وأحاسيسه، أي أن الشاعر يعتمد إلى الرمز
بصورة طبيعية وقسرية في آن واحد فيظهر رموزه كمظهر للثورة على الوضع
الكليكي العادي يشوبه الصدق وعدم الافتعال ، وبصورة أخرى أن الشاعر سيغير
طرائق التعبير الشعري فيحل الرمز والإيحاء محل التقرير والإفصاح⁽²⁾.

فالرمز وسيلة إيحائية من أبرز وسائل التصوير الشعرية التي ابتدعها الشاعر
المعاصر عبر سعيه الدائب وراء اكتشاف وسائل تعبير لغوية، يثري بها لغته
الشعرية، ويجعلها قادرة على الإيحاء بما يستعصي على التحديد والوصف من
مشاعره وأحاسيسه وأبعاده رؤيته الشعرية المختلفة⁽³⁾.

أما مصادر الرمز عند الشعراء فهي مستمدة من التراث، بمصادره المتعددة،
باعتبار هذا التراث منجم طاقات إيحائية لا ينفذ له عطاء، فعناصر هذا التراث
ومعطياته لها من القدرة على الإيحاء بمشاعر وأحاسيس لا ينفذ وعلى التأثير في
نفوس الجماهير ووجداناتهم، لأنها تمثل الجذور الأساسية لتكوينهم الفكري
والوجداني والنفسي، ومن ثم فإن الشاعر يتوسل إلى إيصال الأبعاد النفسية الشعرية
لرؤيته الشعرية عبر جسور من معطيات هذا التراث⁽⁴⁾.

(1) إسماعيل، عز الدين : الشعر العربي المعاصر قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية "، ط5،
المكتبة الأكاديمية، القاهرة، 1994م، ص173.

(2) درويش، صالح: الرمز في الشعر، الأقلام، السنة الرابعة، 1968م، بغداد، العدد 5، ص35،
36.

(3) زايد، عن بناء القصيدة العربية الحديثة، ص110.

(4) المرجع نفسه، ص128.

ويضيف استخدام الرموز التراثية على العمل الشعري عراقية وأصالة، وتمثل نوعاً من امتداد الماضي في الحاضر، وتغلغل الحاضر بجذوره في تربة الماضي الخفية المعطاء كما يمنع الرؤية الشعرية نوعاً من الشمول والكلية، حيث يجعلها تتخطى حدود الزمان والمكان، ويتعاقب في إطارها الماضي مع الحاضر⁽¹⁾.

عكف الشعراء المعاصرون على استخدام الرموز التراثية في أشعارهم واستخدامها من مصادر متعددة، من موروث ديني، وموروث صوفي وموروث تاريخي وموروث أدبي وموروث أسطوري أو فولكلوري واستطاعوا من خلالها أن يعبروا عن رؤيتهم الشعرية.

ومن الشعراء المعاصرين الذين استخدموا الرموز في أشعارهم "راضي صدوق" حيث نجد مجموعة كبيرة من الرموز التي وظفها واستطاع من خلالها أن يعبر عن رؤيته الشعرية، إذ يجرد صدوق الرمز الواقعي من بعض دلالاته الواقعية ليحمله بعض إبعاد تجربته، ويجرد من الرموز التراثية دلالات ليحمله الأبعاد المعاصرة لرؤيته الشعرية.

ومن أهم الرموز التي استخدمها صدوق في شعره:

1.2.3 رموز الطبيعة:

تعد الطبيعة ميداناً واسعاً للرموز، بما تثيره في نفس الإنسان من سحر وجمال وشوق وحنين ومن توق للبساطة والفطرة والبراءة. وبسبب أهمية الطبيعة للمرء وبفعل العوامل العديدة الاجتماعية والنفسية التي تشده إليها فقد اتجه الشعراء إليها ينهلون من رموزها وصورها ويتخذون من ذلك وسيلة للتعبير عن مواجدهم

(1) زايد، عن بناء القصيدة العربية الحديثة، ص128.

وانفعالاتهم الذاتية⁽¹⁾ ويرى الشعراء في الرمز الطبيعي مسقطاً يُسقطون فيه الواقع على الطبيعة⁽²⁾ أي يصبح الرمز معادلاً موضوعياً للواقع.

تناول صدوق مجموعة من الرموز الطبيعية وأبرزها:

1. الربيع: يلح دلالة إيحائية، فيوظفه الشعراء رمزاً للخصب والنماء والأمل والتجدد وبعث الحياة والأمل، فهو عند صدوق يحمل بُشرى الأمل والفرح والتحرر من الاحتلال اليهودي بعد اندحارهم من وطنه فلسطين، يقول في قصيدة "هل يعود الربيع":

يزورنا الربيعُ يا صديقتي غداً

وسوف يفرش التلال بالزهورُ

وسوف يعبق الوجود بالعبيرُ

يزورنا الربيع في وداعة الصغارُ

ويسأل الطيور عن ملاحن الهزارُ

وسوف يزرعُ القلوب بالأمل⁽³⁾

ويؤكد صدوق بأن الربيع هو موسم للخيرات والخصب والنماء، يقول في قصيدة "هذه ساعة الفراق":

ليس بعد الربيع موسم حبٍّ

أي حبٍّ هذا الذي في الشتاء؟⁽⁴⁾

ويلتفت صدوق إلى ربيع العمر إذ إن ربيع عمر الإنسان في شبابه ، لكن هذا الربيع رحل عن الشاعر، لأنه أصبح كبيراً في العمر. إذ يقول في قصيدة "على عتبة الأربعين".

(1) شطناوي، لقمان: الرمز في الشعر الأردني المعاصر دراسة نظرية تطبيقية "، رسالة دكتورة، جامعة مؤتة، 2004م، ص107.

(2) الساعي، أحسن: الشعر الحديث في سورية من خلال أعلامه ط 1، دار المأمون للتراث، دمشق، ص369.

(3) صدوق، ديوان كان لي قلب، ص121.

(4) صدوق، ديوان رياح السنين، ص52.

رحل الربيعُ عن التلالِ

وصوحتُ خضرُ الرّوابي

والعمرُ يسألني: كبرتَ؟!

كأنه لم يدرِ ما بي! (1)

2. الخريف:

هو من الرموز التي ترد بكثرة عند الشعراء الأردنيين وهم يتخذونه رمزاً للتعبير عن مشاعرهم وأحاسيسهم ، فهو يحمل دلالة الموت والذبول والانهاء واليأس، وهو عند الشعراء يحمل في طياته دلالة الزمن القاسي وخيبة الأمل واليأس من الحياة.

إن شعور صدوق بهذه الأحاسيس ينبعث من عالمه الداخلي وما يراه في واقعه من ويلات ومصائب. إذ يقول في قصيدة (وداع):

ومرت سنونُ

وما كنتُ أدري بأنَّ الخريفَ وراءَ السنينِ

تطل علينا أعاصيره مروعةً كاحتدامِ المنونِ

وما كنتُ أدري بأنَّ الزهورَ ستذبلُ يوماً

وأنَّ الصباحَ الجميلَ سيغمضُ جفنيه ظلماً!! (2)

ويربط صدوق بين الربيع والخريف، إذ يأتي الربيع حاملاً معه البشرى والنصر والتحرر بعد انسحاب ليالي الخريف "الاحتلال اليهودي" من وطنه فلسطين وبزوغ فجر الحرية والنصر يقول في قصيدة "كاذبة".

غداً، يا شقيُّ، يطلُّ الربيعُ...

ويسحبُ عنكَ

ليالي الخريفِ

ويبتسمُ الفجرُ،

فالعالمونَ ضياءٌ سخيٌّ

(1) صدوق، ديوان رياح السنين، ص79.

(2) صدوق، ديوان كان لي قلب، ص116.

.. وحلمٌ رفيف⁽¹⁾

وتسيطر على صدوق فكرة الخريف ، بسبب إحساسه بالحزن العميق الذي ينبعث من مضي الخريف إلى عالم مجهول لا يعرف الشاعر نهايته . فيقول في قصيدة "عند مضيق الموت".

على المدى الوردي غيمةٌ ودمعةٌ وحفنةٌ من الرماد
وفي فراع الصمتِ زوبعةٌ
تشدني ضفائرُ المجهول للميعاد
يُلوحُ الخريفُ لي لأتبعه...⁽²⁾

3. الليل:

يرمز به للظلم والحزن، وقتل الأحلام، وكذلك للغربة والرغبة والخوف بل الضعف و"القسوة في ذات الوقت"⁽³⁾، فكلها تستخدم للدلالات الحزينة والمظلمة. للليل عند صدوق يرمز إلى الظلم وقتل الأحلام بسبب احتلال أرضه. يقول في قصيدة "إلى أمي":

مضى يا أمُّ زهو الفجرِ ما عادت لنا أيامٌ
وحطَّ الليلُ خيمتهُ... وغيب موكبَ الأحلام
وشاه النورُ في الأعين... جفت شُعلة الإلهام
فلا نجمٌ يغازلنا... ولا تُسكرنا أنسام
معاني الله مطفأة... هنا... في عالم الأقزام⁽⁴⁾

ويأتي الليل عند صدوق ليعبر عن الحزن الشديد والمستمر والمقيم في نفسه لا سيما عندما يتحدث عن مدينته "طولكرم" مسقط رأسه، ومهد حياته، بعد سقوطها تحت وطأة الاحتلال اليهودي يقول في قصيدة "المدينة الصامتة":

(1) صدوق، ديوان النار والطين، ص42.

(2) صدوق، ديوان بقايا قصة الإنسان، ص86.

(3) الجبار، مدحت الصورة الشعرية عند أبي القاسم الشابي، ط 2، دار المعارف، مصر، 1995م، ص202.

(4) صدوق، ديوان رياح السنين، ص71.

تلك هي الحياةُ في المدينة الصامته
النهارُ فيها يسحب ذيله وهو يسيرُ خلفَ جنازة الشمس...
والليل فيها هيكلاً حزيناً تستيقظ تحت أعمدته العيون المؤمنة
فتسكب ضوءها في محيط الظلمة، لتسبح في عوالم أخرى، غير
هذه العوالم، وتحلق في دنيا غير دنيا الناس... (1)

4. الفجر:

يحمل الفجر دلالة الخلود، والإشراق والأمل والحرية فهو عند صدوق رمزٌ
للحرية والنصر والتحرر. يقول في قصيدة "دم الفداء":
الحاملين دماءهم بأكفهم
مهرأ بعرسِ المكرّمات يُقدّم
الخارجين من الجراح، مواكباً
تجتأح عاتية الرياح وتقهم
الصانعين من الهزيمة نصرهم
فجراً يخرُّ له الدجى المظلم (2)

يقول أيضاً:
لكنَّ فجر الحقّ تشرقُ شمسُه

دوماً ويهوي البغيُّ وهو محطّم (3)
ويقول في قصيدة سلاماً للأرض السلام "مؤكداً أن الفجر سوف يبرز من جديد
يحمل معه البشارة والسعادة والسلام:
إنِّي ألمحُ راياتِ الثَّأرِ مزارعَ من حبٍّ ووئامٍ
وأرى في أعين أحبّائي أشواقَ غرامٍ....
يا أهلي... يا كلَّ العطرِ العابقِ في الأكمامِ
هبوا كالْفجرِ السَّاطعِ من خلفِ غمامٍ...

(1) صدوق، ديوان الحزن أخضر دائماً، ص76.

(2) صدوق، ديوان أمطار الحزن والدم، ص6.

(3) المرجع نفسه، ص8.

أقسمت لئن عدتم في ركب الأيام
سأضُمُّ العالمَ في صدري عنوان سلام⁽¹⁾.

5. البحر:

وهو رمز للحياة بكل ما فيها من صراعات ومرارات وآلام وغربة، فالحياة كالبحر في غموضها واتساعها ورهبتها.
أما البحر عند صدوق فهو يرمز به إلى القضايا المعاصرة التي تؤرقه، وكذلك للمعاناة المادية والمعنوية التي يعيشها، إذ يصور صدوق في قصيدته "رحلة العبث" رحلة حياته ببحار تائه قدفته الحياة وتغرب فيها كالحيوان لا يملك سوى الشعر مشغله في مواجهة ظلمتها⁽²⁾. يقول:

تظل تلوب... تضربُ في متاهِ البحرِ
كالحيوانِ

يثورُ الموجُ كالمسحورِ
وأنت تثورُ

وليس لديك في برديك، غير الشعر!
تُغني للدجى، للصمت للإنسان.

تظل تصعدُ المجدف، تنحرفُ في ظباه الموج
تهدد ثورة الأنواء
وأنت ممزقُ الأشلاء
كالمجدف⁽³⁾

6. الأفعى:

جاءت الأفعى صدوق رمزاً للدلالة على أعداء الأمة ، ورمزاً للطامعين المستغلين الذين يريدون أن يأكلوا خيرات وثمرات وطاقات الوطن.
يقول في قصيدة "دم الفداء":

(1) صدوق، ديوان أمطار الحزن والدم، ص85.

(2) درويش، الرمز في الشعر الأردني، ص112.

(3) صدوق، ديوان النار والطين، ص18.

يا مستعيرَ السيفِ من أسـيـاده
ومناطقِ الهـيـجاءِ وهو مُلثـمٌ
مستجدياً في الأرض، تحلبُ ضرعها
بالسيفِ في أرضِ العروبة تُفطمُ!
إنا بلوناكم، فكنتـم حـيـةً
رقطاعَ تنهشُ في الظلامِ وتهزـمُ⁽¹⁾

2.2.3 الرموز الخاصة:

انفرد صدوق بمجموعة من الرموز التي وظفها توظيفاً خاصة به، إذ أكسبت تلك الرموز النصوص الشعرية العمق والجمال وإثراء التجربة الشعرية لديه. ومنها:

1. النار:

ويرمز بها إلى التطهر من آثام المرحلة السياسية التي يعبر عنها في قصائده ،
فالنار تقوم بوظيفة الحرق كما أنها تكشف عن ذفس تتلظى بعذاباتها . فإذا كانت
النار تخلف الرماد المتلفع بسخونته، فإن الحياة تخلف الحزن، فمن عذوبة حارة
النار تولد حقيقة الأشياء وينبت مجددا معاني الخلاص من هذا الزمان .⁽²⁾ يقول في
قصيدة بعنوان "من قلب النار":
ستظل الكاساتُ تدورُ
هذا زمن الري
أطفئ في أمعائك نارَ العطشِ التاريخي
الساعة تشربُ في بيتي
الساعة تمضغُ أعصابي... تطعنني... تسرقني.
تصنعُ لي موتي.
لكن غداً يومٌ آخر

(1) صدوق، ديوان أمطار الحزن والدم، ص11.

(2) جميعان، محمد سلالهلم المغدور في بقايا قصة الإنسان، مجلة أفكار، العدد 224،
2007م.

ستظل الكاساتُ تدورُ
ويظل الزمنُ المطعونُ يدورُ

بيتي قد يصبح بيتكُ
موتي.. لا بدَّ.. غداً يصنعُ موتك⁽¹⁾

والنار أولاً وأخيراً هي طاقة، ولكنها عند صدوق طاقة هدامة ، وبفعل هذا الهدم
الذي تحدثه النار يولد في نفس الشاعر حالة قهرية عاصفة . يقول في قصيدة
"المهزومة":

لن أغضب... إني لن أغضب
إني أطفأتُ الجذوةَ في كبدي
بيدي... بيدي⁽²⁾.

فصدوق يُطفئ النار في كبده، وهذا يدل على أنه بلغ الذروة في الاحتراق
والغضب. يغيب في التسامي والتحليق بعيداً عن قيود المجتمع والواقع الذي يعيش
فيه⁽³⁾.

2. الرياح:

الريح حركة مضادة للسكون .وقد تكون ريحاً رخاء داعية للاسترواح ، أو عاتية
تتذر بالقلق والانزعاج، فهي رمز للخير أو الشر لكن عند صدوق تبدو الرياح
عريضة هوجاء تحمل في هبوبها العطب والفساد وتملك القدرة على الفتك بالذات
الإنسانية واقتلاع الأحلام⁽⁴⁾. يقول في قصيدة "عيون حزيرانية":

قباي لم تزل خرساء... لا كلمة
شفاهي أطفأتها الريح... لا بَسْمَة
سمعتُ صراخكم في الليل يطوي غربة الآفاق
فضجَّ الشوقُ في صدري

(1) صدوق، ديوان بقايا قصة الإنسان، ص30.

(2) المرجع نفسه، ص15.

(3) جميعان، الحلم المغدور، ص100.

(4) المرجع نفسه، ص101.

وقلت أهدد الأحزان والأشواق:

ترى يأتون من خلف الليالي موكباً من نور؟

ترى يأتون؟⁽¹⁾

فالريح، لجنونها الأصمّ لا تعتق الشاعر لكي يدوح ويترجم عن مشاعر التأذي بل تكبح فمه عن الجأر بالشكوى وإيصال صوت مأساته، فهي قوة كابحة للتعبير كما إنها كابحة له عن رؤية مصيره ودرب آماله⁽²⁾. يقول في قصيدة "من قلب النار":

وأراك عيناً أطفأتها الريحُ باردةً الشحوبِ

وأراك كالشفة اليبوسة ليس تبسمُ في انتظارٍ فمٍ رطيب⁽³⁾.

فهذه الصور المقتبسة، هي ثمرة من ثمرات الرياح وفعلها المجنون جراء حركتها المربكة واللاطمة بقسوة جارحة لجوهر الإنسان، حيث تذروه وتلقيه في منابع السراب ليزوب في النسيان في كهف بلا دف⁽⁴⁾. يقول في قصيدة بقايا قصة الإنسان:

وتحملني رياحُ الليل والنسيانِ

غداً آوي إلى كهفٍ بلا دفٍ ولا ظلٍّ

وليس لديّ من صحبٍ سوى الديان!⁽⁵⁾

وتسفع الرياح صدوق، فالسفع إنما يكون من النار والريح معا، وهي مفردة تحمل في دلالتها التعبيرية معنى الشدة والعنف الذي يترك أثراً مبرحة، فهي رياح سموم لافحة إلى درجة تغير اللون، وبهذا تكون الرياح معادلاً لكل القوى المتواطئة على المثلث في كل أبعاده ومتواطئة على قصة الإنسان⁽⁶⁾. يقول في قصيدة "بقايا قصة الإنسان":

(1) صدوق، ديوان بقايا قصة الإنسان، ص75.

(2) المرجع نفسه، ص100.

(3) المرجع نفسه، ص32.

(4) المرجع نفسه، ص100.

(5) المرجع نفسه، ص9.

(6) المرجع نفسه، ص100.

هنا رقدت بقايا قصة الإنسان!
أكادُ أثورُ من تحت التراب... أكادُ أصرخُ من وراءِ
الصمت: يا ويلي!
فتسفعني رياح الموت.... تلطمني يد النسيان!⁽¹⁾
3. الدم:

والدم في رمزيته يشمل على الأهواء المفترسة، وي رتبط بالعنف والقتل والذبح،
وبالحرب التي لا تذر من شرورها أحداً، بالإضافة إلى فكرة الفداء المقدسة
والتضحية⁽²⁾ فصدوق يجعل الدم رمزا للتضحية والكفاح وا لبحث عن التحرر
والنصر يقول في قصيدة "طلعنا من الليل نورا ونارا":

فلسطينُ هذا ربيعُ الضياء

تبسمُ في حالكاتِ الظلم

أطلَّ على الكون نيسانهُ

وقد كان أسطورةً في العدم

طلعنا من الليل نورا ونارا

وأنشودة من كفاحٍ ودمٍ

وسوف نسطرُ عبر المدى

ملاحم لم يبتدعها قلم

ونرفع فوق جبين الذرى

على قمم المجد أسمى علم⁽³⁾

ويتخذ صدوق من الدم رمزا للشرف والكرامة والحفاظ على الأوطان . يقول في
قصيدة "وداع عند الشريعة":

وقد يُقال إننا

نحنُ الذين ضيَّعوا الترابَ والوطنَ

(1) صدوق، ديوان بقايا قصة الإنسان، ص9.

(2) المرجع نفسه، ص101.

(3) صدوق، ديوان أمطار الحزن والدم، ص15.

وإننا بعنا القرابَ والسيوفُ
وقد يقالُ إننا
نُزَيِّفُ النضالَ..... نَكْذِبُ الكفاحَ.... نقبِضُ الثمنُ
وليس في عروقنا دمٌ شريفٌ (1)
ويقول في قصيدة إلى الصغيرة "رلى" جاعلاً من الدم ماءً يروي به تراب
الوطن، فالحرية مقابل الدم. يقول:
تُربتنا السمرَاءُ ظمأى لنا...
وليس تسقيها دموعُ الندمِ
هاتي دماءَ الجرح... يا طفلي
نسقي ثراها عنفواناً ودم! (2)
والدم رمز للجراح والعنف والقتل والذبح والحرب. يقول في قصيدة
"احتفالية في انتظار البطل":
فأنا من الأرضِ التي لَمَّا تزلُ
جرحاً يسيل مدامعاً ودماءً
تغفو على سننِ الحرابِ سبيةً
تترقبُ الآباءَ والأبناءَ (3)
كما أن الدم رمز للشجاعة والإباء. إذ يقول:
سالتُ على بيضِ السيوفِ دماؤها
وتمنعتُ أن تُستذلَّ إباءُ
صانت قداستها بطهرِ جراحها
والجرحُ يحفظُ للوجوه الماءَ (4)

(1) صدوق، ديوان بقايا قصة الإنسان، ص49.

(2) صدوق، ديوان أمطار الحزن والدم، ص72.

(3) صدوق، ديوان رياح السنين، ص114.

(4) المرجع نفسه، ص114.

3.2.3 الرمز اللوني:

ومن الرموز التي استخدمها صدوق في شعره للرمز اللوني ويقصد به : توظيف الألوان بتقنيات أسلوبية متفاوتة كأن يعبر عن القيمة اللونية إشارياً ، وذلك بذكر اللون أو أسمه في البيان ، أو كان يعبر عن القيمة اللونية فنياً من غير ذكر للدال اللوني، الذي يفهم عبر تجليات دلالة السياق العامة⁽¹⁾.

ومن أكثر الألوان وروداً في شعر صدوق اللون الأسود والأبيض والأخضر والأحمر والأصفر فكيف ظهرت هذه الألوان؟ وما دلالاتها الإيحائية في شعره؟
أ. اللون الأسود:

يمثل اللون الأسود "ما يستنكره ويتشائم به من المعاني، ويمكن أن تفسر هذه الدلالة بارتباط اللون الأسود بمواقف مقبضة ومنفرة وحزينة"⁽²⁾.
ويظهر اللون الأسود عند صدوق للدلالة على الشر والحقد والحياة الكريهة الملعونة التي يعيشها، يقول في قصيدة "بعد ألف ليلة وليلة":
"اللحم الأسود ملعون، لو شاء الله للون هذا اللحم

الأسود.

يا جلاّد السوء، سياتك، أطعمها هذا الزنخ الموبوء
أطفئ في عينيه بياض الضوء
إختم هذا العبد الملعون بختم السلطان
أوثقه هنا. لا يبرح أبداً ديواني...!"⁽³⁾

ويرمز صدوق بالليالي السود إلى الاحتلال اليهودي، إذ عاش الشعب الفلسطيني ليالي حالحة الظلمة تحت وطأة الاحتلال. يقول مخاطباً أمه في قصيدة "إلى أمي":
هنا، يا أمّ، ترضعنا الليالي السود غسلينا.....
ونسقيها الدم القاني.... ونطعمها الشرايينا.....

(1) أبو خضرة، سعيد جبر : محمد تطور الدلالات اللغوية في شعر محمود درويش، دار الفارس للنشر والتوزيع، عمان، 2001م، ص98.

(2) المرجع نفسه، ص98.

(3) صدوق، ديوان النار والطين، ص76.

نضيء نهارها الداوي.... بأعيننا..... وتطفينا!
نعيشُ لها وتتحرنّا.... وتغرسُ رمحها فينا....
وتلغقُ جرحنا النازفَ، للموت.... تُضحينا⁽¹⁾

وتعمق الدلالة الإيحائية للون الأسود باستخدام صدوق بعض درجات اللون
الأسود كالسمرة التي تدل على المحبوبة السمراء . إذ يقول في قصيدة "الرسالة
الخامسة":

يا أنتِ... يا سمراء... يا من تحلمين
بالزورق الفضي يمخرُ في السنين...
بم تحلمين؟!

بالفيلا والقصر المكين؟
لا شيء مما تسألين⁽²⁾.

ويجعل صدوقن اللون الأسود صفة جمالية ، لا سيما عندما وصف عيون
المحبوبة بأنها سوداء. يقول في قصيدة "رموش طوال":
خيطان مضطربان من ليلٍ

ناران تلتهبان من حولي

أخشى على عينيَّ حرَّهما

أخشى العيونَ السودَ في الكحل⁽³⁾

2. اللون الأحمر يظهر اللون الأحمر بدلالات متعددة ، توزعت بين المعاني
الإيجابية والسلبية، وارتبط اللون الأحمر بلون الدم لذلك صار الأحمر رمزاً للخطر
والموت ورمزاً للقتل والثورة، كما هو رمز للحياة⁽⁴⁾.
وظف صدوق اللون الأحمر للدلالة على الموت والتضحية في سبيل تحرير
الوطن.

(1) صدوق، ديوان رياح السنين، ص72.

(2) صدوق، ديوان كان لي قلب، ص75.

(3) المرجع نفسه، ص94.

(4) درويش، الرمز في الشعر الأردني المعاصر، ص299.

إذ يقول في قصيدة "لعنة على الشعارات الكاذبة".

وترسمُ في طولِ الريحِ أغنيةً من النارِ

عن الإنسان،

عن الحرية الحمراء،

عن الطغيان،

عن الأحرار والشهداء،

عن الأبطال،

عن القدس الجريح يغطُّ في العار⁽¹⁾

ويرمز صدق باللون الأحمر إلى الشعب الفلسطيني المدافع عن أرضه . إذ يقول

في قصيدة (هزيمة النصر):

الدمُ الحر تلطي هـادراً

زلزلَ الروحَ جنوناً واصطحاباً

البراكينُ أفاقت، لن تـرى

في فضاءِ الله صرحاً أو يباباً

يا فلسطينُ أنظرينا نضطرم

قد صهرنا الأحرفَ الحَمَرَ كِتَاباً⁽²⁾

3. اللون الأخضر ويرمز اللون الأخضر إلى لالات متعددة من أبرزها

الخصوبة والخير والجمال والعطاء والتفاؤل والأمل⁽³⁾.

ويظهر الإيحاء الرمزي عند صدوق للون الأخضر، إذ رمز به إلى التفاؤل

والأمل، فهو في قصيدة الحزن أخضر دائماً يجعل من الحزن أملاً وتفاؤلاً.

(1) صدوق، ديوان النار والطين، ص53.

(2) صدوق، ديوان أمطار الحزن والدم، ص20-21.

(3) سيرنج، فيليب، الزموز في الفن، الأديان، الحياة، ترجمة عبد الهادي عباس ط 1، دار دمشق،

1992م، دمشق، ص423.

يقول:

قل لي: هذا الخيطُ الأخضرُ
هل ينبتُ من أعماقٍ مجهولة؟
ألمحُ ورقاً لا تبصره إلا عينُ الروح
والمحُ، في الباطن، بعضُ جروحٍ
هل ينبت هذا الخيطُ الأخضرُ من غصنِ الدم؟
قالوا: قد ينبتُ شوكٌ من وردٍ والفرحُ الطفلُ
قد يزهو من أحزانِ الليلِ
أخضر هذا الحزنُ، يظلُّ، وأنتَ
الراحلُ في التيه، وحيداً تسألكَ الريحُ متى تُلقِي المرساةَ....
متى تحتضنُ الشيطان؟⁽¹⁾

ويستخدم صدوق اللون الأخضر لدلالة على الخصب والجمال والسعادة والخير
والعطاء. يقول في قصيدة "المدينة الصامتة":
السهل الساحلي ممتد إلى أعماق اللانهاية...
والربوة الخضراء متكئة على كتفي ذلك السهلِ
هناك تنطلق ملائكة الأبدية...
ترفرف في سماء تلك الربوة الخضراء!⁽²⁾
ويصف صدوق مدينته طولكرم مُضيفاً عليها اللون الأخضر، لخصد وبتها
وجمالها. يقول:

المروجُ الخضراءُ تتنفس شعاع الشمس، بملءِ أعشابها...
والعصافير الغريرة ترقزق، حالمةً، سعيدة...
أما الحمامُ البيضُ في بيت جدتي، فأنها تتقر الحبَّ، بينما يدلجُ
الفلاحون إلى مزارعهم، وفي أيديهم الفؤوس العقفاء...⁽³⁾

(1) صدوق، ديوان الحزن أخضر دائماً، ص45.

(2) المرجع نفسه، ص71.

(3) المرجع نفسه، ص77.

أما الرموز الأدبية، عند صدوق فوجدناها قليلة تتمثل في الحديث عن قيس وليلى، وقد اتخذ الشعراء من قيس رمزاً للعاشق المخلص في حبه، وكما استخدموه رمزاً لحب الوطن.

أما عند صدوق فنجد "قيس وليلى" رمزاً للفلسطيني الذي يعاني من التشرد والغربة والضياع وليلى رمز لفلسطين والوطن الضائع. إذ يقول في قصيدة "دموع وعذاب":

فلا تبك؟ لا تبك يا منشدي

فإن كلينا على موعِد

تثور الليالي بأضلاعنا

وتحرقُ بالتيه ما نرتدي

ونحن كما كان قيسٌ وليلى

نضلُّ الطريقَ، ولا نهتدي

تبسم؟ ودغْ عنك هذا القنوطُ

لنمضِ سوياً إلى المورد⁽¹⁾

لقد تمكن الشاعر راضي صدوق من خلال استخدامه للرموز المختلفة ، أن يعبر عن رؤيته الشعرية ، ولأعاد تجربته التي عاشها عبر مسيرة حياته الطويلة خير تعبير، ينجح في توظيف الرموز بإشكاله المختلفة للتعبير عن دلالات اي جابية وسلبية معا.

3.3 الصورة الشعرية.

1.3.3 مفهوم الصورة الشعرية:

الصورة الشعرية واحدة من الأدوات التي يستخدمها الشاعر في بناء قصيدته وتجسيد الأبعاد المختلفة لرؤيته الشعرية ، فبواسطة الصورة يشكل الشاعر أحاسيسه

(1) صدوق، ديوان كان لي قلب، ص37.

وأفكاره وخواطره في شكل فني محسوس ، وبواسطتها يصور رؤيته الخاصة للوجود والعلاقات الخفية بين عناصره⁽¹⁾.

ويقصد بالصورة الشعرية : "هي خلق جديد لعلاقات جديدة في طريقة جديدة من التعبير"⁽²⁾ وأنها رؤية ولكنها ليست رؤية حاملة، أنه رؤية واعية لا تلتقط وتميل وتختار وتركب وتكون مشهدا كاملا"⁽³⁾.

ويرى أحممطلوب أن الصورة هي : "طريقة التعبير عن المرئيات والوجدانيات لإثارة المشاعر، وجعل المتلقي يشارك المبدع بأفكاره وانفعالاته"⁽⁴⁾.

والصورة هي ثمرة عاطفة الأديب الخاصة وما يشعر به في نفسه إزاء الأشياء بعد أن تمتزج بمشاعره وما يضيفه عليها من حالاته النفسية الوجدانية⁽⁵⁾.

ونجد الصورة الفنية عند بشرى صالح هي "المرآة العاكسة للعلاقات ونمطها وكيفية امتزاج عناصرها على نحو يكشف عن خصوصية ذهن الشاعر والمؤثرات فيه"⁽⁶⁾.

وتعرف الصورة الشعرية بأنها : تركيب لغوي لتصوير معنى عقلي وعاطفي التجسيد أو التشخيص أو التجريد أو التراسل⁽⁷⁾.

(1) زايد: عن بناء القصيدة العربية الحديثة، ص68.

(2) عباس، إحسان: فن الشعر، ط3، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ص260.

(3) إسماعيل، عز الدين: الأدب وفنونه، ط6، مطبعة السعادة مصر، 1976، ص146.

(4) مطلوب، أحمد: الصورة في شعر الأخطل الصغير، دار الفكر للنشر والتوزيع، عمان، 1985، ص35.

(5) منصور، عبد الرحمن: اتجاهات النقد الأدبي في القرن الخامس، مطبعة دار العلم، القاهرة، 1977م، ص368.

(6) بشرى، صالح: الصورة الشعرية في النقد العربي الحديث، ط 1، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1994، ص44.

(7) أبو أصبع، صالح: الحركة الشعرية في فلسطين الم حثلة منذ عام 1948-1975م، ط1، المؤسسة العربية للدراسات النشر، 1979م، ص31-75.

والصورة الشعرية ليست اختراعاً شعرياً حديثاً، وإنما هي أداة من الأدوات الشعرية التي استخدمها الشاعر منذ أقدم عصور الشعر، وشعرنا العربي القديم حافل بالصور الشعرية البارعة التي استخدمها الشعراء في تجسيد أحاسيسهم ومشاعرهم⁽¹⁾ ولم يكن اهتمام النقاد والعلماء العرب بدراسة الصورة رد فعل لجهود اليونان القدماء في دراسة الصورة⁽²⁾، لا يمكن تصور شعر خال من الصورة⁽³⁾، لأن الصورة هي جوهر الشعر وأداته القادرة على الخلق والابتكار، والتعديل لأجزاء الواقع، بل اللغة القادرة على استكناه جوهر التجربة الشعرية وتشكيل موقف الشاعر من الواقع وفق إدراكه الجمالي الخاص⁽⁴⁾.

ونجد جهوداً للنقاد القدامى في دراسة الصورة ومن هؤلاء الذقادر: الجاحظ، وابن قتيبة، وقدامة بن جعفر، وابن طباطبا، والآمدي، وابن جني، وابن هلال العسكري، وابن رشيق القيرواني، وعبد القاهر الجرجاني..... وغيرهم.

وانتقلت النقاد المحدثون إلى أهمية الصورة الفنية في النص الإبداعي، فتباروا في ميادين بحثها، فدرسوا جذورها ووظائفها وأنماطها وكل ما يتعلق بطبيعتها مفردين لها كتباً أو بحوثاً أو فقرات.

أما منطلقاتهم متعددة بتعدد قناعاتهم، فانطلق بعضهم من ثقافته التراثية مقرأً بما أنجزه العقل العربي وانطلق الآخرون من ثقافته الأجنبية ملمحاً إلى أثر الأجانب في نظرة العرب للصورة⁽⁵⁾.

(1) زايد، عن بناء القصيدة العربية الحديثة، ص68.

(2) عبدالرحمن، نصرت: الصورة الفنية في الشعر الجاهلي، مطبوعات مكتبة الأقصى، عمان، 1976م، ص8.

(3) العشماوي، محمد زكي: فلسفة الجمال، دار النهضة العربية للطباعة والنشر في الفكر المعاصر، بيروت، 1980، ص169.

(4) الجبار، مدحت: الصورة الشعرية عند أبي القاسم الشابي، ط2، دار المعارف، القاهرة، 1995، ص6.

(5) الصائغ، عبدالإله: الصورة الفنية معياراً نقدياً، ط1، 1987م، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ص124.

والصورة الشعرية في الشعر العربي الحديث هي: "إبداع خالص الروح، وهي لا يمكن أن تتولد من التشابه وإنما من التقريب بين حقيقتين متباعدتين كثيرا أو قليلا ، وكلما كانت الصلات بين الحقيقتين اللتين يقرب بينهما الشاعر بعيدة ودقيقة كانت الصورة أقوى وأقدر على التأثير وأغنى بالحقيقة الشعرية⁽¹⁾.

2.3.3 الصورة الشعرية عند راضي صدوق:

يرى صدوق أن الصورة الشعرية هي : كيفية وجود من حيث هي بناء فني واتقاء بالرؤيا واحتواء لها وهذه الصورة ليست على نمط واحد ، لأن الصورة الشعرية، كما شاعت في العقود الماضية في أوساط الشعراء والنقاد والدارسين، لها مفاهيم وأنواع ودلالات، وهي عند شعراء الكلاسيكية غيرها عند شعراء الرومانسية أو الرمزية أو السريالية⁽²⁾.

فالصورة الشعرية عند الكلاسيكيين أداة تعبيرية من تركيب الذهن والمعادلات التشبيهية أي أنها في النهاية - مجرد صورة فوتوغرافية عن الواقع ، ويرى صدوق بأن العقل إذ تدخل مباشرة بتشكيل الصورة الشعرية في القلب صيدة يفسد الرؤية الشعرية، لأن الصورة العقلية ليست وليدة الإحساس المباشر، بل هي وليدة شاعرية مركبة من خيال وفكر ومفهوم الإبداع الشعري منذ القدم يقوم على ثلاث قوى هي: الشعور والخيال والعقل فلا بد من الشعور والخيال في تشكيل الصورة⁽³⁾.

ويؤكد صدوق بأن الصورة المنتظمة الواضحة المركزة التي تعبر عن حقائق موضوعية تستند إلى قوانين العقل والطبيعة ، لأن مثل هذه الصورة تتعارض مع جوهر فنية الشعر وماهيته في الأصل. فالخيال فيها "مروص" والعاطفة "ملجومة"... إنها صورة عقلية.. لوحة جامدة لوجود جامد . إنها لا تتغلغل في جوهر الأشياء، بل تعكس صورها الخارجية، إنها متركبات لفظية ومحسنات بديعية لا أكثر⁽⁴⁾.

(1) زايد، عن بناء القصيدة العربية الحديثة، ص72.

(2) مقابلة شخصية أجريتها مع الشاعر بتاريخ 2008/2/25م.

(3) المرجع نفسه.

(4) مقابلة شخصية أجريتها مع الشاعر بتاريخ 2008/3/1م.

بينما الصورة في الشعر الرومانسي -مثلاً- تقوم على مبدأ التداعي ، كما هي الحال في الأحلام وقد تكون خالية من ال معنى... وقد لا تكون مترابطة الأجزاء، لأنها ليست وليدة الوعي في الشاعر، والصورة الشعرية المبدعة حلم يرفض مختلف أشكال الترتيب المنطقي.

أما الصورة الشعرية في المدرسة الرمزية، فهي غريبة خارجة عن المألوف لا تخضع لقوانين العقل ومقوماته ونتائجه، وشعراء الرمزية حاولوا عن الصور الطبيعية العادية ولاحقوا الغريب من الصور، والصورة الشعرية عند أبناء المدرسة الرمزية تقترب من الرؤيا الصوتية⁽¹⁾.

ويرى السرياليون أن القصيدة مغامرة داخلية تهبط في الصورة من عدم ، وبعضهم يراقب الشاعر في نهاية هذه المغامرة، يأتي بصورة عاصفة متفجرة، قادرة على إشاعة حالة إيحائية في القارئ تتخطى العالم الراهن خلق صور من لا شيء خلق من عدم . ويجمع بعضهم إلى حد القول أن الصورة في القصيدة يجب أن تكون عملية إعدام المادة وتحويلها إلى سراب.... إلى حلم موسيقي⁽²⁾.

ويؤمن صدوق بالصورة الشعرية القادرة على احتواء العاطفة، ونقلها وإيصالها ، فالصورة عنده "آلة" أو "وسيلة" لإبراز الفكرة والخفة والخاطرة، ووسيلة لإدخال موضوع مجرد وتقريبه من ذهن والتصور والاستيعاب.

ويجد القارئ أشكالاً شتى متباينة الصور الشعرية في شعر صدوق ، إذ يجد الصورة الكلاسيكية التي هي أقرب ما تكون إلى صورة فوتوغرافية عن الواقع، والصورة الرومانسية الحسية المتجسدة بالبناء الموسيقي للقصيدة، ونجد الصورة الرمزية والسريالية في قصائد عديدة.

ويفضل صدوق نمطاً معيناً من الصور الشعرية، لكنه لا يتعصب لنمط أو لون أو نوع دون الآخر، فكما أن القصيدة عنده هي بذات اللحظة واللحظة هي التي تختار الوتيل التي تحدد الصورة الشعرية، فالصورة تتبع من عالم الوجدان ، فهي لا تكون صوراً ناجزة جاهزة واقعة من المكان.

(1) مقابلة شخصية أجريتها مع الشاعر بتاريخ 2008/3/1م.

(2) المرجع نفسه.

3.3.3 أنماط الصورة الشعرية عند راضي صدوق:

1.3.3.3 الصورة البصرية:

إن الصورة البصرية : هي نتاج تتعاون فيه كل الحواس، وكل الملكات، وإنها بمثابة الإلهام يأتي نتيجة قراءات الشاعر ومشاهداته وتأملاته ومعاناته، إلى جانب قوة ذاكراته وسعة خياله وعمق تفكيره⁽¹⁾.

فهو يخطف في حدس الشاعر المبدع لحظة فائقة تثير معالم نفسيته جميعاً، لذلك يبدو وصفه الوجداني كثير التعقيد في الدلالة على غموض التجربة، فلحظة الحدس تضيق ضمير الشاعر وأعماق وجدانه الغائر المهم وتثقل فيه أحوالاً ومضاعفات كثيرة العمق واللبس⁽²⁾.

إن الإحساسات التي تصح نعتها بالجمال على أتم وجهه ، هي الإحساسات البصرية لكونها تمثيلية تستمد عمقاً جديداً من المعاني الكثيرة التي ارتبطت بها حتى أصبحت مركزاً تجتمع حوله أجزاء كاملة من وجودنا، إنها الحياة كلها مكثفة ومختصرة، فالذكرى عند من وهبت له حاسة البصر سلسلة من اللوحات أي من الصور والألوان، وقد تماسكت هذه الصور فأصبحت كل صورة تستدعي الصورة الأخرى بين الإدراكات البصرية و الأفكار انسجماً خفياً يدركه الشعراء ويراعونه في كل ما ينظمون⁽³⁾.

والعين هي الأداة الأولى والكبرى للإحساس بالجمال والإحاطة بمعانيه ، إذ أكثر المجازات والتشبيهات مستمدة من عمل العين وإحساسها⁽⁴⁾.

(1) نافع، عبدالفتاح الصورة في شعر بشار بن برد ، دار الفكر للنشر والتوزيع، عمان، 1983م، ص99.

(2) حاوي، إيلفن الوصف وتطوره في الشعر العربي، ط 2، دار الكتاب اللبناني، بيروت 1967م، ص15.

(3) ماري، جليل نجمة سامي الدروبي، مسائل فلسفة الفن المعاصر، ط 2، دمشق، 1965م، ص79.

(4) المازني، عبد القادر، بشار بن برد، مطبعة عيسى الحلبي، القاهرة، 1944، ص61.

وليس هناك من شك في أن البصر له قيمة عظيمة في الإحساس بالجمال ، بل هو الوسيلة الأولى لذلك . فعن طريق العين تختزن الذاكرة آلاف الصور التي تريد ها نتيجة الرؤية، ويكتسب الأشياء التي تميز بالعين لا تم يز بالحواس الأخرى كالألوان والأحجام وغيرها(1).

ونجد عند صدوق الصورة البصرية بشكل واضح في دواوينه الشعرية ، إذ يقول في قصيدة "سلاماً لأرض السلام":

إنني ألمحُ عبرَ الليل الصُّبحا
ألمح رايات الثَّارِ مزارعَ من حب ووَئام
وأرى في أعين أحبائي أشواق غرام...
يا أهلي... يا كلَّ العطر العابق في الأكمام
هَبُّوا كالفجر الساطع من خلف الأيام
سأضُمُّ العالم في صدري عنوان سلام(2)!

في هذه القصيدة نلمح صورة المنتصر الذي استطاع أن ي خرج من أغلال الهزيمة التي كانت تدمي يديه ، وتغلَّ قدميه عن المسير إلى الأقصى السليب وكنيسة القيامة الأسير التي تنتظر عودة أبنائها إليها من بعد تشريد ، لكنه المنتصر الذي يرتفع إلى ذروة التسامح والتسامي عن الجرائم الماضية والعفو عن عدوه الذي استلب لوضه وشرده أهله وقتل منهم من قتل لقد حول الشاعر، هنا ، رايات الثَّارِ، إلى مزارع حب ووَئام، وصور مواكب العائدين وكأنما هم موجات عطر تبهج النفس بدلا من أن تكون على عادة العائدين المنتقمين الحاقدين على أعدائهم ناراً وشواظاً ودماءً ودماراً. إنها صورة في غاية التطهر والترفع عن الأحقاد ونوازع الثَّارِ والارتفاع إلى أرفع وأنبل ما يرتقي إليه الإنسان الأصيل النبيل.

ويقول في قصيدة "كلمات من قلب":

لكني سوف أشق الحياة...

بقوةٍ وأنفها راغماً!

(1) نافع، صورة في شعر بشار بن برد، ص101-102.

(2) صدوق، ديوان أمطار الحزن والدم، ص85.

وسوف أبني عالمي شامخاً

كالشمس رغم الموت رغم العذاب

فالشمس لا تطفئ نيرانها

كآبة الأرض وحزن السحاب⁽¹⁾

في هذه الأبيات الشعرية تلتقي صورة الإنسان المكافح الذي يعاني من عذابات الحياة وخيباتها ومعاناتها مع صورة الإنسان الشجاع الذي لا يستسلم ولا يـضعف أو يهون، بل إنه يستمد من الضعف قوة ويصر على مواجهة الحياة بكل ما تتطوي عليه من مصاعب وعراقيل ومتطلبات، ساعياً بقوة لبناء عالمه الذي يليق بمثله ممن لا يستسلمون ولا يضعفون ولا ينهزمون أمام الصعاب ... وفي هذه الأبيات الشعرية نجد صورة الإنسان المادّة وصورة الإنسان الروح، ثم ننتهي إلى حكمة التجربة المؤمنة الصامدة مع الحياة وهي أن كل ما في الأرض من ظلام وكآبات وسحائب دكناء قاتمة لا يمكن أن تصمد في وجه الشمس... رمز النور والرفعة والوضوح.

وفي قصيدة "من قلب النار" يقول:

وأراك وهماً في الغيوب

ودماً تخثر في الشرايين الصديئة، في القلوب

وأراك عيناً أطفأتها الريح باردة الشحوب

وأراك كالشفة اليبوسة تبسم في

انتظار فم رطيب

وأراك حانية القباب، خفيّة الأجراس، تائهة الدروب

يا قدس... يا تاريخ... أي غد يطل وراء عالمك الرهيب؟⁽²⁾

إن القارئ يستطيع أن يرى القدس لحظة سقوطها بين أيدي الأعداء، لكنّه يراها رأي العين... فقد ظلت هذه المدينة المقدسة الطاهرة على مدى الأجيال موئل سلام ووثام وحضناً رؤوماً وثغراً باسماءً وناصيةً عاليةً شماء... وقد استحالت إلى كل ما هو غير ذلك وفي هذا التصوير للقدس، لحظة سقوطها تلتقي كل الصور

(1) صدوق، ديوان أمطار الحزن والدم، ص 60-61.

(2) صدوق، ديوان بقايا قصة الإنسان، ص 32

النفسية والحسية والبصرية مثلما تلتقي الدمعة بالرؤية ، والانكسار بصرخة النداء والاستغاثة التي تتطفي في غياهب السؤال الكبير . والشاعر، هنا، يستخدم أهم وأبرز ما في المدينة المقدسة من رموز تجمع ولا تفترق ، تلك الرموز التي ظلت وستظل ضمير المدينة وشاهدها، وأية ر موز وأرفع وأطهر وأنبل من قباب الأقصى المبارك وأجراس القيامة المقدسة؟

ويقول في قصيدة "تسامح":

رأيت بعينيك رحلة عمري

تسيرُ على زورقٍ من ضياء

وأشعلتُ من عمري شمعةً

لغيرك ما كان شمعي يُضاء

ولكنه الحبُّ... لا يأتلي

يُزينُ للقلب حتى الرياء

راضيتك زيفاً... ويا ويلتا

من الزيف في مهج الأصفياء!⁽¹⁾

في هذه الأبيات المجترأة من إحدى القصائد يسجل الشاعر تجربة من تجاربه مع حواء المدبرة بعد إقبال والمذقعة بعد اتصال ووصال، ونرى صورة حواء المعشوقة في الحالين خال الإقبال على الشاعر و التناغم معه والاتحاد فيه، وحال الخيبة فيما كان يعدّ قه عليها ويرجوه منها... وهو في هذه الأبيات يقدم لنا صورة حسية صادقة في الحالين صورة المحب المقبل الغارق في حبه عند الرضا ... وصورة المحب الغاضب الساخط عندما يكتشف أن عاطفته الصادقة وتضحياته المخلصة لم تثمر، ثم نجده — بعد هذه الخيبة الفاجعة — يعزى نفسه ليهون عليها مصيبة جلوبة المرة وكأنه يهدد جراحه ويواسي نفسه قائلاً : لا عليك... هذه هي طبيعة الحب، أنه في النهاية لا م ناص لنا من الرضا بالكثير مما لا نرضى به في العادة، حتى يظل الركب سائرا في الطريق مهما يكلفنا ذلك من احتمال ومعاناة.

(1) صدوق، ديوان رياح السنين، ص30

ويقول:

ترى الصديقَ صديقاً ما بذلت له

من ذات نفسك حتى ينضبَ المددُ

مثل الفراشاتِ حولِ الضوءِ حائمةً

ما دامت النارُ في المصباحِ تتقدُّ! (1)

لعل هذين البيتين يقدمان لنا صورة صادقة جلية للصدقة في كثير من المجتمعات التي ضعفت فيها القيم المتوارثة عبر الأجيال في الصدقة والصديق ، وصحباؤه في البيت الأول يحدثنا عن الصديق الجاحد ، بأسلوب إخباري تقريرى بكائي معناه يكون شائعا في هذه الأيام بين الناس ، إلا أن هذه الإخبارية التقريرية تنزّين بأجمل صورة تمثيلية يمكن أن تعكس صورة الصديق الجاحد الذي لا يحفظ إلا ولا ذمة، عندما يمثله بالفراشات التي تظل حائمة هائمة حول المصباح ما دام يتوهج بالنور، فإذا جف فيه الزيت وانطفأ النور، أشاحت هذه الفراشات عنه، إلى غيره، لتعيد لعبة جحودها كرة ثانية وثالثة من جديد.

وتصوير الشاعر للجحود، يمثل هذه السوية، يلتقي فيه الحس بالتجربة والخبرة في دنيا الحياة والناس، لكن تصويره للجاحد بـ مثل الفراشة يعبر عن صفاء سريرة الشاعر وبعده عن استعمال التشبيهات التي تجرح الشعور وتمس مكانة الإنسان وصورته الهية التي يصر عليها الشاعر دائما في قصائد كثيرة حتى ولو كان جاحدا.

ويقول:

لهفاً عليك... ألسْتَ تبصرني

كُذْبالةٍ في الريح تُحتضرُ؟!

مترنح الخفقات... ينكرني

روح الوجودِ وقلبهُ الحجرُ

والعين تبخل في مدامعها

ودمي يشظُّ كأنه سقَرُ

(1) صدوق، ديوان أمطار الحزن والدم، ص25.

أسقيه من ظمئي، وأطعمه

ضوءَ العيون، وليس يزدجر⁽¹⁾.

إننا نلحظ في هذه الأبيات أكثر من صورة يمتزج فيها البصري بالحسي بالنفس، مثلما يلتقي ظاهر الطبيعة بباطن النفس. وتظل الثقافة والخبرة الحياتية العميقة ماثلة دائماً وراء كل كلمة في كل قصيدة للشاعر صدوق، وهو في هذه الأبيات كما في غيرها من أشباهها يقدم أبسط ما تراه العين ويعاني منه القلب ويمر في الوجدان في صور يلتحم فيها الطبيعي المعروف الملموس بالباطن من الشعور المحسوس، ولكن في صورة جمالية تجمع بين البيان المشرق والحكمة المستتيرة في ما يشبه الحوار الداخلي مع نفسه ولنا أن نتصور كيف تكون حالة الشاعر - أي شاعر - عندما يكون حاله كذبالة في الريح العاتية، مترنح الخفقات جامد العينين في وجود حجري القلب ميت المشاعر، يسقيه الشاعر حتى من ظمأ عينيه ويطعمه ضوءهما، لكنه يظل على قسوته وجبروته لا يجدي معه بذل أو عطاء.

2.3.3.3 الصورة السمعية:

تعدّ حاسة السمع أكثر أهمية من حاسة البصر، فهي تستغل ليلاً ونهاراً وفي الظلام والنور، في حين أن المرئيات لا يمكن إدراكها إلا في النور والإنسان يستطيع أن يدرك عن طريق الكلام أفكاراً أرقى وأسمى مما قد يدركه بالنظر الذي معها عبر فتعبيره محدود المعاني⁽²⁾.

ولا يحفى ما لهذه الحاسة من أهمية في إدراك الجمال، فهي عماد كل نمو عقلي وأساس كل ثقافة ذهنية⁽³⁾.

إن صدوق لم يعتمد على الصورة البصرية فحسب بل استخدم الصور السمعية، لأن الإحساس بالجمال لا يقتصر على العين فقط بل يمكن أن يحسه الإنسان بطرق مختلفة مثل السمع واللمس والشم والذوق.

(1) صدوق، ديوان رياح السنين، ص 19-20

(2) أنيس، إبراهيم: الأصوات اللغوية، ط 4، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، 1950م، ص 15.

(3) نافع، صورة في شعر بشار بن برد، ص 169.

ويركز صدوق على الصوت يجعل منه وسيلة لفهم حقائق الوجود، والألم الذي يعبر عنه بالصوت يؤثر فينا على وجه العموم تأثيراً روحياً أبلغ من تأثير الألم الذي يعبر عنه تقريبات الوجه، وحتى بالحركات. والشعر نفسه ليس في حقيقة أمره إلا جملة من الكلمات المختارة يقصد بها الشاعر إلى أن يهز الأذن هزاً أقوى. (3) "

ومن الصور السمعية عند صدوق قوله:

أُسمعون صرخة الجراح في المنابر الحزينه؟!

أُسمعون صيحة المسيح في القيامة الطعينة؟

أُلمحون دمة الأطفال في ربوعها يتامى؟

ترقرقت كنبعة العبير من محاجر الخزامى؟ (4)

صحيح أن هذه الأبيات تتطوي على صورة سمعية في البداية، لكن سرعان ما تنوب في أصدائها دموع الأطفال اليتامى، الطاهرة كعبير الأزاهير، والصورة هذه التي تتكئ على السيد المسيح (عليه السلام) والأطفال اليتامى وعبير الخزامى، لا يصلح غيرها لتصوير طهارة القدس وطبيعتها السمحة وبراعتها من كل دنس... والذين يعرفون مدينة القدس معرفة عيان أو معايشة يستطيعون أن يروا صورة هذه المدينة المقدسة الطاهرة تتبدى بجلاء وصفاء في هذه الأبيات حتى ولو لم يرد فيها أيما ذكر صريح للقدس.

ويقول في قصيدة "بكائية":

صوتكم يا أخوتي الطالع من خلف الظلام

صرخة الميلاد في الأرض السلبية

أرضنا الخضراء ما عادت غريبة

صوتكم أطلعها كال فجر من خلف القتام

دمكم يمنحها نبض الحياة

يا أحبائي الذين

رفضوا ذلّ السنين

(1) ماري، مسائل فلسفة الفن المعاصر، ص79.

(2) صدوق، ديوان أمطار الحزن والدم، ص84.

يا بشارات الندى تسقي الروابي
يا دماً حراً يصب النار في روح الصغارِ الحالمين
يطلع الفجرُ على وهج الحراب⁽¹⁾

إن هذه الصورة السمعية تُكَلِّف عن سابقتها التي كانت القدس موضوعها .
فالشاعر يتحدث هنا عن المناضلين الخارجين من الجرأح، الصارخين في وجوه
الأعداء وكأن صراخهم هو صرخة الميلاد المؤذن بعودة الوطن السليب إلى أهله ...
صحيح أنها صورة صوتية ولكنها هذه المرة، صورة القوة والعزيمة والثأر . صورة
الغوللى الأرض على أصداء الصرخة المدوية المنطلقة من حناجر الأجيال
الطالعة، أجيال النصر. وقد اقتضت طبيعة هذه الصورة وهذا الموضوع أن يلجأ
الشاعر إلى استخدام الكلمات المعبرة عن القوة والعزيمة الملائمة لموضوع القصيدة
وصورها ومعانيها.
ويقول:

حنانك... أسمعُ صوت النذير وأسمعُ صوت الردى
يزلزلني اليأس... لكنني لم أزل في اللظى صامدا
إذا هزني الموتُ ثار الغرام بقلبي وروحي ندا
أخاف أناديك يوماً، فيفنى النداء... وما من صدى!⁽²⁾

وفي هذه الأبيات ، نجد صورة سمعية جديدة، يتراوح فيها الصوت بين صعود
وهبوط، بين شحوب وخفوت وغضب، فهو صوت الردى والنذر المستطيرة تارة، و
صوت اليأس والضعف والاستسلام تارة أخرى لكنه اليأس الذي يظل متشبثاً بأحلام
الصمود والأمل رغم تخوفه من أن يذهب نداؤه كما يضيع الصوت الصارخ في
البرية.

في هذه الأبيات، بكل ما فيها من تعابير وتصاوير، يتبدى لنا إنسان ضائع حائر
بين اليأس والأمل، بين نذر الموت وأحلام الحياة، لكنه مع هذه كله يظل الإنسان
المصرُّ على المواجهة والصمود رغم عدم ثقته بالطرف الآخر الذي يحلم به.

(1) صدوق، ديوان بقايا قصة الإنسان، ص62.

(2) صدوق، ديوان أمطار الحزن الدم، ص63.

وفي قصيدة "وداع عند الشريعة". يقول:
أكادُ أسمعُ الأوراقَ والغصونَ في كرومنا
ضارعةً إليك بالنداءِ
أكادُ أسمعُ السماءَ
كأنما استمال صمتها إلى نداء⁽¹⁾

إنها صورة سمعية أخرى لكنها من نمط جديد . فالصوت هنا صوت الحلم والأمل بعودة الغائب الشريد، الضائع في غياهب الصمت المطبق حوله، الذين يرون المأساة الفلسطينية بأعينهم، ومعاناة المشردين المبعدين عن وطنهم في أعقاب نكسة حزيران عام 1967م لا ينبض فيهم عرق أو يرتفع صوت ... إن الشاعر، هنا في هذه الأبيات ، كمن يبشر بأن أصوات أوراق الأشجار والغصون في الحدائق والكروم الفلسطينية هي صوت الصحوة والصوت الذي سيهتك سكينه الليل والهزيمة والخذلان.

وفي قصيدة "أمانك يا دنيا". يقول:
دعوتك يا دنياي.. هل تسمعيني؟

كأنني بسمع الدهر عني غافل!

تتكرر لي عمري وسيفي ولم أزل

أصارع دهري عنوة... وأقاتل...⁽²⁾

إن الصورة الصوتية في هذين البيتين، تعود بنا إلى الذاتية في خصوصية الشاعر نفسه الذي نجد في شعره كله حرارة التجربة وعمق الصراع وقوة المعاناة مع الحياة وأناسها، بفعل قطفه الطويل من قطر عربي إلى آخر أكثر من نصف قرن، إلى جانب اغترابه في أوروبا ثم في الولايات المتحدة الأمريكية. ولعلنا في هذين البيتين نكاد نلمح صورة البائس المهزوم الذي تخلى عنه كل شيء وتكرر له كل شيء، لكنه ما يزال رغم كل ذلك يصارع ويقاوم في الحياة.

(1) صدوق، ديوان بقايا قصة الإنسان، ص50.

(2) صدوق، ديوان رياح السنين، ص86.

ويقول:

حذار أن تصرخ، أو تستغيث، أو تطلب الرفق والعطف...
لأن الكبير لا يموت إلا صامتاً...

مثل الأشجار الشامخة تموت وهي واقفة...

وأنت من فصيلة الأشجار التي تعطي ثماره، حتى للذين
يضربونها بالعصي والحجارة!⁽¹⁾

رغم أن الشاعر يقدم لنا صوراً سمعية متنوعة منها صورة القوّة والعزيمة
والإرادة، وصورة الأمل والحلم، وصورة الحزن واليأس والشحوب، والصور
المتعلقة بالذات إلى جانب الصور المتصلة بالقضايا الوطنية والإنسانية ، إلا أنه هنا
ديقلنا الصورة الصوتية التي يعبر فيها الصراخ والاستعانة ضد الكرامة والرجولة
والإنسانية والشموخ.

والشاعر، هنا، يصور صراخ الاستغاثة على أنه خضوع وهبوط إلى مهاوي
الذل والهوان... وأن مواجهة التحديات بصمت ومن دون استغاثة حتى ولو أدى ذلك
إلى الموت والنهائية تظل هي الأكرم والأنبل ، لأن الإنسان الكبير مثله مثل الأشجار
الشامخة لا يموت إلا واقفاً رفيع الهامة.

ويقول:

غننا يا صاح، أنغماً عذاباً

نُرجع اللحنَ شجياً مستطاباً

وأعدّ ترنيمةَ المجد على...

مسمع الدهر سعيراً والتهاباً

نحن أشبال فلسطين هنا

لم نزل نصغي كهولاً وشباباً⁽²⁾

نلاحظ هنا، أن الشاعر عندما يتحدث عن قضيته الفلسطينية يرفع صوته عالياً،
ويلجأ إلى استخدام الكلمات الصاخبة ذات الجرس القوي المدوي فكل مكان مقال ،

(1) صدوق، ديوان الحزن أخضر دائماً، ص26.

(2) صدوق، ديوان أمطار الحزن والدم، ص19

وهو عندما يدعو إلى الإنشاد للوطن والنداء لنجدته وإنقاذ ه يقدم لنا صورة صوتية
كلاسيكية لا لبس فيها ولا إبهام، كما هو واضح في الأبيات السابقة.

ويقول في قصيدة "إلى ولدي":
تلفتُ حولي... فما من صدى

لصوتي سوى حشرات الردى

حياتي سدى... وسدى أمنياتي

وإني لأعشقُ هذا السدى⁽¹⁾

وهذا صوت أقرب إلى الصوت الذي يقدم لنا صورة إنسان متأمل فيلسوف قابع ،
في عزلته، هارب من عناء الدنيا ومعاناة الناس، رضي لنفسه — في النهاية — من
الغنيمة بالإياب، لكنه رغم وصوله إلى اكتشاف عدمية حياته كما يراها هو ، لا يجد
حرجا في أن يقول لنا إنه — رغم خواء حياته وهراء أمنياته — يعشق هذه الحياة
حتى أنه ليعشق هذا الخواء والهراء.

ويقول في قصيدة "قصة شاعر":

كلما قهقهت الأرضُ له

راح يبيكي.. لاعناً حتى أباه

إنه آدمُ في حيرته....

ضل حواءَ ولم يَقِفْ خطاها⁽²⁾

إن قهقهة الأرض، هنا، هي تصوير منه لسخريتها منه وهزئها به، وتلك صورة
صوتية غريبة لعل فيها جديدا لكنه يجيب على سخريتها واستهزائها بصبّ لعناته
عليها، ثم يصور حاله مع هذه الأرض (لعله يقصد بها الدنيا) بحال آدم مع حواء
عندما يضل عنها فلا يلحق بها تعبيرا عن عدم ولعه بها، والق بول بها كقدر إلهي
أملأه الله عليه فرضخ لمشيئته.

(1) صدوق، ديوان رياح السنين، ص11

(2) صدوق، ديوان كان لي قلب، ص26

3.3.3.3 الصورة اللمسية:

اللمس حاسة مهمة في إدراك الجمال، بل إن اللمس "يتيح لنا أن نشعر بإحساسات فنية من كل نوع ، حتى ليستطيع أن ينوب مناب البصر إلى حد بعيد، وإذا كانت حاسة اللمس عاجزة عن إدراك الألوان إلا إذ لها تطلعا على ناحية جمالية لا تستطيع العين وحدها أن تطلعا عليها كالنعومة والرخاسة والملامسة⁽¹⁾.

نوثم فالفنان إذا أراد أن يثير فينا انفعالا قويا، لا يكتفي بصورة بصرية وسمعية باردة، بل يحاول أن يوقظ فينا أعماق الإحساسات الجسمية من جهة، وأرفع العواطف الأخلاقية، وأسمى المعاني الفكرية من جهة أخرى، ولكنه عليه أيضا أن يفسح إلى جانب ذلك أكبر المجال للعواطف والأفكار⁽²⁾.

وتظهر عند صدوق أمثلة كثيرة على الصور اللمسية، إذ يقول في قصيدة " ارم ذات العماد " . يقول:

عيوننا التي توهجت على الرمال

تمسح الضباب

عن عيونهم وتصنع الخيال

زنودنا التي بنت قصورهم على السحاب

لكننا نعيش في التراب

كالجرذان... كالذباب⁽³⁾.

يقدم لنا الشاعر صور لقصية تضع المعنى والتجربة بين أيدينا، حتى لنكاد نحس بها وكأنها تدخض بين أصابعنا ، إنها صورة العربي المغترب الذي يبذل غاية الجهد، موكله من معرفة وخبرة وكفاءة لخدمة من يعيش بينهم في أراضي الغرب ، فلا يجد عندهم في نهاية الأمر بعضا من وفاء أو عرفان.

(1) ماري، مسائل فلسفة الفن المعاصر، ص41.

(2) المرجع نفسه، ص88.

(3) صدوق، ديوان بقايا قصة الإنسان، ص40.

ويقول:

دمعي ودمائي في الكاسات خمور
ولقد كنتُ تَقَهقه يا ربَّ الأربابِ
تأنفُ أن تبصق في وجهي...
... أن تلمس جسدي بحدائك، تدفعني للحُجَّابِ!
(يا عبدَ السوءِ، تمزقُ
ما أروع أن يتمزق عبدُ السوءِ)⁽¹⁾.

إن الصورة هي أقرب ما تكون إلى الدراما إذ يخاطب فيها العبد سيده بعد أن انقلبت الأمور وتغير الحال، وأصبح العبد في موقف القوة والقرار والجبروت، فيما أصبح سيده في موقف ضعف واستسلام لا يملك الدفاع عن نفسه . وفي الصورة نلمس كيف كان يتعامل "السيد" مع "عبد" أيام كان ينعم السيد في ألف ليلة وليلة " وفق ما يرويهِ ويتذكره ويذكره العبد في حوارهِ مع سيده بعد شروق الشمس ونهاية ال "ألف ليلة وليلة" وطلوع فجر جديد.

والقارئ، هنا، يكلن-خلال قراءته أو سماعه لحديث العبد مع سيده - أن يلمس دموع ودماء هذا العبد وهي مزجاة في كأس السيد أيام مجده، وسخريته به واحتقاره إياه، إنها صورة " لمسية بگل ما في الكلمة من معنى . تتحد فيها الكلمة بالصورة بالمعنى اتحاد عين وفكر وقلب ووجدان.
ومن الصور اللمسية في قصيدة " في بحر الرغبة " :
فصبي الموت يا صخرة....

على كتفي، في زندي، صبي الموت واحترقي...
يظلُّ الوهجُ في عينيَّ من خلف الزجاج، يشعُّ

بالألق⁽²⁾.

إننا نلمس في هذه الصورة القوة والإصرار والعزيمة بقدر ما نلمس التحدي والمواجهة. إنها تعبر عن تجربة له، مع إحدى اللواتي عرفنه وتعرف إليهن كانت

(1) صدوق، ديوان أمطار الحزن والدم، ص75.

(2) صدوق، ديوان بقايا قصة الإنسان، ص55.

ثقيلة كالصخرة على كتفيه، احتملها وصبر عليها ما كان يستشعره من أذى وكيد، لكنه استهان بهذه الصخرة "المرأة" وتحداها أن تصنع به ما تحلو لها، لكنها لن تجد فيه — رغم كل الكيد — إلا التوهج والإشعاع. في هذا المقطع الصغير نقرأ : الموت، الصخرة، الكتفين، والزندان، الاحتراق، الوهج، الزجاج، الإشعاع، والقلق، هذه الـ كلمات هي في الواقع النسيج التي صنع منها الشاعر صورة معبرة، كأنها تنطق متجسدة بين يدي القارئ بأبلغ لسان وبيان.

4.3.3.3 الصورة الشمية والذوقية:

نجد الكيفيت الحسية سواء كانت اللمس، أم الذوق، أم البصر، أم السمع، تنطوي على صيغة جمالية ولكنها لا تنطوي على هذه الصيغة الجمالية على أفراد، بل من حيث هي مترابطة فهي ليست موجودات منفصلة، بل هي عناصر متداخلة متفاعلة⁽¹⁾.

لجأ صدوق إلى استخدام حاستي الشم والذوق، ليصور ما يلمسه وما يشمه وما يتذوقه، فتحدث عن الورد والأزهار والعطر والعبير لدى تصويره ما يشم، ولجأ إلى مختلف ألوان الطعوم ليصور ما يتذوق. يقول في قصيدة "جموح":
أنا أحبكِ... لا أرضي بمُخصبةٍ

ولا سمائي في أردانها مطرُ

بايعتُ فيك الندى والعطر، فانسكبتُ

في الروح قارورة راووقها خضرُ

كأنني الآن قبضُ من مباخرها

ونسمةٌ من أثر الروح تنتشرُ⁽²⁾

رغم أن هذه القصيدة كلاسيكية المبنى، إلا أنها تمر بالصورة والمعاني الجديدة المتداخلة الملتصقة بعضها مع بعض . ونحن إذ نقرأها نكاد نشم في أثنائها رائحة

(1) ديوي، جون ألفن خبرة، ترجمة د . زكريا إبراهيم. دار النهضة العربية، القاهرة، 1963م، ص202.

(2) صدوق، ديوان رياح السنين، ص38 .

المطر، والندى، والعطّر، الذي يمتزج ذلك كله ويتحد مع ذات الشاعر وسمائه وروحه ويتحد معها حتى ليكايغدو نبضة، في مباخرها ، ونسمة من أثير الروح " في الفضاء، إنها صورة نشمها بالأنف أكثر مما نراها بالعين أو نسمعها بالأذن، أو نلمسها باليد.

ويقول في قصيدة "جسور في الآفاق":

لعل في جوارنا ينكشف القمرُ
ويفرشُ الدروبَ بالضياء والزهرُ
أشمُ في خديكِ عنبر المساءِ في بلادنا الحبيبة
وفي جبينكِ الوضيء طلعةُ الصباح
يا نجمتي الغربية.....⁽¹⁾

هنا تمتزج رؤية القمر بشم العنبر، ويلتقي الضياء بالزهر ، ويتحد جبين المحبوبة الوضيء بطلعة الصباح في الوطن ، لكأن الشاعر في هذه المقطع من القصيدة يحيل "خدي" الحبيبة إلى قارورة من العطّر، فلا يعود القارئ يتذوق القصيدة كلها إلا بحاسة الشم ، لقد وظف جماليات الطبيعة (القمر، الضياء، الزهر، المساء، طلعة الصباح والنجمة)، لتكثيف صورة التذوق للقصيدة كما لو أنها لا تفهم ولا تحس ولا تقرأ إلا عن طريق حاسة الشم . وقد نجح في تحقيق ذلك حتى لا نكاد نعثر بكلمة خارجة عن النسق أو لفظة شعرية دخيلة على المعنى والسياق.

وفي قصيدة "يا سادن الحب". يقول:

يا شاعرَ الحبِّ خلَّ الحبَّ ينفحنا

لعلنا بعبير الحبِّ نبتردُّ...

جفَّ الرحيقُ بثغر الروح، فانطفأت

لذاذة الحس فيها، وانطوى الرغد⁽²⁾

وفي هذه القصيدة -على الأخص في هذين البيتين - تتجلى "الصورة الشمية" في أجلى مظاهرها ، إذ جعل الحب ينفح بالعيد، وقرن جفاف الـ رحيق في ثغر

(1) صدوق، ديوان بقايا قصة الإنسان، ص69.

(2) صدوق، ديوان أمطار الحزن الدم، ص24.

الروح بإطفاء لذاذة الحس ... ونحن، هنا ، لا نستطيع أن نتذوق الحب إلا عن طريق
النفوح كأن الحب قد صنع منه الشاعر بستاناً من الأزهار ، كما أننا لا تتوهج فينا
لذاذة الحس في أرواحنا إلا إذا ظل الرحيق نديا يفوح في ثغرها.
ويقول:

لا تسأليني كيف الدهر شررني

وكيف ذابت مع الأنسام أهاتي

وكيف كان شبابي ريحهُ عبقٌ

فذاب كالنور في كهف الدُجَنات⁽¹⁾

وهنا، أيضاً، نجد الصورة الشمية من خلال اسـ تخدام الشاعر لكلمتي "الأنسام"
و"ريح عبق"، فجعل "الأنسلي" الرمز المعبر عن سعادته وطمأنينته و هوائه، مثلما
جعل من ريح الشباب ودوام عبقه وانتشاره هو نور حياته الذي يضيئها بالمسرات.
أما الصور الذوقية فهي كثيرة، إذ يقول في قصيدة "جموح":
شربتُ كأسِي حتى عفتُ لذتها

وغصّ بالكأسِ ما روّاني الكدرُ

ولا يزال دمي ظمآن من لهفٍ

يتوقُّ للموردِ الأسمى ويستعرُ

قطفتُ من سره المكنون معجزةً

لو استحالت رؤى لاختوضر الحجر⁽²⁾

وهنا، بعد كل الصور الشعرية التي مرت بنور صدها وتحدثنا عنها ، في شتى
أنواعها وتشكيلاتها، تأتي "الصورة الذوقية " التي نرى فيها جماليات الصورة من
خلال حاسة التذوق، حيث لا يغني عن هذه الحاسة في تذوق العديد من القصائد وما
تزخر به من صور، أية حاسة أخرى من البصر إلى السمع إلى اللمس إلى الشم.

(1) الديوان، كان لي قلب، ص 69 .

(2) الديوان، رياح السنين، ص 40 .

والشاعر في هذه الصورة نجده يستخدم من قاموسه الشعري ما يخدم هدفه ويؤدي غرضه في أنه يلجأ إلى استحضار الأدوات المرتبطة بحاسة التذوق، والصفات والكلمات المتصلة بها مثل : نلرب، كأس عاف ، لذة، غص، روي، الكدر، الظمأ، المورد) وهي جميعاً تشكل نسجاً شعرياً محكماً رائعاً يتذوقه القارئ ولكأنه هو الذي يشرب الكأس ويعاف لذتها ويغص بكأسها ، لأنه يتوق للمورد الأسمى الذي يحلم به ويطمح إليه.

وفي قصيدة"على أسوار بابل " . يقول:
افتحي الأبواب يا بابل، إن الليل طال
رضعت أكبادنا الشمس، وعافتنا الدروب
نحن طوفنا متاه الأرض، رُدنا الريح، جَوَّابين في

عرض البحار⁽¹⁾

في هذا المقطع الشعري الصغير من قصيدة (على أسوار بابل العصر)، ينتقل الشاعر من الذاتي الخاص في الصورة الذوقية، إلى العام المتصل بقضيته الوطنية الأساس. وهو هنا يصور الخارجين المنفيين من القدس، بعد احتلالها من قبل الصهاينة عام (1967م). وهم يطرقون أبواب مدينة "بابل" التاريخية المرتبط اسمها باحتضان الذين سبهم نبوخذ نصر من القدس في القرون الأولى. وينطوي هذا المقطع على صورة من أجمل الصور الذوقية حينما يصور طول رحلة المنفيين الجدد ومعاناتهم وإغلاق جميع الأبواب وجوهم في قوله "رضعت أكبادنا الشمس وعافتنا الدروب" وهو القول الذي يختصر الصورة بأكملها في أجمل بيان. ويقول:

نحن في كل ظلامٍ مشعلٌ

يهتك الليل ويجتاحُ السحابا

من خيام الذل فجرنا المنى

وأحلناها رحيقاً وشرابا

(1) صدوق، ديوان بقايا قصة الإنسان، ص30.

وسقينا الأرضَ من أكبادنا

وملأناها جراحات خضابا

ورزايا الدهر لما أظلمت

شحذت أضلعنا الحرَّى حرابا⁽¹⁾

وعلى مستوى آخر ، يقدم لنا الشاعر صدوق ، صورة ذوقية أخرى متصلة بالوطن الفلسطيني وشعبه الصامد ، حيث يفجر في الأبيات السابقة من "خيام الذل" الآمال والأمنيات ويحيلها إلى رحيق وشراب للصابرين الصامدين من أبناء الشعب الشريد. مصوراً صموهًا هذا الشعب وإصراره على العود في صورة لعلها من أروع صور التدوق، إذ يقول إن الشعب سقى الأرض من أكباده، وخضبها بجراحه. وفي قصيدة "إلى ولدي" يقول:

بُنِيَّ اقترَب من فمي... إنني

رويتُ من الوهم حتى الصدى

فلا الشهدُ من علقمٍ مُسْعَفِي

ولست أُلذُّ بقطر الندى⁽²⁾

وهذه صورة أخرى من "الصور الذوقية" التي نتملاها ونتفهمها بحاسة الذوق أكثر من سُلها، إذ نراه ونسمعه يهيب بولده أن يقترب منه لتقبيله ، لأنه روي من الوهم الذي عاش فيه حياته كلها ، حتى بلغ حد العطش، لم يعد في مقدور الشهد أن يسعفه مما يغص به من علقم الحياة، كما لم يعد يستشعر بأية لذة حتى من "قطر الندى".

ويقول في قصيدة "الفلسطيني التائه":

أنا منفيٌّ بين الأهل

أكلوا زادي

(1) صدوق، ديوان أمطار الحزن والدم، ص20.

(2) صدوق، ديوان رياح السنين، ص11.

أطعمني أهلي ملحاً وسراباً⁽¹⁾.

وفي هذا المقطع يـ صور نفسه في منفاه بين أهله على اتساع أقطارهم، إذ تركو هـ منبوذاً يطعم الملح ويقتات بالسراب بعد أن أكلوا زاده ! وهي صورة ذوقية حقا لكنها تتطوي على معنى سياسي غير خاف، ولعله أراد أن يقول إن "أهله" العرب أفادوا كثيراً قضيته الفلسطينية واستثمروها لصالحهم، لكن نصيبه منهم ... كان الملح والسراب!.

4.3 الخاتمة

وبعد،

فإن دراسة متأنية لشعر راضي صدوق تكشف لنا عن جوانب عديدة أهمها:

1. أبرزت إسهامات الشاعر راضي صدوق واضحة في الشعر الأردني في وقت مبكر من هذا القرن، لاسيما فيما يخص قصيدة التفعيلة. إذ أفاد كثيراً من شعراء السبعينيات والثمانينيات من التجربة الشعرية والفنية لهذا الشاعر ولبعض من معاصريه من الشعراء.

2. التقى الشاعر ثقافته من مصادر متنوعة تراثية وحديثة، يأتية، استطاع من خلالها تكوين إرث ثقافي وظيفه من خلال تجربته الشعرية التي عبر من خلالها عن قضايا أمته وهمومها.

3. راوح صدوقي دواوينه الشعرية بين القصيدة العمودية والحرّة ، ونجح في توظيفهما بشكل مميز، مما يعكس ثقافته الشعرية الواسعة.

4. يرى صدوق أن الحركة الشعرية في الأردن، شأنها شأن الحركات الشعرية في سائر أقطار العروبة ، تندفع إلى طريق غاشم غائم لا نهاية له، بعد أن تسلل إليها كل من هبّ ودبّ وأخذ الدخيل يزاحم الأصيل، في غيبة من النقد الخبير المسؤول والنقاد المؤهلين الجادين المخلصين.

(1) صدوق، ديوان بقايا قصة الإنسان، ص46.

5. جملة القصيدة عند صدوق بين الهموم الوطنية والـ لقومية، والاجتماعية والوجدانية مما يدل على قدرة الشاعر العالية في الطرح والمعالجة من خلال لغة فنية راقية.

6. يعد صدوق واحداً من الشعراء الأردنيين القلائل الذين افردوا ديواناً مستقلاً للغزل إذ نجد من خلال متابعة شعره في الحب والمرأة، بأنه أسير هذه النظرة القديمة التي عبر عنها وجسدها في ديوانه الأول (كان لي قلب).

7. حمل صدوق في شعره لواء الغربة والـ اغتراب، حيث ظهر غر بياً قلقاً منكسراً بفعل الأحداث السياسية التي انتزعته من أرضه ويظهر هذا الانكسار جلياً في قصائده ذات الطابع الوطني والوجداني والفلسفي على السواء.

8. شغلت ظاهرة الحزن حيزاً كبيراً من قصائد صدوق، إذ نجده في كثير من قصائده متشائماً دائماً، وقد عبر عن خلال هذه الظاهرة عن المعاناة والتجربة الصعبة التي عاشها عبر مسيرة حياته الطويلة في أكثر من بلد عربي وأجنبي.

9. جاءت لغة الشاعر في كل دواوينه الشعرية، سهلة بسيطة بعيدة عن التعقيد والغموض، وذلك بفضل خبرته وتمرسه عبر مسيرته الشعرية.

10. استطاع صدوق أن يعبر عن رؤيته الشعرية وأبعاد تجربته التي عاشها عبر مسيرة حياته الطويلة من خلال استخدامه الرموز الشعرية الدالة والهادفة في قصائده.

11. أفاد صدوق من التراث بجميع أشكاله، سواء أكان التراث التاريخي أم التراث الأدبي أم التراث الديني وقد اتكأ عليه لإيصال كثير من أبعاده النفسية والشعورية وللتعبير عن تجربته الشعرية.

12. اتت الصورة بأبعادها المختلفة محوراً مهماً في قصائد الشاعر كلها، وقد يعود ذلك لإيمانه الشديداً بالصورة هي التي تحدث الهزة في نفس القارئ، وتترك أثراً طيباً في الشعر.

المصادر والمراجع

القران الكريم

ابن منظور جمال الدين محمد بن مكرم . (د.ت). لسان العرب، تقديم الشيخ عبدالله العلايلي، إعداد وتصنيف يوسف خياط، المجلد الثالث، دار لسان العرب، بيروت.

أبو أصبع. صالح (1979م). الأدب وفنونه، ط6، مطبعة السعادة مصر.
أبو أصبع. صالح (1979م) الحركة الشعرية في فلسطين المحتلة منذ عام 1948-1975م، ط1، المؤسسة العربية للدراسات النشر.

أبو خضرة، سعيد جبر محمد . (2001م). تطور الدلالات اللغوية في شعر محمود درويش، دار الفارس للنشر والتوزيع، عمان.

أبو ديب، كمال. (1984م) الحداثة، السلطة، النص، مجلة فصول، مجلد 4، عدد3، الهيئة العامة للكتاب. ص50-70

أحمد، محمد فتوح. (1978م). الرمز والرمزية، ط2، دار المعارف.
إسماعيل، عز الدين . (1967م). الشعر العربي المعاصر ، قضايا وظواهره الفنية والاجتماعية، دار الكاتب العربي، القاهرة.

أنيس، إبراهيم. (1950م). الأصوات اللغوية، ط4، مكتبة نهضة مصر، القاهرة.
باقر، محمد. (1990م). التناسل المفهوم والآفاق"، مجلة الآداب، عدد6، بيروت. ص55-70

بشرى، صالح. (1994م) الصورة الشعرية في النقد العربي الحديث، ط1، المركز الثقافي العربي، بيروت.

البصري، عبد الجبار داود . (1968م). بدر شاكر السياب، رائد الشعر الحر، دار الجمهورية بغداد.

الثعالبي، أبو منصور عبدالملك بن محمد بن إسماعيل . (د.ت) فقه اللغة وأسرار العربية ضبطه وعلق حواشيه ناسين الأيوبي، ط 1، المكتبة العصرية، بيروت.

- جميعان، محمد سلام . (2007م). الحلم المغدور في بقايا قصة الإنسان، مجلة أفكار، عمان، العدد 224. ص 82-123
- حاوي، إيليا. (1967م). فن الوصف وتطوره في الشعر العربي ، ط2، دار الكتاب اللبناني، بيروت.
- حداد نبيل. (1976م). الحركة الشعرية في الأردن (1921-1948). رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة عين شمس، كلية الآداب، قسم اللغة العربية وآدابها، القاهرة.
- الحصري، ساطع. (1984م) آراء وأحاديث في الوطنية والقومية ، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت.
- حمدان، أمية حمدان . (1981) الرمزية والرومانتيكية في الشعر اللبناني، منشورات وزارة الثقافة والأعلام، بغداد.
- خليل، صالح. (د.ت) الانتفاضة الفلسطينية في الشعر الأردني والفلسطيني الحديث، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة مؤتة.
- داغر، شريل. (1997م) التناسل سبيلاً إلى النص الشعري وغيره ، مجلة فصول، مجلد 16، القاهرة.
- داود، أنس. (د.ت). التجديد في شعر المهجر، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر.
- درويش، صالح. (1968م). الرمز في الشعر، الأعلام، السنة الرابعة، بغداد، العدد 5. ص 25-45
- العكبري، أبو البقاء. (د.ت). ديوان أبو الطيب المتنبي، دار المعرفة، بيروت.
- ديوي، جون. (1963م). الفن خبرة، ترجمة زكريا إبراهيم، دار النهضة العربية، القاهرة.
- رضا، أحمد. (1960م). معجم متن اللغة، المجلد الخامس، دار مكتبة الحياة، بيروت.
- الرواشدة، سامح. (2001م). إشكالية التلقي والتأويل، ط1، جمعية عمال المطابع التعاونية، عمان .

- الرواشدة، سامح. (2007م). النزوع الأسطوري في ديوان بقايا قصة الإنسان، أفكار، عمان، العدد 224. ص 82-123
- زايد، علي عشري . (1977م) **عن بناء القصيدة العربية** ، دار الفصحى للطباعة والنشر.
- زايد، علي عشري . (1978م). استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر، ط1، منشورات الشركة العامة للنشر والتوزيع وإعلان.
- الزعبي، أحمد. (1995م). **التناس نظرياً وتطبيقاً**، ط1، مكتبة الكتابي، إربد.
- الساعي، أحمد بسام . (د.ت) **حركة الشعر الحديث في سورية من خلال أعلامه**، دار المأمون.
- سعيد ، خالدة . (1982م). **حركة الإبداع** واسات في الأدب العربي الحديث، ط 2، دار العودة، بيروت.
- سيرنج، فيليب. (1992م). **الرموز في: الفن، الأديان، الحياة**، ترجمة عبدالهادي عباس ط1، دار دمشق، دمشق.
- الشرع، علي. (1991م) **لغة الشعر العربي المعاصر في النقد العربي المعاصر في النقد العربي الحديث** ، منشورات عمادة البحث العلمي والدراسات العليا، جامعة اليرموك.
- شقيرات، أحمد. (1987م) **لاغتراب في شعر بدر شاكر السياب** ، ط1، دار عمار، عمان.
- الشلبي، محمود. (1984م). **عبدالرحيم عمر شاعراً**، ط1، مطبعة الخالدي، عمان.
- شهاب، أسامة. (1988م). **صحيفة الجزيرة الأردنية**، ط1، منشورات وزارة الثقافة والتراث القومي، عمان.
- الشوابكة، محمد. (1989م). **الغربة والاغتراب في شعر ابن دراج، مجلة مؤتة للبحوث والدراسات**، سلسلة العلوم الإنسانية، م4، العدد 2. ص 129-145
- شوقي، أحمد. (1986م). **الشوقيات**، ط1، دار الكتاب العربي، بيروت، الجزء الأول.

الصائغ، عبدالإله. (1987م) الصورة الفنية معياراً نقدياً، ط1، دار الشؤون الثقافية، بغداد.

صدوق، راضي. (1962م). ديوان كان لي قلب، ط1، دار الكاتب العربي، بيروت.
صدوق، راضي. (1966م). ديوان النار والطين، ط1، دار الآداب، بيروت.
صدوق، راضي. (1974م). ديوان بقايا قصة الإنسان، ط1، دار العودة، بيروت.
صدوق، راضي. (1978م). ديوان أمطار الحزن والدم، ط1، دار العودة، بيروت.
صدوق، راضي. (1989م). ديوان رياح السنين، ط1، دار كرمة، روما.
صدوق، راضي. (1989م) هوامش في الفكر والأدب والحياة ، ط1، منشورات وزارة الثقافة، عمان.

صدوق، راضي. (1991م). ديوان الحزن أخضر دائماً، ط1، دار كرمة، روما.
صدوق، راضي. (1993م). نظرات في الأدب السعودي، ط1، دار طويق للنشر.
صدوق، راضي. (1999م). ديوان الشعر العربي، ط1، دار كرمة للنشر، روما.
صدوق، راضي. (2000م) شعراء فلسطين في القرن العشرين ، توثيق أنطولوجي، دار كرمة للنشر، روما.

صدوق، راضي. (2001م). مسيرة الشعر العربي في القرن العشرين، ندوة الشيخ سعود المريبض، الرياض.

صيدح، جورج. (د.ت) أدبنا وأدباؤنا في المهاجر الأمريكية، ط1، دار العلم للملايين، بيروت.

الضمور، عماد. (2001م). محمود فضيل التل حياته وشعره، ط1 وزارة الثقافة ، عمان.

الطائي، أبو تمام . (1981م). ديوان الحماسة، تحقيق عبدالسلام عبدالرحيم عسيلان، إدارة الثقافة والنشر بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ج1.

الطائي، أبو تمام . (د.ت). ديوان الحماسة شرح العلامة التبريزي، ط1، دار القلم، بيروت، لبنان، ج2.

ظبيان، تيسير. (1967م). الملك عبدالله كما عرفته، المطبعة الوطنية، عمان.

العامري، بهاء الدين. (1983م). الكشكول، دار الكتاب اللبناني، ج1، بيروت.

- عباس، إحسان. (د.ت). **فن الشعر**، ط3، دار الثقافة، بيروت، لبنان.
- عبدالرحمن، نصرت. (1976م) **الصورة الفنية في الشعر الجاهلي**، مطبوعات مكتبة الأقصى، عمان.
- العبسي. (1969). **ديوان عنقرتقديم وشرح محمد عبدالمنعم خفاجي**، ط 1، مكتبة القاهرة.
- عثمان، عبدالرحمن. (1968م) **في الأدب المعاصر**، مطبعة دار النشر للجامعات المصرية.
- العدوان، أمينة. (د.ت). **دراسات في الأدب الأردني المعاصر**، منشورات رابطة الكتاب الأردنيين.
- العشماوي، محمد زكي. (1975م) **قضايا النقد الأدبي المعاصر**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الإسكندرية.
- العشماوي، محمد زكي. (1989م). **فلسفة الجمال**، دار النهضة العربية للطباعة والنشر في الفكر المعاصر، بيروت.
- عطوات، محمد. (1998م) **الاتجاهات الوطنية في الشعر الفلسطيني المعاصر من (1918م) إلى (1968م)**، ط1، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت.
- عطيات، محمد. (د.ت). **الحركة الشعرية في الأردن تطورها ومضامينها (1921م- 1967م)**، الجمعية العلمية الملكية، عمان.
- العودات، يعقوب. (1968م). **البدوي المثلث، أعلام الفكر والأدب في فلسطين**، ط1.
- عيسى، راشد. (2007م). **راضي صدوق أدبياً، مجلة أفكار**، منشورات وزارة الثقافة عمان، عدد 224. ص 82-123
- فضل، صلاح. (1989م). **طراز التوشيح بين الانحراف والتناص، مجلة فصول**، مجلد 8، القاهرة. ص 60-78
- فضل، صلاح. (1995م). **أساليب الشعرية المعاصرة**، ط1، دار الآداب، بيروت.
- فهمي، ماهر حسن. (1970م) **الحنين والغربة في الشعر العربي الحديث**، معهد البحوث والدراسات العربية، مطبعة الجبلاوي.

- القط، عبدالقادر. (1980م) **الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر**، ط1، منشورات جامعة اليرموك، إربد.
- قطامي، سمير. (1981م). **الحركة الأدبية في الأردن (1921-1948)**، وزارة الشباب، عمان.
- قطامي، سمير. (1989م). **الحركة الأدبية في الأردن (1948-1967)**، منشورات وزارة الثقافة والتراث القومي، عمان.
- لقيرواني، ابن رشيق . (1955). **أبو العباس الحسن، للعمدة في محاسن الشعر ونقده**، ط1، السعادة.
- الكبير، حسن أحمد . (د.ت) **تطور القصيدة الغنائية في الشعر العربي الحديث من (1881-1938م)**، دار الفكر العربي.
- كرستيفا، جوليا. (1991م). **علم النص**، ترجمة فريد الزاهي، مراجعة عبدالجليل ناظم، ط1، دار توبقال للنشر، المغرب.
- ماري، جان. (1965م). **ترجمة سامي الدروبي: مسائل فلسفة الفن المعاصر**، ط2، دمشق.
- المازني، عبدالقادر. (1944م). **بشار بن برد، مطبعة عيسى الحلبي، القاهرة**.
- محاسني، زكي. (1963م). **المعرفة، مجلة ثقافية شهرية، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، حزيران. ص148-165**
- مدحت عبدالجبار. (1995م) **الصورة الشعرية عند أبي القاسم الشابي** ، ط2، دار المعارف، القاهرة.
- مرتاض، عبدالملك. (1988م) **في نظرية النص الأدبي، مجلة الموقف الأدبي، عدد 201. ص56-79**
- مطلوب، أحمد. (1985م) **الصورة في شعر الأخطل الصغير** ، دار الفكر للنشر والتوزيع، عمان.
- مغنية، أحمد محمود . (2004م) **الغربة في شعر محمود درويش (1972-1982)**، ط1، دار الفارابي.

- مفتاح، محمد. (1986م). تحليل الخطاب الشعري (إستراتيجية التناص)، ط2،،المركز العربي، بيروت.
- ممدوح، مجدي. (2007م). التعبيرية في شعر راضي صدوق، مجلة أفكار، العدد224.ص82-123
- منصور، عبد الرحمن. (1977م). اتجاهات النقد الأدبي في القرن الخامس، مطبعة دار العلم، القاهرة.
- موسى، خليل. (1991م)الحداثة في حركة الشعر العربي المعاصر ، ط1، مطبعة الجمهورية، دمشق.
- الناعوري، عيسى. (1980)للمحركة الشعرية في الضفة الشرقية ، ط1، وزارة الثقافة والشباب.
- نافع، عبدالفتاح. (1983م)الصورة في شعر بشار بن برد ، دار الفكر للنشر والتوزيع، عمان.
- النجار، عبدالفتاح. (1980م).التجديد في الشعر الأردني ، (1950-1978)، ط1، دار ابن رشد للنشر والتوزيع، عمان.
- هلال، محمد غنيمي . (1964م).النقد الأدبي الحديث ، ط3، دار النهضة العربية، القاهرة.
- هلال، محمد غنيمي. (1981م). الرومنتيكية، ط6، دار العودة، بيروت.
- هيكل، أحمد. (1971م). تطور الأدب الحديث في مصر، ط2، دار المعارف بمصر.
- الوحش، إبراهيم محمد. (1992م)مأساة بيروت في الشعر العربي المعاصر، ط1، المطبعة الاقتصادية، دبي.
- الورقي، السعيد. (1984م). لغة الشعر العربي الحديث، دار النهضة العربية، بيروت.
- ياغي، هاشم وآخرون . (د.ت)ثقافتنا في خمسين عاماً ، منشورات وزارة الثقافة، عمان.
- ياكوبسون رومان. (1988م). قضايا الشعر،ترجمة محمد الولي حنون، ط 1، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء.

السيرة الذاتية

- الاسم: معتصم دحيلان عبدالنبي الضلاعين
- الكلية: الآداب.
- التخصص: اللغة العربية وآدابها.
- السنة: 2008م.
- العنوان البريدي: الكرك – مؤتة.
- العنوان الإلكتروني: www.mu3tasan.yahoo.com